جامعة المنيا
كلية الدراسات العربية
قسم البلاغة والنقد والأدب المقارن

البيان العربي

" تأصيل وتجديد "

الدكتور/ سيد حسونة

ر للطباعة وتصوير المستندات الرسار
ت / ٢٢٨٧٢٢٢

الكتاب به ميل من الأصل

الإهـداء

إلى عبد الرحمن وخديجة وسارة ومريم

إلى أســـرتي الحبيبة

أهدي هذا الكتاب

"سيد"

" بسم الله الرحمن الرحيم "

« رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي »

المقدمــــــــة

ليــس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم فى النفس ، وتصويره فــى نظر القارئ أو مسمع السامع تصويرا صحيحا لايتجاوزه ، ولايقصــر عنه .

وقد جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونــــادر الأساليب فملؤا بها صدور كتبهم ، وحشوها فى حلوقها حشوا يحبس أنفاسهــــا فجاء بيانهم متنـــا مُشَوَّشًا من متون اللغة ، أو كتابا مضطربا من كتب المترادفات

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر فى القول ، والتبسُّط فى الحديــث واقعا ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع ، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجتـــرارًا حتى تسف وتبتذل ، وحتى ماتكاد تسيغها الحلوق ولاتطرف عليها العيــون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

يُخَيَّل إلىَّ أن معظم الكتاب فى هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر ممـــا يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التى تتلجلج فــى صدر الإنسان حينما يخلو بنفسه ، ويأنس بوحدته ، فإنى لا أكاد أرى بينهــم من يحكم وضع فمه على أذن السامع ، وينفث فى روعه مايريد أن ينفث من خواطر قلبه وخوالج نفسه .

ولعــل سبب ذلك كله عائد إلى جهلهم بأساليب البيان العربى وعجزهــم عن إيجاد صلة بين متكلم يفهم ، وسامع يفهم ، فمقدار تلك الصلة من القــوة

والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف ، فإن أردت أن تكون يوما كاتبا عظيما أو شاعرا مُفْلِقًا ، أو خطيبا مقنعا فاجعل أساليب البيان العربي قاعدة انطلاقك واحرص الحرص كله على أن يستمد روح كتابتك منها .

وبعد :

فإني لا أرى لك ياطالب البيان العربي سبيلا إليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لاوقوف المتنزّه المتفرج .

ولاتحدّثك نفسك أني أحثك على مطالعة المنشآت العربية لأسلوب تسترقه أو تركيب تختلسه ، فإني لا أحب أن تكون سارقا أو مختلسا ، فإن فعلت لم يكن بيانك بيانا ، وكان كل ما أدركته أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لاتتناسب بين أجزائها ، وبُردة مرقّعة لاتلاؤم بين ألوانها ، وإنما أريد أن تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها عفوا بلا تكلف ولاتصنّع .

واعلم أنه لابد لك فيما تريد أن تزاوله من الأساليب البيانية من الاطلاع على جهود القدماء والمحدّثين فليس كل جديد ينفعك ، ولاكل قديم يضرك ولا أحسبك إلا واقفا بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب ، لأن حسن الاختيار غاية تنقطع دونها أعناق الرجال ، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء ، الذين تعرف منهم ذوقا سليما ، وقريحة صافية ، وملكة في الأدب كصفاة الذهب .

فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاءً وفطنة وقريحة خصبة صالحة لنماء مايُلقى إليها من البذور الطيبة ، انتقلت وبين جنبيك ملكة فى البيان زاخرة ، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه ، تناثر الورود والأنوار من حديقة عامرة ٠

واحذر أن تكون طالبا قصارى مايأخذه من أستاذه : نحو اللغة وصرفها ، وبديعها وبيانها ، ورسمها وإملائها وغير ذلك من أدواتها وآلاتها ، أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان عنده علماء غير أدباء وحاجة طالب الدراسات العربية إلى استاذ يفيض عليه روح البيان يوحي إليه بسره ، ويُفضى له بلبه وجوهره أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلّمه وسائله وآلاته وعندى أن لافرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان ، فكما أن طالب الأخلاق لايستفيدها إلا من أستاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه ، كذلك طالب البيان لايستفيده إلا من أستاذ مبين قدح إخلاقه ، بيه زعبارات .

ولايقذفن فى روعك أيها الطالب أنى أحاول استلاب فضل الفاضلين ، أو أنى أريد أن أنكر على شعراء الأمة وكتابها ما وهبهم الله من نعمة البيان فما هذا أردت ولا إليه ذهبت وإنما أقولها خالصة لوجه الله إن عشرة من الكتاب المجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين ، قليل فى بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب ٠

" السيد حسونه "

لمحة عن تطور مصطلح البيـــــان

يحسن أن نتتبع مصطلح " البيان " في أثناء سيره في تاريخ البلاغـــة العربية ، حتى نقف به عند المعالم الرئيسيه والدلالة الاصطلاحيه لمفهومه ووضعه العلمي الاخير .

في اللغـــة :

مادة (البيان) في أصل استعمالها عند أصحاب اللغة تدل على الظهور والوضوح . قالوا : بان الشيئ يبين بيانا : اتضح فهو بيّن . والجمـــع أبيناء . وأبان الشيئ فهو مبين وأبنته أنا : أي وضحته . واستبان الشيئ : ظهر واستبنته أنا : عرفته ، والتبين ، الإيضاح . وقال تعالى ، "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم "(١) وقال عبدالله بن رواحة(٢) في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ؛

لو لم تكن فيه آيات مبينـــة   كانت فصاحته تنبيك بالخبـــر

وفي المثل : قد بيّن الصبح لذي عينين : أي : تبين .

ومن معاني البيان : الفصاحة واللسن وكلام بيّن : فصيح ، والبيـــان

---

(١) سورة ابراهيم.

(٢) شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وقائد بعض جيوشه .

الإفصاح عن ذكاء والبيّن من الرجال : الفصيح الظريف ، والعالى الكلام وفلان أبين من فلان : أى أفصح منه لسانا ، وأوضح كلاما . ورجل بيّن : فصيح . قال الشاعر :

قد ينطق الشعر الغبيّ ويلتئى[1] على البيّن السفّاك وهو خطيب

فالبيان - إذن - في معناه اللغوى لا يخرج عن الكشف والإيضاح ، وإظهار المقصود بأبلغ لفظ وهو من حسن الفهم وذكاء القلب مع اللَّسن ، وأصله الكشف والظهور ، لأن مدار الأمر والغاية التى يجرى إليها القائل والسامع إنما هى الفهم والإفهام ، فبأى شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت المعنى فذلك هو البيان (٢)

مدلول " البيان " بين يدى القرآن :

يرد لفظ " البيان " فى آي الذكر الحكيم نيفا وخمسين ومائتي مرة بصيغها المختلفة فى الماضى والمضارع والمفرد والجمع ونلقى لفظة " لبيان " فى القرآن بصورة مستقلة ثلاث مرات فى قوله تعالى :

" هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين " ، قوله " خلق الانسان علمه البيان " وقوله ، " ثم إن علينا بيانه "

وينعقد رأى المفسرين على أن الفعل " بين " هاهنا يفيد الظهور والوضوح ، وهو نفس المعنى الذى ترسّخ بناؤه ، واستوى مدلوله فى معاجم اللغة العربية وإن كانت المادة قد وجدت متنفسا فى رحاب القرآن الكريم عنه فى معاجمنا القديمة .

---

(١) يلتئى : من اللأى وهو الابطاء . والبيتين السفاك : البليغ القادر على الكلام .

(٢) مواد البيان لعلى بن خلف : ١٩٤ .

البيــان فى الحديث الشريف :

أما البيان في الحديث الشريف فهو إظهار المقصود وكشفه بقوه الحجة ، والقدرة على الإقناع ، وإثارة الإعجاب ، وشدة وقع الكلام فى النفس ، ويؤكـد ذلك ماروراه ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم : " إن من البيـــــان لسحرًا ، وان من الشعر لحكمة " وروى : " لحكما "

فبعض البيان هاهنا قد عُد من السحر ، ولما كان معنى السحر قلـــب الشيء في عين الإنسان ، وليس بقلب الأعيان ، فإن مدلول كلمة "البيـان" اصطلاحا في هنا الحديث الشريف هو مايمتاز به فن القول من التأثر ومهـارة أسلوبه وتلون عباراته ، حتى يصرف القلوب إلى قوله فكأنه سحر السامعيــــن بذلك وهو وجه قوله صلى الله عليه وسلم " إن من البيان لسحـرا "

تطور البيان عند البلاغيين :

ولقد ظل " البيان " يراد به هذه المعانى العامة بدءا من الجاحـــظ فى " البيان والتبيين " ت ٢٥٥ هـ) الذى عرّف البيان بقوله : " البيـان : اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمـيـر حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائنا ماكان ذلـــك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجـرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام . فبأي شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع (١)

وقد قسم الجاحظ الدلالات إلى خمسة أصناف : اللفظ والإشارة والعقـد

---

(١) البيان والتبيين : ٧٦

والخط والنصبة وهى الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشيرة بغير اليد وتقوم مقام الأصناف المتقدمة ، ولاتقصر عن تلك الدلالات وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وكل صامت وناطق ، ولذ لك قال الأول : "سل الأرض فقل : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتبارا "

والرمانى : ت ٣٨٦هـ قال : " البيان هو الإحضار لما يظهر به تميز الشيئ من غيره في الإدراك ، ويحسن أن يطلق على ماحسن من الكلام ، وأعلاه ماجمع أسباب الحسن فى العبارة حتى يحسن فى السمع ويسهل على اللسان ، وتتقبله النفس ، ويأتى على مقدار الحاجه .

والبيان عنده على أربعة أقسام : كلام وحال وإشارة وعلامة ، والكلام على وجهين : كلام يظهر به تميز الشيئ من غيره فهو بيان وكلام لايظهر به تميز الشيء فليس ببيان ، كالكلام المخلط ، والمحال الذى لايفهم به معنى وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن ، من قبل أنه قد يكون عيى وفساد كما يحكى عن باقل ، وقد بلغ من عيّه أنه سئل عن ظبية كانت معه بكم اشتراها ؟فأراد أن يقول بأحد عشر فاخرج لسانه وفرج أصابعه ، فافلتت الظبية من يده ، فهذا وإن كان قد أكد للأفهام ، فهو أبعد الناس من حسن البيان ، لأن الله قد مدح البيان ، واعتد به ، فقال : الرحمن علم القرا ن خلق الإنسان علّمه البيان " (١)

---

(١) النكت فى اعجاز القرآن : ١٠٦

فالبيان عند الرماني يلتقي بماروى عن الجاحظ ولو نظرنا إلى أقسام البيان عند الرماني لوجدناها قريبة الصلة بما ذكره الجاحظ من دلالات ٠

اما ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) نقل عن الرماني ولكنه لم يقف عنده وعرّف البيان فقال : " هو الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة وانما قيل ذلك ، لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل ولا يستحق اسم بيان (١)

وفي موضع آخر من كتابه " العمدة " علّق على نص تعليقا يدل على نباهته وحسن فهمه وبلاغة رأيه قال : مرغيلان بن خرشه الضبي مع عبدالله بن عامر بنهر أم عبدالله الذي يشق البصرة فقال عبدالله بن عامر : ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر !! فقال غيلان : أجل والله أيها الأمير ، يتعلم فيه العوم صبيانهم ، ويكون لسقياهم ، ومسيل مياهم ، ويأتيهم بميرتهم ٠ ثم مرغيلان يساير زيادا على ذلك النهر ، وقد كان عادى ابن عامر فقال له : ما أضر هذا النهر لأهل هذا المصر !! فقال غيلان ، أجل والله أيها الأمير : تندى منه دورهم ، ويغرق فيه صبيانهم ، ومن أجله يكثر بعوضهم ، فكره الناس من البيان مثل هذا " (٢)

---

(١) انظر العمدة ١/١٦٩٠

وقد اعتبر كلام غيلان نفاقا يصور الحق فى صورة الباطل والباطل فى صورة الحق • فعلق ابن رشيق على هذا الكلام بقوله :
والذى أراه أن هذا النوع من البيان غير معيب بأنه نفاق ، لأنه لم يجعل الباطل حقا على الحقيقة ، ولا الحق باطلا ، وانما وصف محاسن كل شيء ، مرة ثم وصف مساويه مرة اخرى (١)

ووردت عبارة " علم البيان " عند عبدالقاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) وحاول توضيحها بقوله : " ثم إنك لاترى علما هو أرسخ أصلا وأبسق فرعا وأحلى جنى ، وأعذب وردا وأكرم نتاجا وأنور سراجا من علم البيان الذى لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ،ويقرى الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذى لولا تحفيه بالعلوم وعنايته بها ، وتصويره إياها ، لبقيت كامنةً مستورة (٢)

ويبدو أن الجرجانى لايريد بالبيان العلم المعروف بهذا الاسم والذى تواضع عليه علماء البلاغه المتأخرون ، وإنما هو عنده الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان ، وكلها تدل على معنى واحد أو متقارب وهو التعبير عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن مقاصدهم

---

(١) المصدر نفسه : ٢٤١/١

(٢) دلائل الاعجاز : ٥،٤

واغراضهم ، وراموا أن يعلموهم مافي نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (١)

فالبيان عند عبدالقاهر لم يتغير عن ذى قبل ولازال المقصود منه معنى الكشف والإيضاح عما فى النفس والدلالة عليه ، ولذا فإنا نرى أن من الافتيات على عبدالقاهر أن يكتب تحت " دلائل الاعجاز " عباره " فى علم المعانى " وتحت كتاب " أسرار البلاغة " " فى علم البيان " ، لأن " دلائل الإعجاز " فيه من المباحث مايدخل فى صميم مباحث " علم البيان " كما أن فى " أسرار البلاغه " من المباحث مايدخل فى " علم البديع "

اما ابن الاثير (ت ٦٣٨هـ) فعلم البيان عنده ، هو صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور وقد تكلم على آلات علم البيان وأدواته قاصدا بكلامه ألوان المعرفة والثقافة اللازمة للأديب ورأى فى البيان معنى واسعا يدل على البلاغة كلها فصاحة وبلاغة فقال :

" موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية ، وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامه ، وصاحب

---

(١) نفسه ص ٣٥

وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والإعراب ٠

وجعل أدوات علم البيان ثمانية : معرفة علم العربية من النحو والتصريف ، ومايحتاج إليه من اللغة ، ومن أمثال العرب وأيامهم ،والاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة ٠٠ وحفظ القرآن الكريم والأخبار النبوية ، ومعرفة علم العروض والقوافي لمن يريد الشعر (١)

وهو بهذا لم يخرج البيان عمن سبقوه ٠

وظل هذا المفهوم الواسع للفظ " البيان " حتى ظهر في خوارزم السكاكي " ت ٦٢٦هـ " فحجّر ماكان واسعا ووضع للبلاغه قواعدها المنطقية وقسمها إلى المعاني والبيان وألحق بهما المحسنات وجعل لكل قسم تعريفا واحدا ٠

وانحصرت اصول علم البيان في كتب البلاغة المتأخرة على أساليب التشبية والمجاز ، والاستعارة والكناية، والبلاغه العربية لم تعرف ذلك الحصر إلا على يد السكاكي الذى خصّص البيان وجعله قسما مستقلا من أقسام البلاغة ٠

ويعتبر السكاكي أول من فرق من الناحية النظرية والتطبيقية بين

---

(١) المثل السائر ١/ ٣٩/ ٤٥

مباحث البيان والمعاني ، وليس صحيحا ماذكره بعض الباحثين من أن الزمخشري أول من ميز بين مصطلح علم المعاني والبيان[١] لأنه لم يؤثر عنه ذلك ، فضلا عن أنه اكتفى فقط بمجرد الترديد لمصطلح المعاني والبيان وجعل البراعة فيهما شرطا لمن أراد أن يتصدى لتفسير القرآن والغوص على حقائقه . (٢)

فالزمخشري كان يطلق على مباحث البلاغة جميعها " علم البيان " وكثيرا مايسمى في تفسيره علمي البيان والبديع بعلم البيان وقد يسمى علوم البلاغه الثلاثه بعلم البديع ، وأن ماذكره عن علمي البيان والبديع في كشافه لايعدو أن يكون مجرد تسمية أطلقها دون أن يضع حدا لهما ، أو يفرق بينهما من الناحية النظرية والتطبيقية على نحو مافعل السكاكي وبذلك يحق لنا أن نقرر هنا ونحن مطمئنين ـ أن السكاكي هو أول من أطلق على الموضوعات التي تبحث في الصورة الأدبية ـ التشبيه والمجاز والكناية ـ مصطلح علم البيان .

ونحن كذلك ـ حين نردد البيان في هذا البحث نريدة مؤديا في جانبه النظري والتطبيقي لذلك (البيان) الذي وضع قواعده وضوابطه السكاكي في دراسة هاتيك الأساليب ومن هنا ترانا لا نبيح في محاضراتنا أن يستعمل البيان بمعناه الأدبي الواسع والشامل ولا نأخذ بهذا التعميم لمعنى البيان الذي يجمع فنون البلاغه كلها ، ولكنا نقتصر على المعنى الضيق للبيان الذي وضعه السكاكي وجعله عنوانا لعلم له أصول وقواعد ولسنا بدعا في ذلك فمعظم من جاء

---

(١) ـ البلاغة تطور وتاريخ الدكتور شوقي ضيف : ٢٢٢

وخطوات التفسير البياني لمحمد رجب البيومي : ٢٣٢

(٢) انظر مقدمة الكشاف للزمخشري .

بعد السكاكي سار على نهجه ، وردد أقواله ، وأُخذ بذلك المنهج رواد البلاغة والنقد ، ومازال قاعات الدرس في الجامعات العربية تدور في فلك السكاكي.

البيان في الاصطلاح :

مما تقدم نفهم أن (البيان) يطلق على معنيين :

(أ) معنى أدبي واسع يشمل الإيضاح عن كل مايختلج في النفس من المعاني والأفكار والأحاسيس ، والمشاعر ، بأبلغ لفظ وأحسن عبارة ، وهو بهذا التعميم يجمع فنون البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) ثم فارق هذا المصطلح معناه العام وتحددت معالمة على يد السكاكي في مفتاح العلوم .

(ب) معنى علمي ضيق : وهو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه والنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه (١)

والبيان كما ترى ينصب على الدلالة وهي : فهم أمر من أمر ، فالكلام الذي نسعى لفهمه هو الدال ، والمعنى الذي نفهمه منه هو المدلول – والدلالة عند المناطقة ثلاثة أقسام :

١ـ دلالة المطابقة : وهي دلالة اللفظ على تمام مسماه ، وهي أن يطلق

---

(١) مفتاح العلوم : ١٦٢ .

اللفظ ، ويراد به معناه الحقيقى ، كدلاله " البيت " على مجموع الجـدار والسقف ، وتسمى هذه الدلالة عند البيانيين " وضعية "

٢ـ دلالة التضمن : وهى دلالة اللفظ على بعض مسماه ، كدلالة البيـت على بعض مايحتويه كالحائط أو السقف .

٣ـ دلالة الالتزام : وهى أن يدل اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له كدلالة السقف على الجدار ، لأنه لازم له لاجزء منه .

وقد عبر عبدالقاهر عن الدلالة الوضعية والعقلية بعبارة مختصرة ،وهـى أن تقول : المعنى ومعنى المعنى ، ونعنى بالمعنى : المفهوم من ظاهـر اللفظ ، والذى نصل إليه من غير واسطة ، وبمعنى المعنى : أن تعقل مـن اللفظ معنى ، ثم يفضى بك ذلك المعنى الى معنى آخر (١) .

ودلالة التضمن والالتزام دلالتان عقليتان ، اذ يعتمد فيهما الذهن علـى جملة من الوسائط فى المرور من مدلول إلى آخر ، وهذا المرور أو التجـوز كثير فى الكلام ، ولذلك انفرد علم البيان داخل علم البلاغة بدراسة وجوهـه فهو يشتغل بـ"الملازمات بين المعانى " (٢)

وعلى الرغم من أن السكاكى بنى تقسيم علم البيان على هذه الدلالات ليخرج التشبيه منه ، لأن دلالته وضعيه ، ولايمكن بها ايراد المعنى الواحـد

---

(١) دلائل الاعجاز : ١٩٠

(٢) مفتاح العلوم : ١٣٥ .

بطرق مختلفه ، فانه لم يستطع سلخة عن علم البيان ، وأنى له ذلك وهو
باب واسع كثير الاستعمال في كلام العرب بل ا
هو عمده هذا الفن وركنه الركين ؟ !
وبذلك أصبحت أصول البيان أربعة ، أصلان ذاتيان ، وهما المجاز والكناية
وواحد وسيلة وهو التشبية ، وواحد جزء من أصل ، وهو الاستعارة .(١)

الدلالة الفنية للبيان :

وانا كان البيان علما يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة ، فهو إذاً علم الأساليب البيانية أو علم أساليب البيان ذلك أن الفكرة الواحدة يمكن أداؤها بأساليب عدة ، وهذه الأساليب قد تكون في صورة من صور التشبية أو المجاز العقلي أو المرسل أو الاستعارة أو الكناية وفي ذلك أكبر فرصة للأديب أن يفزع إلى من التصوير في اللغة التي تقدم صورا متعددة للتعبير عن المعنى الواحد ، فيختار منها مايراه ملائما لما في نفسه كفيلا بنقله إلى السامع على شكل يرضاه ، أو ينتقي منها صورة يتخذها قالبا يصب فيه مافي نفسه ، وماليفها من شعور .

فمثلا — شاعر يريد أن يصف شخصا بالكرم ، فقد يجد من ضروب التشبيه ، وأنواع الاستعارة ، وصنوف الكناية وسيلة تنهض بغايته .

ففكرة الكرم ، تتعدد أساليب التعبير عنها بيانا :

---

(١) فن التشبية للمرحوم علي الجارم : ٢٢/١

فاذا توسلنا أسلوب التشبيه ردّدنا مع الشاعر قوله :

كالبحر يقذف للقريب جواهـــرا جودا ويبعث للبعيد سحائبـــا

وإن شئنا التشبية بليغا ، قلنا كمن قال :

هو البحر من أى النواحى أتيتـــه فلجته المعروف والجود ساحلـــه

وإن أردناه مقلوبا فشاهده قول الشاعر :

جرى النهر حتى خلته منك أنعما تساق بلا ضن وتعطى بلامـــن

وبأسلوب الاستعارة نقول مع المتنبى في وصف دخول رسول الروم على سيـــف الدولة .

وأقبل يمشى فى البساط فمادرى إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقى

وبأسلوب المجاز المرسل ، نتذكر قول الشاعر :

مازلت تتبع ماتولى يدا بيـــد حتى ظننت حياتى من أياديكـــا

وبأسلوب الكناية نعيد قول الشاعر :

فما جازه جود ولاحل دونـــه ولكن يسير الجود حيث يسيـــر

ولو اردنا لاستعرضنا أساليب كثيرة من البيان العربى فى الكرم أو فى معـــان أخر ولكن حسبنا هذا النذر اليسير مثالا على مانذهب إليه وفى الفصول التاليـــة تفصيل كاف عنـــه .

مباحث علم البيان

درج مؤلفو البلاغة فى العصر الحديث على ماقررهُ السكاكى فى كتابه " مفتاح العلوم " من تقسيم البلاغة ثلاثه أقسام : قسم للمعانى ، وقسم للبيان ، وثالث للبديع .

وجعلوا قسم البيان متضمنا :

- التشبيه
- المجاز
- الاستعارة
- الكناية

وعلى هذا التقسيم الذى تواضع عليه العلماء يدور هذا الكتاب .

التشبيــــــة

التشبيه فى اللغة : هو التمثيل أو المماثلة ، يقال " شبهت هذا بذاك تشبيها أى : مثلته به " (١)

والشبة والشبيه : المثل ٠ والجمع ٠ أشباه وأشبه الشيــــىء الشى ء ماثله ٠ وبينهم أشباه : أى أشباه يتشابهون فيها ، وشبه عليه :خلــط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره ، وفيه مشابهة من فلان أى أشباه ٠

وفى القرآن الكريم : " منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات " " وقيل : معناه يشبه بعضه بعضا ولانظن هذه المعانى بعيدة عما جــــرى عليهالبلاغيون فيما بعد فى تحديد المعنى الاصطلاحى للتشبيه ٠

التشبية فى الاصطلاح :

للتشبيه تعريفات كثيرة ترمى إلى ايضاحه ، وبيان حده وهذه التعريفات وإن اختلفت لفظا ، إلا أنها متفقة معنى ؛

ويمكننا القول : إن التشبية هو الدلالةعلى مشاركة أمر لأمر آخــــر فى وجه أو اكثر من الوجوه ، أو فى معنى أو فى أكثر من المعانى ٠ أو هــــو ، بعبارة أخرى : بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها فى صفة أو أكثر ، بـأداة

---

(١) لسان العرب مادة : شـــبه ٠

هى الكاف أو نحوها ، ملفوظة أو مقدرة ، تقرّب بين المشبه والمشبه به فـــى وجه الشبه ٠

ومن أمثلة ذلك ما أوردته كتب البلاغة فى صفة الكلام : " ألفاظـــه كالماء فى السلاسة " و " كالنسيم فى الرقة " و " كالعسل فى الحلاوة" يريدون أن اللفظ لايستغلق ولا يشتبه معناه ولايصعب الوقوف عليه وليس هو بغريـب وحشى يستكره لكونه غير مألوف او ليس فى حروفه تكرير وتنافر يكد اللسان مـــن أجلها ، فصارت لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق والنسيم الذى يسرى فـــى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ويهدى إلى القلب روحا ، ويوجد فى الصـــدر انشراحا ويفيد النفس نشاطا ، وكالعسل الذى يلذ طعمه تهش النفس له ويميـــل الطبع إليه ويحب وروده عليه .

فالتشبيهات فى الصور السابقة ، ينطبق عليها التحديد الاصطلاحـــى فهى تدل على مشاركة " الكلام " لكل من " الماء " و " النسيم " و "العسل" فى وجوه ثلاثة : " السلاسة " و " الرقة " و " الحلاوة " بأداة هى الكاف٠

وعلى هذا ، قول السكاكى : لاتخفى عليك أن الشبيه مستدع طرفيـن مشبها ومشبها به ٠ واشتراكا بينهما من وجه ، وافتراقا من آخر ، مثل أن يشتركا فى الحقيقة ، ويختلفا فى الصفة أو بالعكس : فالأول كالإنسانين إذا اختلفـــا طولا وقصرا ، والثانى كالطويلين اذا اختلفا حقيقة انسانا وفرسا ٠ والا فأنـــت خبير بأن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعين يأبى التعدد ، فيبطل

التشبيه لأن تشبيه الشيء لايكون إلا وصفا له بمشاركته المشبه به فى أمــــر والشيء لايتصف بنفسه . كما أن عدم الاشتراك بين الشيئين فى وجه مــن الوجوه يمنعك محاولةالتشبيه بينهما . لرجوعه إلى طلب الوصف حيث لاوصف .

وينظر بعض البلاغيين ، ومنهم الزمخشرى وابن الأثير الى المعنــى اللغوى للتشبيه ، وهو التمثيل فيجعلون التشبيهوالتمثيل مترادفين .

ولفظة التمثيل يطلقها البعض الآخر على نوع من أنواع التشبيه .فعبد القاهر الجرجانى يرى التمثيل ضربا من ضروب التشبيه ، ويرى أن التشبيه عـام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا .

ويرفض ابن الأثير التفريق بينهما ، وإفراد باب لكل منهما وهما ـوفـى نظره ـ " شى ء واحد لافرق بينهما فى أصل الوضع . يقال شبهت هذا الـشيء بهذا الشى ء كما يقال مثلته به . وما أعلم كيف خفى ذلك على أولئك العلمـا ء مع ظهوره ووضوحه .

ونحن ، لانميل إلى تأييد رأى ابن الأثير ، فالأصل اللغوى لايكفـى لدعم نظرته ، وتصويب رأيه ، فالكلمات تتطور دلالاتها مع تقدم الزمن وتكتسـب دلالات جديدة .وقد ترسخ تشبيه التمثيل بعد أن عرف كنوع من أنواع التشبيـه فلا جدوى من الوقوف عند الأصل اللغوى ، إذا لم يكن ذلك معينا على فهم تطـور الدلالات الأمر الذى ينير جوانب استعمال الاصطلاح ، أما العودةإلى المعنى فـى أصل اللغة ، لتكريس مفهوم رسخت الأيام عكسه أو مفهوما آخر مغايرا له، فهـذا

مالانجد مسوغا له ٠

التعريـف الجامـع :

التشبيه هو صورة تقوم على تمثيل شيء (حسى أو مجرد) بشيء آخـر (حسى أو مجرد) لاشتراكهما فى صفة (حسية أو مجردة) أو أكثر ٠

مثال : هى كالبدر فى الحسن ٠

يقوم التشبيه على مبدأ أساسى هو " المقارنة " وذلك لايعنى أن كل مقارنـة تشبيه إذ يتميز التشبيه بالخروج عن المألوف وبالقصد إلى إحداث الطرافة بالتخييل أو التمثيل فى حين تسعى المقارنة إلى إثبات الشبه بين طرفى المقارنة ولاينجـر عنها تداخل بينهما كما يحدث فى التشبيه ٠

ومفهوم التمثيل مهم جدا فى دراسة كل صورة شعرية ٠ إذ تقوم عليـه كل معرفةوإدراك ، فمن جملة الظواهر التى يقوم عمل الذهن البشرى عليها بيـان الغائب بالحاضر فاللغة فى أساسها علامة حاضرة مدركة (مسموعة أو مرئيـة أو ملموسة (عند الكفيف) ومرجعها غائب بها يستحضر البعيد فى الفضاء والزمـان والمخفى فى الذهن فى شكل أثر تحفظهالذاكرة أو فى شكل فكرة تبتدعها المخيلـة وكذلك الشرح والتفسير يقومان على تقديم معنى لفظ غير معروف بألفاظ معروفـه٠ فالمتلقى يتوسل بمعان معروفة إلى معان مجهولة ٠

وبعض الاستدلال الرياضى يقوم على البحث عن قيمة المجهول باعتمـاد

قيمة ماهو معروف وكذلك الأبحاث البوليسية تنطلق من العناصر المتوفرة للوصـــول إلى العناصر المجهولة ٠ وعلى هذا قس الكثير من أنشطة البشر وغيره من سائـــر الكائنات ٠ وكذلك الصورة الشعرية ومنها التشبيه ٠

فهو بحث فى مايربط بين شيئين أو أكثر من السمات المشتركة ٠ إلا أنه بحث يتجاوز غاية الإفهام والتوضيح إلى الإمتاع باعتماد الطريف والجميل ٠ ويكـو ن ذلك عن طريق التخييـــل ٠

وبالخروج من الإبلاغ قصد الإعلام والإخبار وهى الوظيفة الأساسيـــة فى الكلام إلى الإبلاغ قصد الإمتاع ففى المستوى الأول يكون الكلام مفهوما واضحـــا يخترقه الذهن إلى المدلول مباشرة كما يخترق البصر الجسم الشفاف من بلّـــور وغيره كى يقع على ماوراءه ، بل قد يبصر من خلال البلور دون وعى بوجوده وكذا الكلام اليوخمى الذى نتحاور به فى حياتنا العادية ٠ وهو فى المستوى الثانـــى أى عندما يخرج إلى الإمتاع كاللغز لابد من معالجته واستكناه معنـــاه فيتوسل بالبنية التركيبية والصوتية وغيرهما فيه ٠ فهو حاضر يستوقفك ويفرض عليك أن تنتبه إلى وجوده من حيث هو حدث أو جسم محسوس ، فهو مثل النافـــذ ة التى طُلى البلور فيها بطلاء خفيف يسمح بأن يخترقها البصر ولكنه اختراق فيـــه شىء من المعالجة والمداراة وإلى هذا الصنف ينتمى النص الأدبى ٠

ويمكن تصور التشبية على أنه دالة رياضية تربط بين عنصرين كل واحد منهما ينتمى إلى مجموعة والعلاقة هى " الشبة " :

مجموعة "أ" ومجموعة " ب " ٠

- دالة من أ الى ب .
- العلاقة : عنصر "س" يشبه عنصر "ى" .

فإذا نظرنا في المثال السابق في ضوء ماسبق حصلنا على مايلي :

- مجموعة " النساء " ينتمي إليها العنصر " هي "
- مجموعة الكواكب ينتمي إليها العنصر " البدر "
- دالة من النساء إلى الكواكب .
- علاقة الشبة تجمع بين " هي " و " البدر " .

أقســـام التشبيـــة

ومعايير هذا التقسيم متعددة :

فبعضها يتعلق بحضور أركان التشبيه أو غيابها (الأداة ووجه الشبه) وبعضها يقوم على البساطة والتركيب أو الإ فراد والتعدد فى طرفى التشبيه ووجهه (التشبية المفرد والتشبية التمثيل) وبعضها يقوم على طبيعة العلاقة القائمة بين الطرفين، من حيث اتجاهها أو ظهورها وخفاؤها (التشبية المقلوب والتشبيه الضمنى) .

أما الأحوال التى يكون عليها التشبية بحسب اثابت الأداة ووجه الشبــه أو حذفها معا ، أو حذف أحدهما وإبقاء الآخر فهى أربعة أنواع :

١ـ التشبيه المرسل : هو ماذكرت فيه الأداة .

كقول الشاعر :

أنا كالماء إن رضــيت صفـــاء
وإذا ماسخطــت كنت لهيبـــا

فالشاعر يشبه نفسه فى البيت فى حال رضاه بالماء الصافى الهادى ، وفى حـــال غضبه بالنار الملتهبه فهو محبوب مخوف ، وإذا تأملت التشبيه فى البيت وجـد ت أداةالتشبيه حاضرة ، وكل تشبيـــه تذكر فيه الأداة يسمى مرسلا .

٢- التشبية المؤكد : وهو ماحذفت منه الأداة كقولك : العالِم سراج أمته في الهداية وتبديد الظلام فالمشبه : العالِم ، والمشبَّه به : سراج أمته ووجه الشبه

فى الهداية وتبديد الظلام ، أما الأداة محذوفة .

وحذف الأداة فى المثال يوحى بأن الطرفين شيىء واحد لشدة المشابهة وبغياب الأداة كذلك - ينتقل التركيب من إخبار بالمشابهة إلى اخبار بالمشبه به عن المشبه ، وهذا مدخل التوكيد فيه لذلك سمى بالمؤكد وفيه تضيق المسافة الفاصلة بين الطرفين فتصل التطابق أو تكاد كما فى قول الشاعر :

هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا ∴

على الدر واحذره إذا كان مزبدا

٣- التشبيه المجمل : هو ماحذف منه وجه الشبة : وبحذفه اجمل المتكلم فى الجمع بين الطرفين فسمى مجملا كقول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها ∴ أشطان بئر فى لبان الأدهم

---

(١) الأشطان : الحبال يؤخذ بها الماء من الآبار .

شبه عنترة الرماح الموجهة إلى صدر حصانه بالحبال في التقائها في فوهة البئر، وجه الشبة غائب •

وبهذا الإجمال ترك الشاعر للمتلقي عملية الاهتداء إلى وجه الشبه بنفسه ، يلهث وراءه فلا يكاد يدركه حتى يفلت منه ، وإذا هو يبني الصورة بناء متواصلا ، وإذا التي متعدد الدلالات تعدد الصور والقراء •

وحذف وجه الشبه يدعونا إلى التفكير في الصفة أو الصفات المشتركة التي جعلت المشبه مماثلا للمشبه به مما يضفي على الصور لونا من الغموض والإيحاء ، مما يؤدي إلى فتح نوافذ التخييل والتصور على مداها •

كما في قوله تعالى : " فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية " •

٤ـ التشبية المفصل : وهو ما ذكر فيه وجه الشبه وبذكره يفصل المتكلم بين الجمع بين طرفي التشبيه ، فيسهل على القارىء العثور على السمة التي يشترك فيها الطرفان ، ولذلك سمي هذا التشبيه مفصلا • وهذا التفصيل يبقي على الانفصال الموجود بين طرفي التشبيه اذ يشعر الباث سامعة بأنه يقرن بين الطرفين في نقطة واحدة ، وهما شيئان مختلفان متمايزان في سائر السمات • فقولنا : فاطمة كالبدر ففاطمة تبقى هي فاطمة والبدر يبقى بدرا أحدهما في الأرض والآخر في السماء وان اجتمعا في الجمال فمجال التقاطع إذن محدود معين •

انواع اخرى من التشبيـــة

إذا تجاوزنا تقسيم التشبيـــة بحسب وجود الأداة ووجه الشبه ، أو حذفها ، فإننا نلاحظ أنواعا أخرى من التشبيه أبرزها :

١ـــ التشبية المقلوب .

٢ـــ التشبيةالضمنـــي .

التشـبيه الضمنـــى

تعريفـــة :

هـو تشبيه لايوضع فيه المشبه والمشبه به فى صورة من صور التشبيـــه المعروفة ، بل يلمحان فى التركيب ." فهو تشبيه مضمر فى النفس " .وهـذا النوع يؤتى به ، ليفيد أن الحكم الذى أسند الى المشبه ممكن .

وبيان ذلك أن الكاتب أو الشاعر قد يلجأ عند التعبير عن بعض أفكـاره إلى أسلوب يوحى بالتشبيه ، من غير أن يصرح به فى صورة من صوره المعروفة.

ومن بواعث ذلك : التفنن فى أساليب التعبير ، والنزوع إلى الابتكـار والتجديد ، وإقامة البرهان على الحكم المراد إسناده إلى المشبه ، والرغبة فـى إخفاء معالم التشبيه ، لأنه كلما دق وخفى كان أشد لصوقا بالنفس ، وأبعـد تأثيرا منها .

قال تعالى : " قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، قل : افتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولاضرا ؟ قل : هل يستـوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور " (١)

فى الآية الكريمة تقرير ، لأن الله — سبحانه وتعالى — هو رب السموات والأرض المتصرف فيهن ، وتوبيخ للكفار الذين اتخذوا من دونه أولياء ، لايملكون لأنفسهم نفعا ولاضرا ، وعقب على هذا التقرير بما فهم منه تشبيه الكافر الـذى

---

(١) سورة الرعد

يغضى عن هذه الحقيقة بالأعمى ، والمؤمن الذى يتيقنها بالبصير ، لأن الأول لايرى الآيات ، والثانى يراها ، وتشبيه الكفر بالظلمات ، والإيمان بالنور ، ذلك لأن الكفر سبب لعدم الرؤية ، والإيمان سبب للرؤية .

فالتشبيهان مفهومان من سياق الآية الكريمة ، ولم يأت المشبة على نحو صريح ، ولذلك يقال عن التشبيه الذى من هذا النوع إنه " تشبيه ضمنى " أى مفهوم من الكلام ضمنا لاصراحة .

ولنضرب مثالا على ذلك من الشعر ؟ قول ابن الرومى :

وَبَلاهُ إنْ نَظَرَتْ وإنْ هِيَ أعْرَضَتْ ... وَقْعُ السِّهامِ وَنَزْعُهُنَّ أَليمُ

يعبر ابن الرومى عن جُمال امرأة وسحرها ، وتأثيرها القوى عليه ، فهو عاشقها المتيَّم ، يتوق أن ترنو اليه بنظرة من نظراتها ، ولكنها ما ان تفعل حتى يزداد لهيب قلبه ، ويتضاعف عذاب الفؤاد من تباريح الهوى المقبل عبر عينيها الساحرتين ، فيخال أن راحته فى أن ترفع عنه هذا السحر ، ولكنه ما أن يحس بابتعادها عنه ، وصدها له ، وسلوها إياه ، حتى يعود إلى ما عرفنا من حاله ، فهو رجل مقضى عليه بالعذاب لامحالة ، سواء أقبلت عليه أم أدبرت عنه ...

ولكن هل هذا أمر يصدق ؟ أن يكون إقبال امرأة مثل رحيلها ؟ أويكون رفع نظراتها عليه فى حجم آلام قلبه من صدودها له ؟

وكأنما الشاعر أحس أن هذا الكلام مشكوك فيه ، فهو لايصدق لأنه غير ممكن ، فأراد أن يقدم دليلا على صحته ، ولم يرد أن يعبر عنه تعبيرا

مباشرا ، بل يستنتج من الجملة استنتاجا ، ويلحظ منها لحظا ، فاكتفى بالتلميح اليه ضمنا عبر تشبيه حاله بحال من تصيبه السهام فيتألم ٠٠ ظانا راحته فى تخليصه منها ، ولكن استخراج السهام من جسده مؤلم هو أيضا

وهذا الذى فعله الشاعر يسمى " تشبيه ضمنى " لأنه يفهم ضمنا لا صراحة ، ويؤتى به عادة للبرهان على صحة حكم ، والتدليل على دعوى بأنها ممكنة وصحيحة ٠

ولتزداد الفكرة وضوحا فى ذهنك ، يحسن بك أن تتناول الجملة التى اشتمل عليها البيت تناولا تركيبيا ، فهى تقوم على الشرط فى ظاهرها إذ ربط الشاعر بين حدثين باعتماد الشرط : فالنظرة والإعراض منبهان يثيران الإحساس بما يحدث عند رشق السهام ونزعها ، والجامع بين الطرفين هو الشبه فى الألم الناتج عنهما من حيث الحدة والشدة ، ولكن كيف يتولد التشبيه فى مثل هذا التركيب رغم غياب مايدل عليه صراحة ؟

والذى يمكن قوله أن الشاعر قد أخل بأساس من أسس التواصل فلم يوفر لسامعه جميع مايحتاجه من عناصر متصلة بموضوع كلامه ٠ وهو إخلال لا يعطل الفهم ، بمعنى أن الشاعر وهو ينشئ العبارة ــ سكت عن جزء من الصورة وأن السامع كمّل الناقص ، فالفهم كامل والعبارة ناقصه ، و هذا يعود إلى طبيعة النشاط اللغوى ٠

فالكلام ذو مستويين :

١- مستوى المعنى أو المفهوم الذهنى المجرد الكامن في الذهن قبل التلفظ هو شكل تام لانقص فيه ، هو البنية العميقه ، وهو فى البيت السابق :
نظرتها وإعراضها يشبهان رشق السهام ونزعها •

٢- مستوى العبارة الظاهرللحس (سمعا أو بصرا) حيث تتخذ الشكل الصوتى ، أو غيره ، وهو البنية السطحية • وقد يوافق هذا الشكل المنجز ذلك المعنى العميق فيساويه وقد يفارقه فيكون دونه •

فمثلا يسألك شخص : من خرج ؟ فتجيبه : محمد جملة الجواب كما هو ظاهر ناقصة ، وبالرغم من ذلك فهى مفهومة ، لأن نقصها فى اللفظ دون المعنى ، والسياق يوفر اللفظ الناقص ، و هو هنا " خرج " فالبنية السطحية فى جملة الجواب تخالف البنية العميقة فيها ، ولو اكتفينا بماهو ظاهر فيها مذكور لما فهمناها •

وعلى هذا فقس التشبية الضمنى :

المتكلم	اللفظ	السامع
(نظرة المرأة وإعراضها	"إن نظرت وان هى	نظرة المرأة واعراضها
تشبهان رشق السهام	أعرضت وقع السهام	تشبهان رشق السهام
ونزعها في الوقع)	ونزعهن أليم "	ونزعها فى الوقع)
	أدة تشبية	
	وجه شبه	

والملاحظ فى البيت السابق أن الشاعر غيب مابين البداية والنهاية ، حيث

رصد " النظر " و" الإعراض " وقابلهما بـ " الوقع " و " النزع " وذلك أن الشيى يحس به عند بدايته ونهايته ، وقد لايوبه له مابينهما ، أما قد فهمت يابنى بعد التشبيه الضمنى ؟

وزيادة فى الايضاح أسوق إليك مثالا ثانيا من شعر أبى فراس الحمدانى :

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم ... وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

يريد أبو فراس أن يقول : إن قومه سيذكرونه حين تدلهم الخطوب " وتشتد الأزمات .. وسوف يفتحون عيونهم يفتشون عنه فلا يجدونه ..والدليل على صحة مايقول : أن الناس يتطلعون إلى السماء ، يفتشون عن البدر ،ولا سيما فى الليالى الحالكات .. يرجون منه النور ، ليبصروا به طريقهم ، أولينير لهم ظلمات حياتهم ، وينقذهم مما يتخبطون فيه .

إن الشاعر لم يشبه حاجة قومه إليه أيام الأزمات كحاجة الناس إلى ضياء البدر فى الليالى الحالكات ، ولكنه ألمح الى هذا المعنى إلماحا وضمن بيته هذا التشبية دون أن يصرح بمشبه ومشبه به .

ولنأخذ مثالا اخر من شعر المتنبى :

من يهن يسهل الهوانَ عليه ... مالجرحٍ بميتٍ إيلامُ

يريد ابو الطيب أن يقول : إن من عاش بالهوان واعتاده ، سهل عليه تقبل هوان جديد ، وذل آخر يرضى، ولكى يبرهن على صحة مقولته ضرب

لنا مثلا بالميت ، فلو جئت بسكين ورحت تقطع أجزاءً من جسده ، أو تنشر لحمه وعظمه بالمناشير ، ماتألم ولا صرخ ، ولاشكا ، ولابكى ، لانه فقد أحاسيسة .

ألست ترى معى من خلال المقدمة والبرهان عليها تشبيها ضمنيا فالمشبه هو الرجل الذى عاش فى الذل والهوان حتى اعتاد على ذلك ، والمشبه به : الميت الذى فقد الروح والإحساس ، فلم يعد يألم لجرح جديد لو أصابه ؟؟..
وقول أبى تمام :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالى

لنتصور أن الشاعر يخاطب زوجته ، وقد رابها أمره ، وشكت فيه ، وأساءت الظن به ، وسألته : أنت تمدح الملوك والعظماء ، وتنال من أعطياتهم الشيء الكثير ، وتعود إلى منزلك وانت فارغ الجيوب ، خالى الوفاض ، صفر اليدين .. أخبرنى : أين تذهب بالمال الذى تجمعه أين تصرفه ؟ ألك زوجة غيرى تنفق عليها ؟ أولك مسارب أخرى .
لاأعرفها تبدد أموالك فيها ؟

ويجيبها الشاعرالمتهم بقوله : لاتستغربى يازوجتى أن يكون الرجل النبيل الأصيل فقيرا معدما .. وتفغر الزوجة فاها لهذا الكلام ، وتبدو عليها أمارات الاستغراب ، وعلامات عدم الاقتناع بما يقول .

وهنا يضطر الشاعر (الزوج) إلى البرهان على صحة مقولته فيقول :
إن أمطار السماء تسقط غزيرة ، وقد تصبح سيلا فتصيب كل شيء .. إنها

تنزل فوق قمم الجبال ، فوق السهول ، والأودية .. أليس كذلك ؟؟
ويلمح فى وجه الزوجة بعض علائم التصديق ... فيتابع الشاعر المتهم بسط فكرته فيسأل : هل تمسك القمم شيئا من الأمطار النازلة عليها ، أو أنها تسيل بسرعة نحو الأودية السفلى فتتجمع فيها ؟
وتفهم الزوجة من حديثه أنه رجل عالى المكانة ، رفيع المقام بين الناس ، يصيبه الخير ، وتنهال عليه الأموال والخيرات ، ولكنها تسيل من بين يديه كما تسيل أمطار القمم إلى الأودية .. وزبدة القول أن الشاعر يريد أن يقول لها :
لاتستغربى أن يخلو الكريم من الثراء ، إنه كقمم الجبال العالية ، لا يستقر فيها ماء السيول :

ويقول أبو تمام فى فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة	طويت ، أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت	ماكان يعرف طيب عرف العود

فقد شبه حال صاحب الفضيلة الذى يظهر فضله على لسان حسود يحاول أن ينال منه ، بحال العود الذى لايفوح شذاه إلا باشعال النار فيه ، ووجه الشبه العنصر الطيب ، يكشف عنه ويظهره العنصر الردئ
وقول أبى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها	إن السفينة لاتجرى على اليبس

يشبه حال من يبغى الخلاص من عذاب الآخرة ، ولكنه لايسلك طريق النجاة

بحال السفينة تحاول الجرى على اليابسة ، دون جدوى .

وقول المتنبى :

فإن تفق الأنـام وأنت منهـم ... فإن المسك بعض دم الغـزال

ويوضح عبدالقاهر معنى البيت ، فيقول : " وذلك أنه أراد أنه فاق الأنـام وفاتهم إلى حد ، بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه ، وجنس برأسه ، وهذا أمر غريب ، وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس فى الفضائل الخاصة به ، إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس وبالمدعى له حاجة إلى أن يصحح دعواه فى جواز وجوده على الجملة ، إلى أن يجى ، فى وجوده فى الممدوح ، فاذا قال : فان المسك بعض دم الغزال فقد احتج لدعواه ، وأبان أن لما ادعاه أصلا فى الوجود ، وبرأ نفسه من صنعة الكذب ، وباعدها من سفه المقدم على غير بصيرة ، والمتوسع فى الدعوى من غير بينه وذلك أن المسك قد خرج من صفة الدم وحقيقته ، حتى لايعد فى جنسه اذ لايوجد فى الدم شيئ من أوصافة الشريفة الخاصة بوجة من الوجوه لاماقل ولااكثر ، ولا فى المسك شيئ من الأوصاف التى كان لها الدم دما البتة (١)

والواقع أن التشبيه الضمنى يرى عليه مسحة العقل أكثر ، ومنحة الفكر أوفر ، فلهذا نرى أنه يكثر استعماله عند امثال المتنبى وابى تمام ، ممن عرفوا بشعراء العقل والفكرة .

---

(١) أسرار البلاغه ٢٠٢ : ٢٠٥

ومن امثلة التشبيه الضمنى الاخرى :

قول الشاعر :

تزدحم القصّاد فى بابه ... والمنهل العذب كثير الزحام

وقول ابن الرومى :

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرنّ من الصحاب

فإن الداء أكثر ماتراه ... يحول من الطعام أو الشراب

وقول ابن زيدون :

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟ ... أم الكسوف لغير الشمس والقمر

إن طال في السجن إيداعى فلاعجب ... قد يودع الجفن حد الصارم الذكر

فالتشبية فى الأبيات السابقة يفهم من سياق الكلام ، ويغلب أن يؤدى بجملتين أو أكثر بدلا من جملة واحدة • ويمكن تحويل التشبيهات الضمنية إلى تشبيهات صريحة ، فيقال فى البيتين الأخيرين مثلا :

إن الحقير من الناس لاتنزل به الحوادث ، كالنبات الصغير لاتعصف به الريح ، وأن الكوارث لاتحل إلا بالعظماء ، كالكسوف والخسوف لايكونان إلا للشمس والقمر •

بلاغة التشبيه الضمنى :

يمكن تلخيص بلاغة التشبية الضمنى فيما يلى :

١ • أنه دعوى مع البينة والبرهان

٢ـ أنه إبراز لما يبدو غريبا ومستحيلا فى معرض القريب الملموس/الممكن

٣ـ أنه جمع بين أمرين متباعدين وجنسين غير متقاربين

٤ـ أنه دلالة على التشبية بالإشارة والكناية لا بالوضوح والصراحة ، لأن النيل إلى المطلب بعد إعمال الفكر ألذ وأعز .

التشـــــبية المقلـــــــوب

التشبيه المقلوب

تعارف الأدباء والنقاد من قديم على تشبيه الخد بالورد ، والثدى بالرمان ، والأعجاز بالكثبان ، والعيون بالنرجس ، والثغور بالأقحوان والسيقان بالجمار ، والعنق بإبريق الفضة ، والشعر بالليل ، والشجاع بالأسد ... الخ

وهذا هو الأصل فى التشبيه ، أن يكون المشبه به أقوى وأظهر من المشبه ، لتتم العملية الفنية • لكن أرباب الصناعة البيانية المتفننون فى طرق الأداء ، لم يقفوا عند مجرد التشبية العادى ، لأنهم يرون أن هذه المبالغة المعتدلة ، أقل من أن تشبع رغباتهم فيما يتوخونه من أغراض الكلام ، فى الغزل والمدح والرثاء وما إليها ، فكان أن سلكوا لذلك طريق القلب فى التشبيه توصلا لهذه المبالغة المنشودة •

تعريف :

التشبيه المقلوب هو عكس طرفى التشبيه بحيث يجعل المشبة به مشبها والمشبه مشبها به بادعاء أن وجه الشبه فية أقوى وأظهر .

فهو تشبيه لايختلف عن التشبيه العادى إلا فى اتجاه العلاقة التى يقيمها المتكلم بين الطرفين لكنهما يختلفان فى زيادة المعنى وظهوره فإذا كان شرط التشبيه أن يكون وجه الشبه أظهر فى المشبه به من المشبة •

فحين نقول :هذا كلام كالعسل ، نكون قد شبهنا حلو الكلام

بالعسل .. وحلاوة العسل أقوى وأظهر من حلاوة كل شى آخر كذلك

حين نقول : أنت بحر ، نكون قد شبهنا المخاطب ، وهو رجل قد يكون

واسع العلم ، أو واسع الكرم بالبحر ، وطبيعى أن البحر أكبر من الإنسان

وأوسع مدى من جميع اليابسة على هذه الدنيا .

من هنا قال البلاغيون : يجب أن يكون المشبه به أقوى من المشبه

ليتم التشبيه ويصح .

وفائدة قلب التشبية نقل تلك الزيادة من المشبه به إلى المشبة لقصد

المبالغة فيشبهون الأعظم بالأصغر ، والأبعد بالأقرب ، والأقل بالأكثر

والأضعف بالأقوى ، يقول قائلهم :البدر يشبه وجه حبيبتى فى الحقيقة

وجه حبيبته هو الذى يشبه البدر ، لأنه أشد ضياء وأكثر نورا وأتم استدارة

لكن القائل من فرط حبه لحبيبته ، واعجابة بها قلب التشبية فجعل الكبيرصغيرا

والصغير كبيرا ، وشبة البدر بوجه الحبيبة .

هذا التشبية الذى تبادل فيه طرفا التشبيه مواقعهما هوماادعاه البلاغيون

بالتشبيه المقلوب .

ويضربون على ذلك مثلا ببيت بشار :

وذات دل كأن البدر صورتها   باتت تغنى عميد القلب سكرانا

استقر فى أذهاننا أن المرأة تشبه البدر فى الجمال ، فهو مثال الجمال الذى

تملك المراة بعضه ، فتلتحق به على وجة الشبه ، وعندما يقرن المتكلم بين

الاثنين ، فإنه يكسر الحدود القائمة بين الموجودات المختلفة ، وعلى هـــذا قس سائر التشبيهات •

وإذا ماتواتر ذلك التكسير بجريانه في الاستعمال أصبح نموذجا متداولا فتخف درجة الطرافة فيه ، فإذا كان كل ذلك أحتيج إلى تكسير ذلك المعـهـــود بقلب اتجاه القرن بين طرفي التشبيه •

فالتشبيه المقلوب إذن تكسير من درجة ثانية ، وهو لايختلف عن التشبية العادي الا من هذه الزاوية •

الأصل : امرأة = بـــدر .

العدول الأول : التشبية العادي : المرأة ٠٠ كـ ← البـــدر (هي البدر حسنا) .

كثرة الاستعمال = ذهاب شحنه الطرافة (اهتراء الصورة)

العدول الثاني : التشبية المقلوب : البدر ٠٠٠ ك المرأة (كأن البدر صورتها يمثل التشبية المقلوب بناء على ماسبق ، سبيلا من سبل تجديد ما اهترأ مـــن الصور في الاستعمال اللغوي • فالعدول الأول مقبول لأنه معهود ، وهـــو لايفاجئ المتلقي العربي ، لأنه مقبول في نسيجة الثقافي بالرغم مافية مـــن تشويش كما ذكرنا من قبل ، وهو لايثير انتباها خاصا •

أما العدول الثاني فيرج وعي المتلقي العربي ، من حيث هو اجراء جديـد غير معهود ، يقلب نموذجا مستقرا في النسيج الثقافي ، بل يقلب معايير التفاضل

بين الأشياء وموازينه ، فالبدر بعد أن كان رمز الجمال وتمامه ، ازيح وحــــل محله كائن آخر •

ولقد تنبه أحد الأعراب القدماء إلى جمال هذا النوع من التشبيــــــه وانتقد استعمالهم للتشبية العادى • نقل أبو هلال العسكرى عن الأصمعـى أنه قال : سمعت أعرابيا يقول : إنكم معـاشر أهل الحضر ، لتخطئــــون المعنى ، إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد ، ويصـــف المرأة بالحسن فيقول : كأنها الشمس ، ولِمَ لاتجعلون هذه الأشياء بهم أشبـة

والواضح أن القدماء والمحدثين ، يعتمدون مبدأ " المسافة " في النظـر إلى التشبية المقلوب ، وهى المسافة الفاصلة بين طرفى التشبيه سواء كــــان عاديا أو مقلوبا • فالتشبية الوارد فى البيت السابق فى وجهيه المقلوب والعــادى يقوم على " المرأة " من جهة و " البدر " من جهة أخرى ، وتحدد المسافه اتجاه الجمع بينهما ، فيكون التشبيه عاديا أو مقلوبا •

ففى المقام العادى : حضور المرأة يثير فى ذهن من يراها صــــــورة البدر ، وهو حضور حسى أو ذهنى ، يقوم على دعامتين : توفر سمة الجمـــال فيها ، حتى يكون لقاؤها بصورة البدر أمرا مقبولا أو مشروعا من ناحية وتوفـــر الانتماء إلى ثقافة واحدة ، حيث يكون البدر مثال الجمال الكامل من ناحيـــة أخرى •

اما المقام الثانى (المقلوب) : فهو مقام مركب ، اذ أنه يتضمن المقـام

الأول " التشبيه العادى " ولكنه يتجاوزه من حيث يقابله ، ذلك أن حضور البدر يستدعى فى ذهن من يراه صورة امرأة لها مكانها وزمانها ، وما تتسم بـه من جمال .

ففى ظاهر التركيب حضر البدر حضورا مباشرا فوريا ، فى حين حضرت المرأة حضورا بعيدا ، وعلى هذا الوجه يقوم نوع من التناظر التام بين التشبيه العادى والتشبية المقلوب .

لكن هذا التناظر لايستقيم ولايدوم إذ يقتضى تحليل التشبيه المقلـوب حضور مقابله (التشبيه العادى) فى الذهن ، وإذ المرأة هى المنبه الرئيسى الذى ولّد الصورة فى المقامين ، وماقلب الاتجاه إلا نوع من التعمية أو التعتيم فهى قريبة دائمة حاضرة حضورا مباشرا ، اما البدرفبعيد مرة (فى التشبيـه العادى) وقريب مرة أخرى (فى التشبيه المقلوب) وهو إذ يقرب يلتقـى بالمرأة فتتقلص المسافة الفاصلة بينهما ، فيخيل للمتلقى أنها أقرب فى التشبيـه المقلوب منها فى التشبيه العادى .

وفى هذا السياق يذكر السكاكى فى معرض حديثه عن قول الشاعر :

وبدا الصباح كأن غرتـــــه   وجه الخـليفة حين يمتـدح

أنه " تعمد ايها م أن وجه الخليفة فى الوضوح أتم من الصباح [١]

قال شيخ البلاغيين عبدالقاهر : " واعلم أن هذا وإن كان فى الظاهر يشبه وقولهم : (لا أدرى ، أوجهه أنور أم الصبح ، وغرته أضوأ أم البدر ؟ أو نـــور الشمس مسروق من جبينه) ونحـــو ذلك من وجوه المبالغة ، فإن فى الأول (يعنى طريقة التشبيه المقلوب) ــ خلابة و شيئا من السحر ليس فى الثانى (يعنى طريقة التشبيه العادى) ــ وهو أنه يستكثر للصباح أن يشبهـــه بوجه الخليفة ، ويوهم أنه احتشد له ، واجتهد فى تشبيه يفخم به أمــــره فيوقع المبالغة فى نفسك من حيث لاتشعر ، ويفيد لها من غير أن يظهر ادعاءه لها لانه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ، لايشفق من خـــلاف مخالف ، وتهكم قائل لِمَ ومن أين ذلك .

والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد ، كان لها نوع من السرور عجيـــب فكانت النعمة التى لاتكدرها المنة ، وكالغنيمه التى لاتحتسب [٢]

وأبو الفتح عثمان بن جنى فى كتابه " الخصائص " يسمى هذا النوع مـــن التشبيه " غلبه الفروع على الأصول " ويقول : (هذا فصل من فصـــول العربية طريف ، تجده فى معانى العرب ، كما تجده فى معانى الأعراب ولاتكـاد

---

(١) مفتاح العلوم : ٣٤٣

(٢) انظر : أسرار البلاغة ١٩٥

تجد شيئا من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة .

فمما جاء فيه ذلك للعرب قول ، ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعتـــــه   إذا ألبسته المظلمات الحنادس(١)

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا ؟ وذلك أن العادة والعرف في نحو هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء ، أى الرمال ، ألا تــــرى إلى قوله :

ليلى قضيب تحته كثيب   وفى القلاد رشـأ ربيـــــب

فقلب ذ و الرمة العادة والعرف فى هذا ، فشبه كثبان الأنقاء ، أى الرمــــال بأعجاز النساء ، وهذا كأنه يخرج مخرج المبالغة ، أى قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء ، فصار كأنه الأصل فيه ، حتى شبه به كثبان الأنقاء(٢) وآخر من جاء به شاعرنا فقال :

نحن ركب ملجن فى زى ناس   فوق طير لها شخوص الجمــــال

فجعل كونهم جنا أصلا ، وجعل كونهم نا سا فرعا ، وجعل كون مطا يــــاه

---

(١) البسته : غطته ، الحنادس : جمع حندس وهو اشتداد الظلمة

(٢) الخصائص : ١/٣٠٠.

طيرا أصلا ، وكونها جمالا فرعا ، فشبه الحقيقة بالمجاز فى المعنى الـــــذى منه أفاد المجاز من الحقيقة ما أفاده (١)

وقد عرض ابن الأثير فى كتابه " المثل السائر " لهذا النوع من التشبيه وسماه (الطرد والعكس) وهو أن يجعل المشبه به مشبها ، والمشبـــــه مشبها به ومما جاء منه قول البحترى :

فى طلعة البدر شئ من محاسنها ∴ وللقضيب نصيب من تثنيها

وقول عبدالله بن المعتز فى تشبيه الهلال :

ولاح ضوء قمير كاد يفضحنـــا ∴ مثل القلامة قد قدت من الظفـر

ولما شاع ذلك فى كلام العرب واتسع صار كأنه الأصل ، وهو موضع من علـم البيان حسن الموقع لطيف المأخذ (٢)

والقلب فى التشبيه يدل على مرونة يتميز بها الفكر البشرى ومن ورائـــــه اللغة فى توزيع عناصر الكون ، وانشاء مختلف العلاقات بينها ،

وقــد انتبه البلاغيون العرب إلى دور القلب فى التشبيه فى تجديــــــد

---

(١) الخصائص : ١/٣٠٨

(٢) المثل السائر : ١/٤٢١ :٤٢٢

الطرافة في الصورة ، ولاحظوا ذلك في كثير من الأمثلة ، من ذلك أن تشبيه النساء بالسرو" عامي مبتذل " على حد عبارة الجرجاني ، ولكنه في التشبيه المقلوب أو " المعكوس " طريف خصب ، ويورد الجرجاني بيتين لابن وهب في وصف روضة مثالا على ذلك :

حُفت بسرو كالقيان تلحفت	خضر الحرير على قوام معتدل
فكأنها والريح حين تميلها	تبغي التعانق ثم يمنعها الخجل

ففي البيت الثاني راعى الشاعر حركتين هما حركة الدنو والتهيؤ للعناق وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق ، وأدى مايكون في الحركة الثانية من سرعة زائدة تأدية تحسب معها السمع بصرا تبينا للتشبيه كما هو وتصورا

فحركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها أسرع من حركتها في حال خروجها عن مكانها من الاعتدال ، وهذا هو المشبه وتريقا بلها حركتا المحب الخجول المتهيئ للتقبيل تفوقه حركتانثانه سرعة ذلك أن " إزعاج الخوف والوجل أبدا أقوى من إزعاج الرجاء والأمل (١)

---

(١) أسرار البلاغة ١٦٣.

ويشترط فى استعمال التشبيه المقلوب ألا يرد إلا فيما جرى عليه العرف والإلف لدى العرب ، وذلك حتى تظهر فيه بوضوح صورة القلب والانعكاس .

على هذا الأساس يحسن التشبيه المقلوب ، ويُقبل ، أما إذا ورد في غير المعهود المألوف فإنه يكون معيبا ، لأن المبالغة فيه تصيبه بالغموض وتؤدى إلى التداخل بين طرفية فلا يعرف أيهما المشبه وأيهما المشبه به .

ويقرب من هذا النوع ما أُطلق عليه العلماء " تشبيه التفضيل وهو أن يُشبه شيئ بشيئ لفظا أو تقديرا ، ثم يعدل عن التشبيه لادعاء أن المشبه أفضل من المشبه به ومن ذلك قول الشاعر :

حسبت جماله بدرا منيرا وأين البدر من ذاك الجمال ؟

وقول شاعر آخر :

من قاس جودك يوما بالسحب أخطأ مدحك

السحب تعطى وتبكى وأنت تعطى وتضحك

وقد سلك القرآن الكريم هذا السنن ، فورد التشبية المقلوب فى آيات منها ماحكاه — عز وجل — عن مستحلى الربا من قولهم : " إنما البيع مثل الربا "[1] فالمرابون يريدون أن يثبتوا شرعية الربا بتشبيهه بالبيع ، ليصلوا

---

(١) البقرة : ٢٧٥

إلى إباحته ، كما أباح الله البيع ، فعمدوا إلى قلب التشبيه ، فجعلوا المشبه به مشبها قاصدين إلى جعل الربا في الحل أقوى حالا وأعرف من البيع فهـــو في اعتقادهم حلال أكثر من البيع فجاء التشبيه مقلوبا "إنما البيع مثل الربـا" في مقام : إنما الربا مثل البيع ، ذهابا منهم الى جعل الربا في الحل أقـوى واعرف من البيــع .

القيمة البلاغية للتشبيه المقلوب

١ـ ايقاع المبالغة في النفس من حيث لايشعر ، وإفادتها من غير أن يظهر له ادعاء .

٢ـ الإيهام في الشيء الناقص عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه فــــي استحقاقها .

التشبية التمثيل وغير التمثيل

تشبيه التمثيل وغير التمثيـــل

تشبيه التمثيل : هو تشبيه يكون وجه الشبه فيه ، صورة متولـــدة من أمرين ، أو أمور ، بطريقة مركبة فهو تشبيه مركب بمركب ، لأنه يقـــــوم على التعدد فى وجه الشبه

هذا هو مذهب جمهور البلاغيين ، الخطيب القزوينى ، ومن جـــاء بعده فى تعريفهم له . ولايشترطون غير تركيب الصورة ، سواء أكانت العناصـر التى تتالف منها صورته ، أو تركيبة ، حسية ، أو معنوية .

نحو قول ابن الرومى :

ما أنس لا أنس خبازا مــررت بـــه	يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصـــــر
مابين رؤيتها فى كفــــه كـــرة	وبين رؤيتها قوراء كالقمـــــــــر
إلا بمقدار ما تنداحُ دائـــــــرةً	فى صفحة الماء ترمى فيـه بالحجـر

يشبه ابن الرومى بسط الخباز الماهر وترقيقطلعجين ، بصفحتالماء يلقى فيهـــا بالحجر . وينتزع وجة الشبه من عدة أمور متدرجةمركبة : فالرقاقة تكون أولا كالكرة ، ثم تتحول بين يدى الخباز إلى رغيف مستدير كالقمر . مثلما تتحـــول صفحتالماء ، إذ يلقى الحجر فيها . فيرى أولا دائرة صغيرة، لاتلبث أن تكبـر على شكل دوائر متلاحقة ، متتابعة ، حتى تنتهى إلى دائرة أخيرة واسعة .

فوجه الشبه بين الرقاقة وصفحتالماء ، ناتج عن هيئة منتزعة من وضع

مركب ، وصور متعددة متداخلة تدل على حدوث الانتقال من الدائرة أو الــكرة الصغيرة إلى الدائرة الكبيرة ، بشكل متتابع سريع .

نحو قول ابن المعتز يصف السماء بعد تقشع سحابة :

كأن سماءنا لما تجلـــــت خلال نجومها عند الصبـــــاح
رياض بنفسج خضــل نـــداه تفتح بينه نـــور الأقاحـــى

فالمشبه ، صورة السماء والنجوم منثورة فيها ، وقت الصباح . والمشبه به صورة رياض من أزهار البنفسج ، تخللتها أزهار الأقاحى . ووجه الشبـــه هو الصورة الحاصلة من شيء أزرق ، انتشرت فى أثنائه صور صغيرة بيضاء .

ومنه قوله تعالى : "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَـلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّـهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١)

فالمشبه ، حال من ينفق فى سبيل الله إنفاقا قليلا ، ثم ينال عليـه جزاء عظيما .

والمشبه به ، حال من بذر حبه قمح ، فأنبتت له سبع سنابل فى كل سنبلة ، مئة حبة .

---

(١) البقرة : ٢٦١ .

ووجه الشبه هو صورة من يعمل قليلا فيجنى من ثمار ... كثيرا

لكن التعريف السابق الذى سار عليه أغلب أهل البلاغة خالفه بعضهم ويعتبـر عبدالقاهر الجرجانى والسكاكى أبرزهم :

١ـ التمثيل عند الجرجانى :

عقد عبدالقاهر ، فى كتابة أسرار البلاغة [1] فصلا خصصه للكـــــلام على التشبيه ، والتمثيل ، و حقيقتها ، والمراد منها ، خصوصا في كلام مـن يتكلمعلى الشعر ، هادفا إلى معرفتها إذا كانا متساويين فى المعنى ، أو مختلفين أم أن جنسها واحد ، إلا أن أحدهما أخص من الآخر .

وتقوم نظرته فى ذلك ، على أن الشيئين إذا شُبه أحدهما بالآخـــــر كان ذلك على ضربين :

أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين ، لايحتاج فيه إلى تاويل

والآخر : أن يكون الشبه محصلا ، بضرب من التأول .

فالاول هو التشبيه غير التمثيلى ، والثانى هو التمثيل .

وهو ماكان وجه الشبه فيه أمرا بينا بنفسه لايحتاج إلى تأويل ومثالـــــة تشبيهالشى ء بالشى ء من جهة الصورة والشكل نحو أن يشبه الشى ء إذا استدار

---

(١) أسرار اللبلاغة : ٨٠

بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخر .

وكالتشبيه من جهة اللون ، كتشبيه الخدود بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار وتشبيه سقط [١] النار بعين الديك وماجرى في هذا الطريق أو جمع الصورة واللون معا ، كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور ، والنرجس بمداهن [٢] در حشوهن عقيق .

وكذلك التشبيه من جهة الهيئة نحو أنه مستو منتصب مديد كتشبيه قامة الرجل بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن .

ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها ، كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد ، ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحركه ريح ونحو ذلك .

وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس نحو تشبيه صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج كما قال ذو الرمة :

كأن أصوات ، من إيغالهن بنا أواخر الميس [٣] أنقاض الفراريج

---

(١) مايسقط بين الزندين عند القدح .

(٢) مداهن : جمع مدهن بضمتين : وهو مايجعل فيه الدهن والقياس الكسر .

(٣) الميس : شجر تتخذ منه الرحال للينه وقوته ، ويطلق على الرحال نفسها وهو المراد هنا .

تقدير البيت : " كأن اصوات أواخر الميس ، أصوات الفراريج ، من إيغالهن بنا
ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله : " من ايغالهن " .

وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازى كما قال (ذو الرمة) :

كأن أنيابها كل سحـــــــرة (١)   صياح البوازى من صريف اللوائـــك

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهه له ، وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعســـل والسكر ، وتشبيه اللين الناعم ، بالخز، والخشن بالمسح (٢) أو رائحـــة بعض الرياحين برائحة الكافور ، أو رائحة بعضها ببعض ، كما لا يخفى ·وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع ، كتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعـــة وبالذئب فى المكر · والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء ، والكـــرم واللوءم ، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل فى الشدة ، والقوة ،ومايتصل بهما ·

فالشبه فى هذا كله ، بيّن لايجرى فيه التأول ولايفتقر إليه فـــى تحصيله ،وأى تاول يجرى فى مشابهة الخد للورد فى الحمرة ، وأنت تراهـــا ههنا كما تراها هناك ، وكذلك تعلم الشجاعة فى الأسد ، كما تعلمهـــا فـــى الرجل (٣)

---

(١) السحرة : السحر الأعلى قبل انصداع الفجر ، والصريف صوت النـاب والبكرة والباب ، واللوائك جمع لائك ، اسم فاعل من لاك الطعام اذا مضعه·

(٢) المسح : ثوب من الشعر الغليظ

(٣) أسرار البلاغة : ٨١·

التشبـيه التمثيلى :

وهو مالايكون وجه الشبه فيه أمرا بينا بنفسه ، بل يحتاج فى تحصيله إلى ضرب من التأول •

كقولك : " هذه حجة كالشمس فى الظهور " .

وقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها ، كما شبهت فيما مضى الشىء بالشىء من جهة ما أردت من لون ، أو صورة ، أو غيرهما • إلا أنك تعلم أن هـذا التشبية لايتم لك إلا بتأول ، وذلك أن تقول : حقيقة ظهور الشمس وغيرهـا من الأجسام أن لايكون دونها حجاب ونحوه ، مما يحول بين العين وبيـن رؤيتها ، ولذلك يظهر الشىء لك ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب ، أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب " (١)

ويتفاوت تشبيه التمثيل ـ عند عبدالقاهر ـ تفاوتا شديدا :

١ـ فمنه مايقرب مأخذه ، ويسهل الوصول إليه ، ويعطى المقادة طوعـا حتى يكاد يداخل الضرب الأول الذى ليس من التأول فى شىء ، وهو ما ذكرته لك •

٢ـ ومنه مايحتاج فيه إلى قدر من التأمل

ومن ذلك قولهم فى صفةالكلام " ألفاظه كالماء فى السلاسة و"كالنسيم فى الرقة " و " كالعسل فى الحلاوة " يريدون أن اللفظ لايستغلق

---

(١) أسـرار البلاغة : ٨٤

ولايشتبه معناه ، ولايصعب الوقوف عليه ، وليس هو بغريب وحشى يستكـــره لكونه غير مـألوف ، أو ليس في حروفه تكرير وتنافر يكد اللسان من أجلهـــــا فصارت لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق ، والنسيم الذى يسرى فى البـدن ، ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويهدى إلى القلب روحا ، ويوجد فى الصدر انشراحا ويفيد النفس نشاطا وكالعسل الذى يلذ طعمه ، وتهش النفس له ، ويميـــــل الطبع إليه ، ويحب وروده عليه . فهذا كله تأول ، ورد شى ء إلى شى ء بضر ب من التلطف وهو أدخل قليلا فى حقيقة التأول ، وأقوى حالا فى الحاجة إليـــه من تشبيه الحجة بالشمـــس .

٣ــ ومنه مايدق ويغمض ، حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل روية ، ولطف فكرة ، وتقوى فيه الحاجة إلى التأول ، حتى لايعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع .

نحو قول كعب الأشقرى ، وقد أوفده المهلب على الحجاج ، فوصـــف له بنيه ، وذكر مكانهم من الفضل والبأس . فسأله فى آخر القصة " فكيف كـان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهارا ، فإذا أليلوا ففرسان البيت" قال : " فأيهم كان أنجد ؟ قال : " كانوا كالحلقة المفرغة ، لايدرى أيـن طرفاها " .

فهذا كما ترى ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألاترى أنه لايفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة .

وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس ، فإنه كالمشترك البين الاشتراك حتى يستوى فى معرفته اللبيب اليقظ ، والضعوف المغفل ، وهكذا تشبيه الألفاظ بما ذكرت ، قد تجده فى كلام العامى . فأما ماكان مذهبه فى اللطف مذهب قوله " هم كالحلقة " فلا تراه إلا فى الآداب ، والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة (١)

ويرى عبدالقاهر – من ثم – أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا ، فأنت تقول فى قول قيس بن الخطيم :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية (٢) حين نورا أنه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل –

وكذلك تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ، لأنك تعنى تشبيه المبصرات بعضها ببعض وكل مالا يوجد الشبه فيه من طريق التأويل كقوله :

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن دُرٍّ حشوهن عقيق

وقوله :

وأرى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد

---

(١) اسرار البلاغة : ٨٤

(٢) الملاحى : بضم الميم وتشديد اللام وتخفيفها – عنب أبيض طويل . ونور الزرع تنور : أدرك ونور التمر خلق فيه النوى .

وكل مالايصح أن يسمي تمثيلا ، فلفظ المثل لايستعمل فيه أيضـــــا فلا يقال : ابن المعتز حسن الأُمثال ، تريد به نحو الأبيات التى قدمتهـــا وإنما يقال : صالح بن عبدالقدوس كثير الأُمثال فى شعره ، ويراد به نحـــو قوله :

وإن من أدبته فى الصبــــــا كالعود يُسقى الماء فى غرســـه
حتى تراه مورقاً ناضـــــرا بعد الذى أبصرت من يبســـه

وما أشبهه مما الشبه فيه من قبيل مايجرى فيهالتأويل .

ولكن إن قلت فى قول ابن المعتز :

اصبر على مضض الحســـو د فإن صبرك قاتلـــــه
فالنار تأكل نفسهــــــا إن لم تجد ما تأكلـــــه

إنه تمثيل ، فمثل الذى قلت ينبغى أن يقال ، لأن تشبيـــه الحسود إذا صبر عليه أوسكت عنه ، وترك غيظه يتردد فيه ، بالنار التى لاتمـد بالحطب ، حتى يأكل بعضها بعضا ، مما حاجته إلى التأويل ظاهرة بينه .

ويرد عبدالقاهر هذا الانقسام فى التشبيه : إلى أن الاشتراك فى الصفة يقعمرة فى نفسها وحقيقة جنسها ، ومرة فى حكم لها ، فالخد يشـــارك الورد فى الحمرة نفسها ، وتجدها فى الموضعين بحقيقتها ، واللفظ يشـــارك العسل فى الحلاوة ، لامن حيث جنسه ، بل من جهة حكم وأمر يقتضيـــه

وهو مايجده الذائق فى نفسه من اللذة والحالة التى تحصل فى النفس ، إذا صادفت حاسة الذوق مايميل إليه الطبع ، ويقع منه بالموافقة • فلما كان كذلك ، احتيج لامحالة — إذا شبه اللفظ بالعسل فى الحلاوة — أن يبين أن هذا التشبيه ، ليس من جهة الحلاوة نفسها وجنسها ، ولكن من مقتضى لها ، وصفة تتجدد فى النفس بسببها ، وأن القصد أن يخبر بأن السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ فى سمعه ، حالة فى نفسه ، شبيهة بالحالة التى يجدها الذائق للحلاوة من العسل ، حتى لو تمثلت الحالتان للعيون ، لكانتا تريان على صورة واحدة ، ولو جدتا من التناسب على حد الحمرة من الخد والحمرة من الورد وليس ههنا عبارة أخص بهذا البيان من التأول (١)

ويعود عبدالقاهر إلى الحديث عن الضرب الأول ، وهو التشبيه غير التمثيلى ، فيقول : " فإذا كان المثبت من المشبه فى الفرع ، من جنس المثبت فى الأصل ، كان أصلا بنفسه ، وكان ظاهر أمره وباطنه واحدا ، وكان حاصل جمعك بين الورد والخد ، أنك وجدت فى هذا وذاك حمرة ، والجنس لاتتغير حقيقته ، بأن يوجد فى شيئين ، وإنما يتصور فيه التفاوت بالكثرة والقلة والضعف والقوة • نحو أن حمرة هذا الشىء أكثر ، وأشد حمرة من ذاك •

ويبنى عبدالقاهر على ماذكره ، أن التشبيه الحقيقى الأصلى ، هو الضرب الأول ، أى التشبيه غير التمثيلى وأن هذا الضرب — يقصد التشبيه

---

(١) أسرار البلاغة : ٨٤

التمثيل ، فرع له ، ومرتب عليه .

ويستخلص من كل ماتقدم ، أن التشبيه غير التمثيلى ، عند عبدالقاهر يكون وجه الشبه فيه حسيا ، أى مدركا بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، وهـــى السمع و البصر والشم والذوق واللمس ، كما يكون الوجة فيه عقليا حقيقيـــــــا أى ثابتا فى ذات الموصوف كالأخلاق والغرائز ، والطباع .

أما التمثيل ، أو التشبيهالتمثيلى ، فإن وجه الشبه فيه لايكون حسيـــا ولا من الغرائز والطباع العقلية الحقيقية ، ولكنه يكون عقليا غير حقيقـــى أى غير متقرر فى ذات الموصوف ، فلا يكون بينا فى نفسه ، بل يحتاج فى تحصيلـــه الى تأول ، لأن المشبه لم يشارك المشبه به فى صفتهالحقيقية .

والوجه فى التشبية التمثيلى ، عند عبدالقاهر ، يكون عقليا مفـــــردا كما يكون عقليا مركبا .. وفى ذلك يقول :

" ثم إن هذا الشبهالعقلى ، ربما انتزع من شى ء واحد ، كما مضـــى من انتزاع الشبة للفظ من حلاوة العسل ، وربما انتزع من عدة أمور ، يجمـــع بعضها إلى بعض ، ثم يستخرج من مجموعها الشبه ، فيكون سبيله سبيـــــل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر ، حتى تحدث صورة غير ماكان لها فى حـــــــال الإفراد ، لاسبيل الشيئين يجمع بينهما ، وتحفظ صورتهما .

ومثال ذلك قوله عز وجل : " مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَـــا ...,

ويرى أن التشبيه الأولى بأن يسمى تمثيلا ، لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ، ماتجده لايحصل لك إلا من جملة من الكلام ، أو جملتين أو اكثر حتى أن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا محضا ، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر . ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل : " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١)

ألا ترى كيف كثرت الجمل فيه ، حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمل إذا فُصلت ، وهى وإن كان قد دخل بعضها فى بعض ، حتى كأنها جملة واحدة ، فإن ذلك لايمنع من أن تكون صور الجمل معنا ، حاصلة تشير إليها واحدة واحدة . ثم أن الشبه منتزع من مجموعها ، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، وإفراد شطر من شطر ، حتى أنك لو حذفت منها جملة واحدة ، من أى موضع كان ، أُخل ذلك بالمغزى من التشبيه " (٢)

وقد يفهم من هذا التحليل ، أنه يشترط فى التشبيه لكى يكون تمثيلا

---

(١) يونس : ٢٤

(٢) أسرار البلاغة : ٠٩٦

أن يكون مركبا • ولكن الأمر ليس كذلك ، وإنما التمثيل عنده ، ماكان الوجه فيه عقليا غير حقيقي ، من غير نظر إلى إفراد أو تركيب • وهذا مانلاحظه في كتابه " أسرار البلاغة " ، فهو يدخل المفرد والمركب في هذا اللون من ألوان التشبيه ، على أن يكون الوجه فيه عقليا غير حقيقي ، أي محتاجا إلى تأول " (١)

وكالذي في قول الشاعر :

وإن من أدبته في الصبا	كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا	بعد الذي أبصرت من يبسه

فإن تشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقى أو أن الغرس المونق بأوراقه ونضرته ليس إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق ، مرضى السيرة حميد الفعال ، لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه وكمال استحسان حاله ، وأنه كما ترى أمر تصوري ، لاصفة حقيقية ، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور •

وكالذي في قوله عز من قائل : " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَايُبْصِرُونَ " (٢)

---

(١) عبدالقاهر الجرجاني : بلاغته ونقده : ١٣٥

(٢) البقرة : ١٧•

فإن وجه تشبيه المنافقين بالذى شُبهوا به فى الآية ، هو رفع الطمع إلى تسنى مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة ، مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب وأنه أمر توهمى كما ترى منتزع من أمور جمة (١)

والخلاصه أن التمثيل عند عبدالقاهر الجرجانى : ماكان وجه الشبه فيه عقليا غير حقيقى . أى محتاج إلى تأول ، من غير نظر إلى إفراد أو تركيب .

وعند السكاكى ، ماكان الوجه فيه عقليا غير حقيقى ، أى محتاج إلى تأول ، بشرط أن يكون مركبا ، وشرط التركيب هنا ، هو الذى يميز رأى السكاكى ، من رأى عبدالقاهر .

وعند الخطيب ، وجمهور البلاغيين ، التمثيل : ماكان الوجه فيه مركبا ، بصرف النظر عن كونه حسيا ، أو عقليا

ويترتب على هذا الخلاف :

١ــ أن قولك " فاكهة كالعسل " تشبيه فقط ، وليس تمثيلا عند أحد منهم ، لفقده شرط عبدالقاهر بكونه حسيا . وشرط السكاكى بكونه حسيا مفردا ، وشرط الخطيب القزوينى والجمهور بكونه حسيا مفردا ، وشرط الخطيب (القزوينى) والجمهور بكونه مفردا .

---

(١) مفتاح العلوم : ١٨٧ .

٢ـ ان قولك " لفظ كالعسل " ينفرد عبدالقاهر باعتباره تمثيلا لكونه عقليا غير حقيقى ، وليس تمثيلا عند السكاكى ، والخطيب ، لفقد التركيب الذى يشترطانه .

٣ـ وأن قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ينفرد الخطيب والجمهور باعتباره تمثيلا ، لتوافر شرطهم وهو التركيب ، ولا يعده عبدالقاهر ، ولا السكاكى ، من التمثيل لأنه حسى .

٤ـ وأن قول الشاعر :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

تمثيل عند الجميع ، لتحقق شرط عبدالقاهر ، وهو كونه عقليا غير حقيقى وشرط الخطيب ، وهو كونه مركبا ، وشرط السكاكى ، وهو التركيب وكونه عقليا غير حقيقى " .

أغـــــراض التشـــــبيه

أغـــراض التشبيــــــه

التشبيه عمل فنى ، وأسلوب رفيع يتخذه الأدباء والعلماء للسمـــــو ببيانهم ، ويحتاج إليه الرجل العامى البسيط كما يحتاج إليه الرجل المثقـــف العليم ..

وقد لانغالى إذا قلنا : إن حاجة الإنسان الجاهل إليه لاتقـــل عن حاجة العالم .. فالجاهل يقف أمام كثير من الأمور فاغرا فاه ، لايـــدرى عنها قليلا أو كثيرا .. ولاتزول غرابته ، ويطمس جهله بها إلا إذا قربتها إليه بشبيه أو نظير أو مثل أو قصة أو حكاية .

تحدثه عن الزرافة — مثلا — فلا يفقه ماهى الزرافة ، أطعام هـــى أم شراب ، أم مخلوق طائر ، أو زاحف ، أو يمشى على أربع .. فإذا شبهـــت له الزرافة بالجمل الذى لاسنام له .. رأيت فى عينيه بريقا ، وفى وجهة فرحـــا يشعر بأنه بدا يفهم ماهى الزرافة ..

والتشبيه كان الوسيلة لهذا الفهم .

أما العالم فيحتاج إليه فى تبسيط أفكاره ، وتقريب نظرياته .. كأن يقول عالـــم الجغرافية لطلابه ، وهو يقرب إلى أذهانهم صورة خارطة البلاد الإيطاليـــة أنها تشبه (الجزمة) ذات الساق الطويلة ، فيتصور الطلبة شكل الجزمـــة وتقرب من أذهانهم صورة خارطة إيطاليا .. وهكذا ..

أمـا رجل الأدب فإن فن التشبيه أداة رائعة بين يديه ، يقلبها حيث يشاء ، يبعد بها القريب ، ويقرب البعيد ، ويجعل المعقول محسوسا والمحسوس معقولا ، يزيّن ماشاء أن يزين ، ويقبح ماشاء أن يقبح ، وهى وسيلته فـــى المدح والذم ، وبيانه فى السراء والضراء ٠٠

xxx

ولئن مر بنا فى البحوث السابقةتفصيلات شتى حول هذا الفن ،وأمثلـــة كثيرة فى هذا اللون ، وتسميات مختلفة لأنواع وأنواع ٠٠ إنها فى النهايـــــة تصب فى مجرى واحد هو " المشبه " دون سواه ٠

المشبه وحده ، مركز الدائرة وقطب الرحى ، وعليه المعتمد فى معظم عمليـــات هذا الفن ٠

اما المشبه به فهو الشعاع المسلط على المشبه ليوضحه ، ويفســـــره وينير دربه ومعناه ٠٠ وكذلك وجه الشبه ٠٠ والأداة ٠

xxx

إذن ، فن التشبيه أولا وأخيرا في خدمة المشبه ٠٠ فهو

١ــ يوضح صورته ٠٠٠٠٠٠ الزرافة مثل الجمل دون سنام ٠

٢ــ يبين حاله ٠٠٠ الغضب كالنار تأكل غيرها أو نفسها ٠

٣ــ يزينه ٠٠٠ كأنك شمس والملوك كواكب

٤ــ يقبحه ٠٠٠٠ يضحك ضحكة قرد .

٥ـ يقرِّر حاله ٠٠٠٠٠ الشمس كالمرآة في يد الأشل .

٦ـ يبرهن على صحته ٠٠٠٠ فإن تفق الأنام وأنت منهم

فإن المسك بعض دم الغزال ٠

بلاغـــــة التشـــــــبية

بلاغـــة التشبيــــــــــة

قال ابو هلال العسكرى (١)

" والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تاكيدا ، ولهذا أطبق جميع المتكلميــــن من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه ٠ وقد جاء عن القدمـــاء وأهل الجاهلية من كل جيل مايستدل به على شرفه وفضله وموقعه مـــــــن البلاغة بكل لسان ٠ فمن ذلك ما قاله صاحب كليلة ودمنه (٢) :الدنيا كالمـاء الملح كلما ازددت منه شربا ا زددت عطشا ٠ وقال : لايخفى فضل ذى العلـــم وإن أخفاه كالمسك يخبا ويستر ، ثم لايمنع ذلك رائحته أن تفوح ٠ وقال : الأدب يذهب عن العاقل السكر ويزيد الأحمق سكرا ، كالنهار يزيد البصيـــر بصرا ويزيد الخفاش سوء بصـــر " ٠

ويعبر عبدالقاهر الجرجانى عن مدى أثر التشبية فى التعبير عن المعانى المختلفة بقوله (٣)

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٢٤٢ـ ٢٤٣

(٢) يقصد عبدالله بن المقفع

(٣) أسرار البلاغة ص ٩٢ـ ٠٩٦

" .. فان كان (التشبيه) مدحا كان أبهى وأفخم ، وأنبل فـــى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للالف ، وأجلب للفرح ، وأغلب علـى الصـدح .. وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه [١] الذع ، ووقعه أشـــد وحده أحد .

وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر
وإن كان افتخارا كان شأوه [٢] أبعد ، وشرفه أجد [٣] ولسانه ألد .

وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب وللسخائم [٤] أسل ، ولغرب [٥] الغضب أفل .

وإن كان وعظا كان أشفى للصدر ، وأدعى للفكر ، وأبلغ فى التنبيـــه والزجر

وهكذا الحكم إذا استقصيت فنون القول وضروبه .... "

---

(١) الميسم: بكسر الميم ـ الآلةالتى يكوى بها ويعلم

(٢) الشأو : الأمد والغاية

(٣) أجد : أعظم

(٤) السخائم : الضغائن . وسل السخائم : نزعها واستخراجها

(٥) غرب السيف : حده وفل السيف : ثلمة . ويقصد : أن الاعتـــذار يضعف من حدة الغضب الذى يكون له وقع السيف على النفس.

ويرجع عبدالقاهر تأثير التشبيه فى النفس إلى علل وأسباب . وأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها فى الشىء وتعلمها إياه إلى شىء آخر هى بشأنه أعلم، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، عما يعلم بالفكر إلى مايعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس ... يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر ... كما قالوا : ليس الخبر كالمعاينة ، ولا الظن كاليقين .. فالانتقال فى الشىء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب .

فالمشاهدة لها أثرها فى تحريك النفس وتمكين المعنى من القلب ، ولولا أن الأمر كذلك لما كان هناك معنى لنحو قول أبى تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه ، فاغترب تتجدد

فإنى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وذلك أن هذا التجدد لا معنى له إن كانت الرؤية لاتفيد أنسا من حيث هى رؤية . وكان الأنس لنفيها الشك والريب ، أو لوقوع العلم بأمر زائد لم يعلم من قبل .

ولو أن رجلا أراد أن يضرب لك مثلا فى تنافى الشيئين فقال : هذا وذاك هل يجتمعان ؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير

مالا تجده إذا أخبرك بالقول فقال : هل يجتمع الماء والنار ؟ . وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الاريحية أقرب .

وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح . والمتآلف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها (التشبيهات) الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض ...

وإذا ثبت هذا الأصل ، وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مايحرك قوى الاستحسان ، ويثير المكامن من الاستظراف ، فان التمثيل (التشبيه) أخص شيء بهذا الشأن " .

وبعد فالتشبية وسيلة العالِم والأديب إلى شرح مايجول في خاطرة أو يدور في خياله .. ثم إنه أساس من أسس الاستعارة ، ومادة رئيسية في كل صورة فنية مبدعة .

ومن أبدع التشبيهات قول المتنبي :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

يدعو علي نفسه بالبلى والفناء إذا هو لم يقف بالأطلال ليذكر عهد من

كانوا بها ، ثم أراد أن يصور لك هيئة وقوفه فقال : " إنه لسوف يقف على آثار أحبته كما يقف شحيح فقد خاتمه فى التراب : صورة فنية رائعة ٠٠ فيها رسم ذلك الإنسان البخيل ، الناهل ، المتحير ، المحزون ، المطرق برأسه المتنقل من مكان إلى مكان فى اضطراب ودهشة " (١)

تلك صورة المشبه به ٠٠ وهى نور كشاف يهدينا إلى بيان حال المشبه وتوضيح معالمة ٠٠ ومن خلال هذا النور الكاشف نهتدى إلى تبين ملامح العاشق الذى وقف على الأطلال ، وعند كل حجر ، وشجر ، وذرة رمل ، وآثار أحبة ٠٠ يبكى عليها ، ويستبكى الوجود رحمة بحالهالتى آل إليها بعد أن رحلوا٠

ونعتقد أن سبب نجاح الصورة ليس بإيراد المشبه والمشبه به مقرونين إلى بعضها ، كما يفعل العالم أو معلم المدرسة الذى يبتغى توضيح الأمور لتلامذته ٠٠ وإنما بذلك الخيال المجنح الذى طار به الشاعر إلى سماوات عليا وبتلك العاطفه الفوارة النابضة بالحرارة وآلاء الحياة ٠٠ ومن مجموع هذه العناصر تركبت الصورة ، وظهرت حتى تلمسها اليد ، وتراها العين ٠٠ رغم أنها صورة متخيلة ليس إلا ٠٠٠

ولله در مؤلفى (البلاغة الواضحة) حين لخصا بلاغة التشبيه وبعض ما أثر منه عن القدماء والمحدثين ، فقالا :

---

(١) البلاغة الواضحة ص ٦٦ (بتصرف) وجواهر البلاغة ص ٢٨٦٠

تنشأ بلاغة التشبيه من أنه ينتقل بك من الشيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه أو صورة بارعة تمثله . وكلما كان هذا الانتقال بعيدا قليل الخطورة بالبال أو ممتزجا بقليل أو كثير من الخيال ، كان التشبيه أروع للنفس ، وأدعى إلى إعجابها واهتزازها . فإذا قلت : فلان يشبه فلانا في الطول ، أو أن الأرض تشبه الكرة في الشكل ، أو أن الجُزر البريطانية تشبه بلاد اليابان ، لم يكن لهذه التشبيهات أثر للبلاغة ، لظهور المشابهة وعدم احتياج العثور عليها إلى براعة وجهد أدبي ، ولخلوها من الخيال .

وهذا الضرب من التشبيه يقصد به البيان والإيضاح وتقريب الشيء إلى الأفهام ، وأكثر مايستعمل في العلوم والفنون .

ولكن تأخذك روعة التشبيه حينما تسمع قول المعري يصف نجما :

يسرع اللمح في احمرار كما تســـرع في اللمح مقلة الغضبان (١)

فإن تشبيه لمحات النجم وتألقه مع احمرار ضوئه بسرعة لمحة الغضبان من التشبيهات النادرة التي لاتنقاد إلا لأديب .

ومن ذلك قول الشاعر :

---

(١) لمح البرق والنجم : لمعانها . ولمح البصر : اختلاس النظر .

وكأن النجوم بين دجاه   سنن لاح بينهن ابتداع (١)

فإن جمال هذا التشبيه جاء من شعورك ببراعة الشاعر وحذقه فى عقد المشابهة بين حالتين ماكان يخطر بالبال تشابهها ، وهما حالة النجوم فى رقعة الليل بحال السنن الدينية الصحيحة متفرقة بين البدع الباطلة . ولهذا التشبيه روعة أخرى جاءت من أن الشاعر تخيل أن السنن مضيئة لماعة وأن البدع مظلمة قاتمة .

هذا وقد جرى القدماء والمحدثون على تشبيه الرجل الجواد بالبحر والمطر ، والشجاع بالأسد ، والوجه الحسن بالشمس والقمر ، والشهم الماضى فى الأمور بالسيف ، والعالى المنزلة بالنجم ، والحليم الرزين بالجبل ، والأمانى الكاذبة بالأحلام . والوجه الصبيح بالدينار ، والشَّعر الفاحم بالليل ، والماء الصافى باللُّجَين ، والليل بموج البحر ، والجيش بالبحر الزاخر ، والخيل بالريح والبرق ، والنجوم بالدرر والأزهار ، والأسنان بالبَرَد واللؤلؤ ، والسفن بالجبال ، والجداول بالحيات الملتوية ، والشَّيب بالنهار ولمع السيوف ، وغرة

---

(١) معظم كتب البلاغة أوردت لفظة (دجاه) مضافة إلى ضمير التانيث ويغلب على ظننا أن الأصح كما أوردنا .

الفرس بالهلال ، و الجبان بالنعامة والذبابة ، واللئيم بالثعلب ، والطائش بالفراش ، والذليل بالوتد ، والقاسى بالحديد والصخر ،والبليد بالحمار ،والبخيل بالأرض المجدبة .

وقد اشتهر رجال من العرب بخلال محمودة ، فصاروا فيها أعلامافجرى التشبيه بهم ، فيشبه الوفى بالسموأل [(١)] ، والكريم بحاتم ، والعادل بعمر ابن الخطاب ، والحليم بالأحنف ، والفصيح بسحبان ، والخطيب بقُس [(٢)] والشجاع بعمرو بن معد يكرب ، والحكيم بلقمان [(٣)] ، والذكى بإياس .

واشتهر آخرون بصفات ذميمة فجرى التشبيه بهم أيضا ، فيشبه الغبىء بباقل [(٤)] والأحمق بهبنقة [(٥)] والنادم بالكُسعى [(٦)] والبخيل بمادر [(٧)] ، والهجّاء بالحطيئة [(٨)] والقاسى بالحَجاج [(٩)]

---

(١) هو السموأل بن حيان اليهودى ، يضرب به المثل فى الوفاء ، وهو من شعراء الجاهلية توفى سنة ٦٢ هـ / ٦٨٠هـ .

(٢) هو قس بن ساعدة الإيادى ، خطيب العرب قاطبة ، ويضرب به المثل فى البلاغة والحكمة .

(٣) حكيم مشهور أتاه الله الحكمة أى الإصابة فى القول والعمل .

(٤) رجل اشتهر بالغباء ، اشترى غزالا مرة بأحد عشر درهما ، فسئل عن ثمنه ، فمد أصابع كفيه — بريد عشرة — وأخرج لسانه ليكملها أحد عشر ففر الغزال ، فضُرب به المثل فى الغبى .

(٥) هو لقب أبى الودعات يزيد بن ثروان القيسى ، ويضرب به المثل فى الحمق

(٦) هو غامد بن الحارث ، خرج مرة للصيد ، فأصاب خمسة حمر بخمسة أسهم وكان يظن كل مرة أنه يخطىء فغضب وكسر قوسه ولما أصبح رأى الحمر مصروعة ، والأسهم مخضبة بالدم ، فندم على كسر قوسه ==

....

= = وعض على إبهامه ، فقطعها .

(٧) لقب رجل من بنى هلال إسمه مخلوف ، وكان مشهورا بالبخل واللؤم

(٨) هو جرول بن أوس العبسى ، شاعر مخضرم ، كان هجاء مرا ، ولـم يكد يسلم من لسانه أحد ، هجا أمه وأباه ونفسه ، وله ديـــوان شعر مطبوع ، توفى سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠م

(٩) هو الحجاج بن يوسف الثقفى ، كان عاملا على العراق وخراســـان لعبد الملك بن مروان ، ثم للوليد من بعده ، وهو أحد جبابـــرة العرب ، وله في القتل والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلها ، توفى بمدينة واسط سنة ٩٧هـ / ٧١٥.

البـــــاب الثانـــى

الاســــــــتعارة

الاستعارة

لئن كان فن التشبيه فى علم البيان آية من آيات الإبداع الفنى بين أيدى الأدباء والشعراء والمتفننين ، فإن الاستعارة — فى رأينا — قمة الفن البيانى ، وجوهر الصورة الرائعة والعنصر الأصيل فى الإعجاز والوسيلة الأولى التى يحلّق بها الشعراء وأولو الذوق الرفيع إلى سماوات من الإبداع مابعدها أروع ولا أجمل ولا أحلى ٠

بالاستعارة ينقلب المعقول محسوسا ، تكاد تلمسه اليد ، وتبصره العين ويشمه الأنف ٠ وبالاستعارة تتكلم الجمادات ، وتتنفس الأحجاز وتسرى فيها الحياة ، ٠٠ فترى الطبيعة الصامتة الجامدة تغنّى وترقص ، وتلهو وتلعب كأنها من ذوات الروح والمشاعر والأحاسيس والقلوب النابضة حبا وحياة وانفعالا ٠

الاستعارة فى اللغة :

قال الأزهرى : وأما العارية والإعارة والاستعارة ، فإن قول العرب فيها : هم يتعاورون العوارى ويتعورونها ، بالواو ، كأنهم أرادوا تفرقة بين ما يتردد من ذات نفسه ، وبين مايردد ٠

قال : والعارية منسوبة إلى العارة ، وهو اسم من الإعارة ، نقول : أعرته الشيء أعيره إعارة وعارة ٠٠ ويقال استعرت منه عارية فأعارنيها واستعاره ثوبا

فأعاره إياه . ومنه قولهم : كير مستعار ، وقال بشر بن أبي حازم :

كأن حفيف منخره إذا مـــــا كتمن الربو ، كيـــر مستعـــــار

قيل : في قوله مستعار قولان : أحدهما أنه استعير ، فأسرع العمل بـــــه مبادرة لارتجاع صاحبه إياه ، والثاني أن تجعله من التعاور . يقال : استعرنا الشيء واعتورناه وتعاورناه ، بمعنى واحد ، وقيل : مستعار بمعنى متعـــاور أي متداول " (١) .

فالاستعارة بمعناها المجازي ، لها أصل واضح في معناها اللغـــــوي . فالثاني أصل الأول وأساسه . ولهذا تفهم من معنى الاستعارة ، أن الشيء انتقل من يد المعير ، إلى يد المستعير ، للإفادة منه ، والانتفاع به . ومثل هذا لايقع إلا بين متعارفين ، بينهما صلة وتعامل .

يؤكد ابن الأثير هذه المعاني ، ويوضح صلتها بحد الاستعارة ، فيقول : " وإنما سمي هذا القسم من الكلام استعارة ، لأن الأصل في الاستعـــــارة المجازية ، مأخوذ من العارية الحقيقية ، التي هي ضرب من المعاملة . وهـي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء ، ولايقع ذلك إلا مـــــن شخصين بينهما سبب معرفة ، مايقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئاً ، وإنما

---

(١) لسان العرب : لابن منظور .

لم يكن بينهما سبب معرفة ، بوجه من الوجوه ، فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئا ، إذ لايعرفه حتى يستعير منه ، وهذا الحكم جار فى استعارة الألفاظ بعضها من بعض ، فالمشاركة بين اللفظين فى نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر ، كالمعرفة بين الشخصين ، فى نقل الشىء المستعار من أحدهما إلى الآخر (١).

الاستعارة فى الاصطلاح :

الاستعارة — عند البلغاء — ضرب من المجاز اللغوى ، علاقته المشابهة أى لفظ استعمل فى غير ماوضع له ، لعلاقة المشابهة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى ، الذى وضع اللفظ له .

ومن أمثلته ،

قول المتنبى ، وقد قابله ممدوحه وعانقه :

فلم أر قبلى من مشى البحر نحو ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

ففى هذه الاستعارة ، غاب ثلاثه من أركان التشبيه ، وهى : الأداة ، ووجه الشبه ، والمشبه ، وبقى المشبه به .

---

(١) المثل السائر : ١/ ٣٦٠

فالاستعارة تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه •
وقيام التشبيه على طرف واحد من طرفيه يوحى بأن المشبه هو عين المشبه بـه فالممدوح هنا هو البحر نفسه ، أو الأسد ذاته ، لما بينهما والمشبه من تقارب يكاد يبلغ حد الاتحاد •

الاستشعارة والمجاز والتشبيه :

وأدى هذا الربط بين الاستعارة والتشبيه ، إلى أن يميز عبدالقاهر الاستعارة من أنواع المجاز الأخرى ، لأنها لاتقوم على المشابهة ، وإنما على علاقات أخرى • ويتضح ذلك ، فى رده على ابن دريد فى الجمهرة ، حيث ذكر باب الاستعارات ، وفيه ماليس منها ، كقولهم : " رعينا الغيث والسماء "يعنى المطر • فقال : " فالوجه فى هذا الذى رأوه من إطلاق الاستعارة على ماهو تشبيه ، كما هو شرط أهل العلم بالشعر وعلى ماليس من التشبية فى شيء ولكنه نقل اللفظ عن الشىء إلى الشىء بسبب اختصاص ، وضرب من الملابسة بينهما ، وخلط أحدهما بالآخر ، إنهم كانوا نظروا إلى مايتعارفه الناس من معنى العارية ، وأنها شيء حُول عن مالكه ، ونقل من مقره الذى هو أصل فى استحقاقه ، إلى ماليس بأصل ، ولم يُراعوا عرف القوم •• وليس هذا المذهب بالمذهب المرضى بل الصواب ، أن تقصر الاستعارة على مانقله التشبيه للمبالغة ، لأن هذا نقل يطرد على حد واحد ، وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة" (١)

---

(١) أسرار البلاغة : ٢٦٩، ٢٧٠

و يوضح عبدالقاهر مفهومه للاستعارة فيقول :

" الاستعارة ، أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبية وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به ، فتعيره المشبه ، وتجريه عليه ، تريد أن تقول : رأيت رجلا كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء ، فتدع ذلك وتقول : " رأيت أسدا " ، وضرب آخر من الاستعارة وهو ماكان نحو قوله : " أصبحت بيد الشمال زمامها " هذا الضرب ، وإن كان الناس يضمونه إلى الأول ، حيث يذكرون الاستعارة ، فليسا سواء ، وذاك أنك في الأول تجعل الشيء للشيء ليس به ، وفي الثاني تجعل للشيء الشيء له (١) .

وللاستعارة تعريفات كثيرة ، جمعها بعضهم (٢) ولكنها في معناها العام تعود إلى أصل واحد .

فالأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه ، ولذلك عُد أصلا ، وعدت الاستعارة فرعا له ، وقد خلط غير واحد من علماء البلاغة بينهما ، فجعلوا بعض التشبيهات استعارات ، وبعض الاستعارات تشبيهات .

كقول الوأواء الدمشقي :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

---

(١) دلائل الاعجاز : ٥٣

(٢) علم المعاني لعبد العزيز عتيق : ١٧٢ : ١٧٤ .

عده ابو هلال العسكرى من أتم التشبيه (١)، كما عده ابن رشيق (٢) من التشبية الذى وقع فيه تشبيه خمسة بخمسة وأتى به بغير آلة التشبيه •فشبه الدمع باللؤلؤ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد ، والأنامل بالعُناب والثغر بالبرد •

وأورد ابن رشيق قول البحترى :

كأنما يبسم عن لؤلؤ　　　منظم أو برد أو أقاح

فشبه واحدا وهو الثغر بثلاثه •

والبيتان السابقان — كما نرى — ليسا من التشبيه ، وإنما هما من الاستعارة ، فالمشبه فى كل منهما محذوف •

ففى بيت الوأواء غاب المشبه ، والمذكور طرف واحد من طرفى التشبيه ، وهو المشبه به : اللؤلؤ والنرجس والورد والعُناب والبرد •

وكذا بيت البحترى ، فقد ذكر فيه المشبه به وهو : اللؤلؤ والبرد والأقاح وغاب المشبه ، وهو الثغر ، وهذه كلها استعارات •

---

(١) الصناعتين : ٢٥١

(٢) العمدة : ١/٢٩٤

وقد رأينا فى كلام أبى هلال ، وابن رشيق ، خلطا كبيرا بين التشبيه والاستعارة . وقد نحا بعض أهل البلاغة هذا المنحى الخاطىء ، فعدوا التشبيه المضمر الأداة استعارة ، لأن التشبيه — فى نظرهم — إنما يتميز بالأداة ، ولذا فهم يرون ، أن المفهوم من قولنا : " زيد أسد " مثل المفهوم من قولنا : " لقيت الأسد " و " زارنى الأسد " فإذا كان مفهومهما واحدا فى المبالغة فى المجاز ، فإذا قضيت يكون أحدهما استعارة ، وجب أن يكون الآخر كذلك ، من غير تفرقة بينهما (١) .

وقد اعترض على ذلك ، القاضى الجرجانى فى الوساطة ، ورأى أنه ورد مايظنه الناس استعارة ، وهو تشبيه ، أو مثل ، وأن بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد منها قول أبى نواس :

والحب ظهر أنت راكبه ... فإذا صرفت عنانه انصرفا

وليس هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت : أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت ، إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل ، أو تشبيه شىء بشىء .

وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة ، فجعلت فى مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار

---

(١) النكت فى اعجاز القرآن : ٧٩ .

له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ والمعنى ، حتى لايوجد بينهما منافـــرة ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر " (١)

وقد أثار إمام البلاغة ، عبدالقاهر ، هذه القضية ، وأوضح الفرق بيـــن التشبيه والاستعارة فقال : " إن الاستعارة ، وإن كانت تعتمد التشبيـــه والتمثيل – وكان التشبيه يقتضى شيئين مشبها ومشبها به ، وكذلك التمثيـــل لأنه كما عرفت تشبيه ، إلا أنه عقلى – فإن الاستعارة من شأنها أن تسقـــط ذكر المشبه من البيت وتطرحه ، وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به ، كمـــا مضى من قولك : " رأيت أسدا " تريد رجلا شجاعا و " وردت بحرا زاخـرا " تريد رجلا كثير الجود فائض الكف ، و " أبديت نورا " تريد علما وماشاكـــل ذلك ، فاسم الذى هو المشبه ، غير مذكور بوجه من الوجوه ، كما تــــرى وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به ، لقصدك أن تبالغ ، فتضع اللفظ بحيث يخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور ، كى تقوى أمر المشابهة وتشدده ويكون لها هذا الصنيع ، حيث يقع الاسم المستعار فاعلا ، أو مفعولا ، أو مجـــرورا بحرف الجر ، أو مضافا إليه ، فالفاعل كقولك : " بدا لى أسد " و" انبرى لى ليث " و " بدا نور " و " ظهرت شمس ساطعة " و " فاض لى بالمواهب بحر " كقولة :

وفى الجيرة الغادين من بطن وجرة	غزال كحيل المقلتين ربيـب

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه : ٤٠

والمفعول ، كما ذكرت من قولك : " رأيت أسدا " والمجرور ، نحو قولـــك
ولا عار إن فر من أسد يزأر " والمضاف اليه كقوله :

يا ابن الكواكب من أئمة هاشم والرُّجّح الأحساب والاحـــلام

وإذا جاوزت هذه الأحوال ، كان اسم المشبه مذكورا ، وكان مبتدأ واســـم
المشبه به واقعا فى موضع الخبر ، كقولك : " زيد أسد " أو على هذا الحد
وهل يستحق الاسم فى هذه الحالة أن يوصف بالاستعارة أم لا (١).

ويضيف عبدالقاهر : فينبغى أن تعلم ، أنه ليس كل شئ يجىء مشبهـا
به بكاف أو بإضافة " مثل " إليه ، يجوز أن تسلط عليه الاستعارة ، وتنفـذ
حكمها فيه ، حتى تنقله عن صاحبه ، وتدعيه للمشبه ، على حد قولك :
" أبديت نورا " تريد علما و " سلك سيفا صارما " تريد رأيا نافذا ..
ويرى عبدالقاهر ، أن التشبيه لجهة تحويله إلى الاستعارة ، ضربان :
أولهما : ماكان الشبه بين الطرفين ، مما يقرب مأخذه ، ويسهل متداولـــــه
ويكون في الحال دليل عليه ، وفى العرف شاهد عليه .. نحو قولهـم :
" هو كالاسد " فلك أن تدخل عليه حكم الاستعارة ، اذا يعلم إذا قلت

---

(١) أسرار البلاغة : ٢٢٣.

" رأيت أسدا " ، وانت تريد الممدوح ، أنك قصدت وصفه بالشجاعة

وإذا قلت : " طلعت الشمس " وأنت تريد امرأة ، علم أنك تريد

وصفها بالحسن ، وإن أردت الممدوح ، علم أنك تقصد وصفه بالنباهة

والشرف .

والثانى : ماكان الشبه بين الطرفين لاسبيل إلى معرفة المقصود منه فيه

" إلا بعد ذكر الجمل التى يقصد بها التمثيل ، فإن الاستعارة لاتدخله

لأن وجه الشبه إذا كان غامضا لم يجز أن تقتسر الاسم ، و تغصب

عليه موضعه ، وتنقله إلى غير ماهو أهله ، من غير أن يكون معك

شاهد ، ينبىء عن الشبه .

فلو حاولت فى قوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى :

أن تعامل الليل معاملة الأسد ، فى قولك : " رأيت أسدا " أعنى أن

تسقط ذكر الممدوح من البين ، لم تجد له مذهبا فى الكلام ، ولاصادفت

طريقة توصلك إليه ، لأنك لاتخلو من أحد أمرين : إما أن تحذف

الصفة ، وتقتصر على ذكر الليل ، مجردا ، فتقول : " إن فررت

أظلنى الليل " وهذا محال ، لأنه ليس فى الليل دليل على النكتة

التى قصدها ، من أنه لايفوته ، وإن أبعد فى الهرب ، وصار إلى أقصى

الأرض ، لسعة ملكه ، وطول يده ، وأن له فى جميع الآفاق عاملا

وصاحب جيش ، ومطيعا لأوامره ، يرد الهارب عليه ، ويسوقه إليه ، وغاية

مايتأتى فى ذلك ، إ نه يريد إن هرب عنه ، أظلمت عليه الدنيا وتحير ولم يهتد ، فصار كمن يحصل فى ظلمة الليل ، وهذا شىء خارج عن الغرض " (١)

ويتناول عبدالقاهر موضوع إطلاق الاستعارة ، على أقوال مثل " زيد أسد " و " هند بدر " وهى تشبيهات بليغة فيقول :

" اعلم أن الوجة الذى يقتضيه القياس ، وعليه يدل كلام القاضى فى الوساطة (٢) أن لاتطلق الاستعارة على نحو قولنا " زيد أسد " و "هند بدر " .

---

(١) أسرار البلاغة : ٢٢٥

(٢) قال فيها وربما جاء من هذا الباب مايظنة الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس

الحب ظهر أنت راكبه ... فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة إنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شىء بشى ، وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل .

ولكن نقول هو تشبيه ، فإذا قال : " هو أسد " لم تقل : استعار
له اسم الأسد ، ولكن تقول : شبهه بالأسد • وتقول فى الأول أنه استعـارة
لاتتوقف فيه لاتتحاشى البتة • وإن قلت فى القسم الأول إنه تشبيه ، كنـت
مصيبا من حيث تخبر عما فى نفس المتكلم ، وعن أصل الغرض ، وإن أردت تمام
البيان قلت : أراد أن يشبه المرأة بالظبية فاستعار لها اسمها مبالغة •
فإن قلت : فكذلك فقل فى قولك : " زيد أسد " أنه أراد تشبيهه بالأسـد
فأجرى اسمه عليه ، ألا ترى أنك ذكرته بلفظ التنكير فقلت : " زيد أسـد "
كما تقول : " زيد واحد من الأسود " فما الفرق بين الحالين وقد جـرى
الاسم فى كل واحد منهما على المشبه ــ فالجواب أن الفرق بيّن ، وهو أنـك
عزلت فى

القسم الأول : الاسم الاصلى عنه ، وأطرحته ، وجعلته كأن ليس هو باسـم
له ، وجعلت الثانى هو الواقع عليه ، والمتناول له ، فصار قصدك التشبيـه
أمرا مطويا فى نفسك ، مكنونا فى ضميرك ، وصار فى ظاهر الحال ، وصـورة
الكلام ونصبته ، كأنه الشىء الذى وضع له الاسم فى اللغة • وتصور ــ أن
تعلقه الوهم كذلك وليس كذلك •

القسم الثانى • لأنك قد صرّحت فيه بذكر المشبه ، وذكرك له صريحا ، يأبـى
أن تتوهم كونه من جنس المشبه به • وإذا سمع السامع قولك : " زيد أسـد "
و " هذا الرجل سيف صارم على الأعداء " استحال أن يظن وقد صرحـت
له بذكر زيد ، أنك قصدت اسدًا وسيفا ، وأكثر مايمكن أن يدعى تخيله فـى

هنا ، أن يقع فى نفسه من قولك : " زيد أسد " حال الأسد فى جراءته وإقدامه وبطشه ، فإما أن يقع فى وهمه أنه رجل وأسد معا بالصورة والشخص فمحال .

ولما كان كذلك ، كان قصد التشبيه من هذا النحو بيّنا لائحا ، وكائنا من مقتضى الكلام ، وواجبا من حيث موضوعه ، حتى إن لم يحمل عليه كان محالا ، فالشىء الواحد لايكون رجلا وأسدا ، وإنما يكون رجلا ، وبصفة الأسد فيما يرجع إلى غرائز النفوس والأخلاق ، أو خصوص فى الهيئة كالكراهة فى الوجه ، وليس كذلك الأول ، لأنه يحتمل الحمل على الظاهر على الصحة فلست بممنوع من أن تقول " عنّت لنا ظبية " وأنت تريد الحيوان وطلعت شمس " وأنت تريد الشمس ، كقولك " طلعت اليوم شمس حارة " وكذلك تقول : " هززت على الأعداء سيفا " وأنت تريد السيف ، كما تقوله وأنت تريد رجلا باسلا استعنت به أو رأيا ماضيا وفقت فيه ، وأصبت به من العدو ، فارهبته وأثرت فيه .

وإذا كان الأمر كذلك ، وجب أن يفصل بين القسمين ، فيسمى الأول ، استعارة على الإطلاق ، ويقال فى الثانى أنه تشبيه ، فأما تسمية الأول تشبيها فغير ممنوع ولاغريب ، إلا أنه على أنك تخبر عن الغرض ، وتنبىء عن مضمون الحال ، فأما أن يكون موضوع الكلام وظاهره موجبا ، له صريحا ، فلا .

فإن قلت : فكذلك قولك " هو أسد " ليس فى ظاهره تشبيه ، لأن

التشبيه يحصل بذكر الكاف أو " مثل " أو نحوهما — فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن موضوعه من حيث الصورة ، يوجب قصدك التشبيه ، لاستحالة أن يكون له معنى وهو على ظاهره (١)

ومن فصلوا القول في الفرق بين التشبيه والاستعارة ، ابن الاثير الذى قسم المجاز قسمين : توسع في الكلام ، وتشبيه · ثم رأى التشبيه ضربين : تشبيه تام ، وهو ماذكر فيه الطرفان ، وتشبيه محذوف ، وهو ماذكر فيه المشبه به دون المشبه ، ويسمى استعارة ·

ورأى أن التشبيه والاستعارة — بصفتها مجازا للمشاركة — يختلفان لجهة ذكر المنقول ، والمنقول إليه ، أو أحدهما ·

" فإن ذكر المنقول والمنقول إليه معا ، كان ذلك تشبيها ، والتشبيه تشبيهان : تشبيه مظهر الأداة ، كقولنا : " زيد كالأسد " وتشبيه مضمر الأداة ، كقولنا : " زيد أسد " وهذا التشبيه المضمر الأداة ، قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما ، وذلك خطأ محض " (٢)·

---

(١) أسرار البلاغة : ٢٩٨

(٢) المثل السائر : /٣٥٦·

ويوضح وجه الخطأ فيرى أن الأداة لايقدح ظهورها ، عند وجود الطرفين أي في التشبيه ، ولكنه عكس ذلك ، إذا ظهرت في الاستعارة ·
ويضرب لذلك مثلا هذا البيت :

فرعاء إن نهضت لحاجتها عَجِلَ القضيبُ وابطأَ الدّعـــصُ

فهنا كلام ذكر فيه أحد الطرفين ، وتقديره : عجل قد كالقضيب ،وأبطـــأ ردف كالدعص ، وبين إيراده على هيئته في البيت (دون أداة) وإيراده علـى هذا التقدير بون بعيد · والفرق إذاً أن التشبه المضمر الأداة ، يحســـن إظهار أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لايحسن ذلك فيها ·

ورد على من اعتبر الأداة هي الفيصل في تمييز الاستعارة من التشبيه ورأى أن " زيد أسد " استعارة و " زيد كالأسد " تشبيها ، قائلا : " إذا لم نجعل قولنا : " زيد أ سد " تشبيها مضمر الأداة ، استحال المعنـــى لأن زيدا ليس أسدا ، وإنما هو كالأسد في شجاعته ، فأداة التشبيه تقـــدر ههنا ضرورة كي لايستحيل المعنى ·
فإن قيل : وكذلك أيضا ، إذا لم تقدر أداة التشبيه في الاستعارة ، استحا ل المعنى ، لأنا إذا قلنا : " عجل القضيب " وأبطأ الدعص " ، فما لم نقـدر فيه أداة التشبيه استحال المعنى ·

قلت في الجواب عن ذلك : تقدير أداة التشبيه ، لابد منه في الموضعين لكي يحسن ا ظهارها في التشبيه ، دون الاستعارة

فابن الاثير ، في هذا المقام ، واقف مع الاستحسان ، لا مع الجواز فالبلاغة في الاستعارة ألا يظهر المستعار له ، لأنه إذا ظهر ، ذهب ماعلى الكلام من الحسن والرونق ·

" ألا ترى ، أنا إذا أوردنا هذا البيت الذي هو :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردًا وعضّت على العُناب بالبَرد

وجد عليه من الحسن والرونق ، مالاخفاء به ، وهو من باب الاستعارة ، فإذا اظهرنا المستعار له ، صرنا إلى كلام غث ، وذلك أنا نقول : فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خدا كالورد ، وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب ، بأسنان كالبرد ، وفرق بين هذين الكلامين للمتأمل واسع (١) .

وإذا كان ابن الاثير ، لم يتطرق في كلامه إلا إلى نوع واحد من الاستعارة ، هي الاستعارة التصريحية ، إلا أن عبدالقاهر قد وفى أنواعها حقها من الإيضاح والتحليل ·

وقد بانت بجهود هذا النفر من رجال البلاغة ، معالم الاستعارة ، واتضحت حدودها ، وصار من الممكن التميز بينها وبين التشبيه ·

---

(١) المثل السائر : ١/٣٥٩

فبين التشبيه والاستعارة درب من التدرج ، واضح المعالم ، جلـــى المظاهر ، يرتقى بك من الجميل إلى الأجمل ، ومن الرائع إلى الأشد روعة .

فللتشبيه أثر بليغ فى تصوير المعانى ، وتقريبها من الأذهان وإمتـــاع النفوس بها ، والارتفاع بالكلام من أرض الواقع إلى سماء الخيال ، وكلمـــا تدرج المرء فى هذا الارتفاع ، كان الكلام أوقع فى النفس ، وأعلق بالقلـــب ومن هنا كان الأثر أبلغ حينما تحذف أداة التشبيه مكن المشبه به ،وحينمـــا تحذف الأداة والوجه معا ، فليس سواء أن تقول : " إن الطفل كالزهـــرة فى اللطف وأنه زهرة فى اللطف ، وأنه كالزهرة وأنه زهرة ، فالصـــــور تتدرج بحسب مانحذف من الأدوات .

وهناك المرتبة الأرفع عن هذه وتلك ، حينما تستغنى عن أحد الركنيـن الأساسيين ، فتتناسى التشبيه وتلجأ إلى الاستعارة فتقول : فاح فى البيـــت عطر الزهرة اليانعة وأنت تريد مايحدثه الطفل من جو المرح فى البيت ، وهى صورة أعذب فى النفس ، من أن يورد الكلام على وضعه الأصلى .

فالاستعارة أبلغ من التشبيه ، وأعمق أثرا ، وأشد لصوقا بالنفـــس، وأكثر إثارة للخيال ، لما توحيه من قوة التماثل ، مما يقتضى موهبة أدبيـــة وفكرا عميقا ، وخيالا واسعا مجنحا ، وقدرة على التأمل والتـأويل والتوليـــد لنحصل على صورة التشبيه للخفى المستور الذى تضمنته الاستعارة .

اقســـام الاســـــــــتعارة

أقسام الاستعارة

تقسم الاستعارة أقساما عدة وذلك من أربعة وجوه :

الوجه الأول : من جهة حذف أحد طرفي الاستعارة ، فتقسم إلى قسمين : تصريحية ومكنية ٠

الوجه الثاني: من جهة جمود لفظ الاستعارة واشتقاقه ، فتقسم إلى قسمين : أصلية وتبعية ٠

الوجه الثالث: من جهة الملائم ، أي باعتبار جامع الاستعارة ، بحسب مناسبته للمستعار له ، أو المستعار منه ، أو مناسبته لكليهما معا ، أو عدم مناسبته لأي منهما ، فتقسم الاستعارة إلى ثلاثة أقسام : مجردة ومرشحة ومطلقة ٠

الوجه الرابع : من جهة الإفراد والتركيب ، فتقسم إلى قسمين : مفردة ومركبة ٠

الاستعارة التصريحية والمكنيــة

أشرنا عند تعريف الاستعارة إلى أنها تشبيه بليغ حذف أحد طرفيـــه فإذا كان الطرف المحذوف هو المشبه ، كانت الاستعارة تصريحية ، وإذا كـان المحذوف هو المشبه به كانت الاستعارة مكنية ٠

١ـ الاستعارة التصريحية :

هي ماصرح فيها بلفظ المشبه به ، دون المشبه ٠

نحو قول المتنبي في وصف دخول رسول الروم على سيف الدولة :

وأقبل يمشي في البساط فمادرى إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقى

في هذا البيت مجازان لغويان ، هما لفظا " البحر " والبدر ، اللذان استعملا في غير معناهما الحقيقي ٠

فالمتنبي يشبه سيف الدولة بالبحر ، لمشابهة لم يذكرها ، وإن كـــان اللفظ يوحي بها ، وهي الكرم والعطاء وسعة الثقافة ٠٠ كما يشبهه بالبــــدر إيحاء بجامع الرفعة والجمال والضياء ٠٠ في كل منهما ٠

والقرينة الدالة على الاستعمال المجازي ، هي عبارة " يمشي فـــي البساط " فالمشي في البساط ، يدل على أن " البحر " الذي يسعى رســول

الروم إليه ، و " البدر " الذى يرغب فى الارتقاء إليه ، ليساهما المعروفان على وجه الحقيقة ، وإنما المقصود بهما — على سبيل الاستعارة — سيف الدولة .

وقد صرح الشاعر بالمشبه به ، " البحر "و " البدر " ولم يذكر لفظ المشبه " سيف الدولة " ولذا سميت الاستعارة تصريحية .

مثال آخر ،

قال الشاعر ، في وصف مزين يمسك بيده موسى الحلاقة :

إذا لمع " البرق " فى كفه   أفاض على الوجه ماء النعيم

شبه الشاعر ، على سبيل الاستعارة ، الموسى بالبرق بجامع البريق واللمعان فى كل منهما ، لكنه حذف المشبه (المستعار له) وهو الموسى ، وأثبت المشبه به (أى المستعار منه) وهو البرق .

والذى دل على الاستعمال المجازى للبرق ، هو عبارة "فى كفه " فهى القرينه المانعة من إرادة المعنى الحقيقى ، لأن البرق لايكون فى الكف وإنما الذى يكون ، شىء يلمع كالبرق ، وهو الموسى ، الذى صنع نصلة من معدن لامع قاطع .

ومن أمثلة ذلك أيضا :

قول ابن المعتز :

جمع الحق لنا فى إمام   قتل البخل وأحيا السماحا

وقول المتنبى ، وقد قابله ممدوحه وعانقه :

فلم أر قبلى من مشى البحرُ نحـــوه ولا رجلا قامت تعانقـه الأُســـد

وقوله يمدح سيف الدولة :

أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفـــرٍ تصافحت فيه بيضُ الهند واللمـــم (١)

الاستعارة المكنية :

هى ماحذف فيها المشبه به ، ورمز له بشىء من لوازمه

نحو قول الشاعر :

واذا العناية لاحظتك عيونهـــا نم فالمخاوف • كلهـن امـــان

فالشاعر قد شبه العناية بالإنسان ، بجامع النظر فى كل منهما ، ثـم حذف المشبه به (أى المستعار منه) وهو الإنسان ، وأشار إليه بشىء من لوازمه ، وهو العيون • ولما كان المشبه به فى هذه الاستعارة محذوفـــا سميت هذه الاستعارة مكنية • فالعناية غدت مشخصة : إنسانا له عينـــان

---

(١) بيض الهند : السيوف ، واللمم ، جمع لمه : وهى الشعر المجاور لشحمة الأذن ، والمراد بها الرؤوس • يقول : ألا ترى الانتصار لذيذا إلا بعد معركة تتلاقى فيها السيوف بالرؤوس •

يراقب بها ، ويلاحظ بواسطتها حال من يهتم له ، فيسهر على راحتــــه ويعتنى به ، ويحافظ على سلامته .. لقد تجسد المعنوى ، وأصبح فى نطاق عالم الحس ، ليطمئن قلب المخاطب ويراه رؤية العين .

ومن أمثلة الاستعارة المكنية .

قول المتنبى :

فإن أمرض فما مرض اصطبــــارى وإن أحمم فما حم اعتزامـــــى

فالاصطبار والاعتزام ، تخالهما هنا من البشر ، يمرضان ويصابان بالحمى . فتشبيههما بالإنسان ، جرى على سبيل الاستعارة المكنية .

وقول أبى ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارهــــا ألفيتَ كل تميمة لاتنفــــع

فالموت أضحى حيوانا مفترسا ، استعير له الأظفار من الوحوش الكاسرة ،لتدل على قوة الفتك ، وتجعله ماثلا للعيان .

وقول الحجاج :

" إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها .. وإنى لصاحبها "

فقد أضحت رؤوس البشر لديه ثمارا ناضجة .. يسهل قطفها وما على الحجــاج إلا أن يقرر ، حتى تتدحرج الرؤوس بين يديه ، كما تتساقط الأثمار من فــــوق أغصانها .

وقول ابن الرومى :

ضحك الربيع الى بكا الديـــــم   وغدا يُسَوَّى النبت بالقمـــــم
والروض فى قطع الزبرجـــــد   والياقوت تحت لآلىء تـــوءم

يصف ابن الرومى الطبيعة ‥ فيبثها إحساسا بالحياة ، ويمنحها وجـــودا إنسانيا ‥ يبدو الربيع معه ، بأزهاره وورده مثال البشر والخير والفرح ‥‥ ويغدو المطر لديه ، مثال العطاء والطهارة ، فيغسل من مقلتيه الأرض ، ويعطيها الحياة ٠

وقول دعبل الخزاعى :

لاتعجبى ياسلم من رجـــل   ضحك المشيبُ برأســه فبكـى

فكما يفتر ثغر الانسان ، حين يبتسم ، عن أسنان لؤلؤية ‥ هكــذا يبدو المشيب ‥ بألوانه البيضاء ‥ فالشاعر شبه الشيب بالإنسان ، وحــذف المشبه به . وأتى بشىء من لوازمه وهو الضحك ، على سبيل الاستعـــارة المكنية ، ليوضح بحركة من حركات البشر ، لون الشعر ، ويطابق بين ضحك الشعر ، وبكاء صاحبه ‥

وقول أبى تمام يمدح شجاعة المعتصم ، على سبيل التجسيد :

لم يغزُ قوما ولـم ينهض إلى بلـد   إلا تقدمة جيش من الرعـــب

شبه أبو تمام الرعب بمظاهر القوة التى تخيف الأعداء ، ولم يذكر تلك المظاهـر

بل رمز إليها بمظهر من أقوى مظاهرها ، وهو الجيش ، بجامع تأثير كل منهما في الأعداء ، وهو شل حركة العدو المرعوب ، وإرباكه ، وتشويش تفكيره والقرينة هي "تقدم " .

وبذلك يكون الشاعر قد استعار للرعب ، وهو حالة نفسيه معنوية جيشا ذا قوة وبطش ، وعدد ، وعُدد .

ويقابل التجسيد . التشخيص :

نحو قول الشاعر :

تملُّ الحصون الشم طول نزالنا   وتلقى إلينا أهلها وتزول

فالملل والإلقاء والزوال (كفعل إرادى) من أفعال الإنسان .

فالشاعر قد شخص الحصون ، وجعلها مثل الإنسان ذات نفس :تسأم وتستسلم وتنهزم . مع أن المعنى الحقيقي هو تهدم الحصون أمام الفاتيحن بعد طول حصار .

ومن أمثلته قول المتنبي :

طلبتهم على الامواه حتى   تخوف أن تفتشه السحاب

وتسأل عنهم الفلوات ، حتى   أجابك بعضها ، وهم الجواب

فالشاعر جعل السحاب يخاف ، والصحراء تسأل فتجيب ، ..

ومن أمثلة التجسيد :

قوله تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون "

فشبه ضروب الشعر وأغراضه ــ على سبيل الاستعاره ــ بالأودية بجامع الغموض والخفاء مما يتطلب التأمل وإعمال الفكر ٠

وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

" لاتستضيئوا بنار المشركين "

أى لاتطلبوا الهداية والمشورة منهم ، فاستعار لذلك النار ، ليدل على أنهـــا تؤدى بهم إلى الاحتراق والهلاك " ٠

ومن أمثلة التشخيص ٠

قول ابن سنان الخفاجى :

ولم نر شيئا كان أحسن منظــرا   من الروض يجرى دمعه ،وهو يضحك

شبه الروض بالإنسان ، فاستعير له الضحك وجريان الدمع ٠

وقول أبى العتاهية :

أتتـــه الخلافـــة منقـاد ة   إليـــه تجرر أذيالهـــــــــــا

لكأن الخلافة عروس ، فى يوم زفافها ، تلبس ثوب الفرح الطويل

وقول محمود سامى البارودى :

إذا استل منهم سيد غرب سيفه   تفزعت الأفلاك والتفت الدهـــــر

فشخص الأفلاك (الدهر ، ونسب إليها صفات إنسانية ، كالخوف ، والترقب والالتفات ..

من كل ذلك نرى ، أن الاستعارة المكنية ، غنية بالخيال والمبالغة فالخيال فيها أظهر ، والمبالغة أوضح ، وهنا من جمال أسلوب الاستعارة حين يجسد ماتعتمل به النفوس من ضروب المشاعر ، وألوان الأخيلة والأفكار فيبث الحياة والحركة فى الجماد ، ويبدو الكون فى مشاركة وتفاعل .

تقسيم الاستعارة التصريحية لدى السكاكى الى تحقيقية وتخيلية ومحتمله لها :

قسم السكاكى الاستعارة التصريحية إلى ثلاثه اقسام :

١- تحقيقية ، وهى ماكان المستعار له فيها محققا حسا ، أو عقلا ، بأن كان اللفظ منقولا إلى أمر معلوم ، يمكن الإشارة إليه إشارة حسية أو عقلية .

فالأول ، كقول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف ... له لبد أظافره لم تقلم

فالمستعار له ، وهو الرجل الشجاع أمر محقق حسا .

والثانى ، نحو قوله تعالى : " إهدنا الصراط المستقيم "

فالمستعار له ، وهو ملة الاسلام ، أى شرعها ، أمر محقق عقلا .

٢- تخييلية : وهى ماكان المستعار له فيها ، غير محقق لاحسا ولاعقلا بل هو صورة وهمية محضة ، لايشوبها شىء من التحقيق بفرعيه .

نحو قول الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لاتنفع

فإنه لما شبه المنية بالسبع فى الاغتيال ، أخذ الوهم فى تصوير المنية بصورة السبع ، واختراع لوازمه لها ، فاخترع لها مثل صورة الأظفار ، ثم أطلق على هذه الصورة لفظ الأظفار • فتكون الأظفار عنده تصريحية تخييلية لأن المستعار له " الأظفار " صورة وهمية ، شبيهة بصورة الأظفار الحقيقية وقر ينتها إضافتها إلى المنية ، والتخيلية عنده قد تكون بدون الاستعارة بالكناية ، كأن تقول : " أظفار المنية الشبيهةبالسبع •• " فصرح بالتشبيه فلا مكنية فى المنية مع كون الاستعارة فى الاستعارة ، تخيلية •

٣ـ محتملة للتحقيقية والتخييلية •

نحو قول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعُرّىَ أفراسُ الصبا ورواحلُه (١)

أراد أن يبين ، أنه ترك ماكان يرتكبه زمن الحُب من الجهل والغى، وأعرض عن معاودة ماكان ينصرف إليه من اللهو ، فبطلت آلاته التى كان يستخدمها فيه • فشبه الصبا بجهة من جهات المسير ، كالحج ، والتجارة ، قضى منها حاجاته ، فبطلت آلاته ، تشبيها مضمرا فى النفس ، واستعار الجهة للصبا

---

(١) الصحو : أصله خلاف السكر ، والمراد : انتهى ميله ، أقصر عن الشيء امتنع عنه مع القدرة عليه ، والتعرية : الإزالة •

وحذف الجهة ، ورمز إليها بشيء من لوزامها ، وهي الأفراس والرواحل فالجهة هي المكنية عند الجمهور ، وإثبات الأفراس والرواحل لها تخييلية عندهم ، والأفراس والرواحل مستعملان في حقيقتها عندهم أيضا ، أما عند السكاكي ، فيجوز أن تكون الأفراس والرواحل استعارة تحقيقية ، إن اريد بها دواعي النفس وشهواتها والقوى الحاصلة لها ، استيفاء اللذات ، أو أريد بها أسباب اتباع الغي من المال والأعوان ، لتحقق معناها عقلا ، إن اريد بها الدواعي ، أو حسًّا إن أريد بها الأسباب ، وعلى هذا فالمراد بالصبا زمان الشباب .

ويجوز أن تكون تخييلية ، إن جعلنا الأفراس والرواحل مستعارة لأمر وهمي تخيّل للصبا من الصبوة ، ومعناها الميل إلى الجهل والفتوة. (١)

(١) مفتاح العلوم : ١٧٩ .

الاستعارة الأصلية والتبعيــة

تنقسم الاستعارة باعتبار جمود لفظها أو اشتقاقه الى قسمين : أُصليــة وتبعية •

١ـ الاســتعارة الأصلية :

هى ماكان اللفظ المستعار ، أو اللفظ الذى جرت فيه ، اسم جنس غير مشتق •

سواء أكان اسم ذات مثل " أسد "

أم اسم معنى مثل " القتل " و " الإذلال "

وسواء أكان اسم جنس حقيقه مثل " إنسان "

أم تأويلا ، فى الأعلام التى اشتهرت بنوع من الوصف ، كحاتم فى قولك : "مررت اليوم بحاتم " تريد رجلا كريما جوادا ، مثل حاتم •

" فكما أن " أسدا " يقصد به الحيوان المفترس حقيقة ، والرجل الشجــاع مجازا ، كذلك " حاتم " يشار به إلى الرجل الطائى المعروف بهذا الاســـم حقيقة ، ويقصد به "الجواد " مجازا •

ومن أمثلة الاستعارة الاصلية ،

قول الشاعر :

يا قمرا أبرزه مأتـــم   يندب شجوا بين أتـــراب

ففى هذه الاستعارة ، شبه الشاعر المرأة بالقمر ، بجامع الجمال فـى كل منها لكنه حذف المشبه ، وأبقى المشبه به ، على سبيل الاستعـــــارة التصريحية ، والقرينة " يندب " .

واذا تأملنا اللفظ المستعار وهو " القمر " رأيناه اسما غير مشتق .فدل ذلك على أن الاستعارة أصلية .

مثال آخر ،

قول المتنبى يصف قلما :

يمج ظلاما فى نهار ، لسانـــــه ويفهم عمن قال ، ماليس يسمـــع

ففى هذا البيت استعارات عدة

فقد شبه الشاعر القلم بالإنسان ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشىء مـن لوازمه ، وهو اللسان ، فالاستعارة مكنية .

واذا تأملنا اللفظ الذى جرت فيه الاستعارة ، وهو "اللسان رأيناه اسما جامدا ، فالاستعارة أصلية .

كما شبه مداد القلم بالظلام ، بجامع السواد فى كل ، ثم حذف المشبه وهو المداد ، وأبقى المشبه به ، على سبيل الاستعارة التصريحية ، ولفـــظ الظلام اسم جامد ، فالاستعارة ، إذا ، أصلية .

ثم شبه الورق الأبيض بالنهار ، بجامع البياض ، وحذف المشبه وهــو الورق وأبقى المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ، ولما كان اللفـــظ

المستعار وهو " النهار " اسما جامدا ، فقد سميت استعارة أصلية أيضا ٠

أمثلة أخرى ٠

قال المتنبي يخاطب سيف الدولة :

أحبك ياشمس الزمان وبـــدره وان لامني فيك السها والفرقـــد

وقال التهامي الشاعر راثيا ابنه الصغير :

يا " كوكبا " ما كان أقصر عمره وكذاك عمر كواكب الاسحـــار

وقال آخر عن الطيور المغرده :

حول أعشاشها على الأشجـــار قد سمعنا "القيان " وهي تغنى

٢ـ الاستعارة التبعية :

هي ماكان اللفظ المستعار ، أو اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسمـــا مشتقا (١) أو فعلا (٢) .

وسميت تبعية ، لانها تابعة لاستعارة أخرى في المصدر ، لان

---

(١) الاسماء المشتقة هي : اسم الفاعل ، واسم المفعول ، واسم الزمـــان واسم المكان ، واسم الآلة ، واسم التفضيل ، والصفةالمشبهة ٠

(٢) يرى بعض البلاغيين ، ومنهم السكاكي(مفتاح العلوم ص ١٨٠) أن الاستعارة التبعية هي مايكون المستعار فيها اسما مشتقا أو فعـــلا أو حرفا وأن المحتمل للاستعارة في الحروف متعلقات معانيها أي مايعبر عنها عند تفسيرها ٠ مثل قوله تعالى : " ولأصلبنكم في جذوع النخل " (سورة طه الآية ٧١)٠

الاستعارة تعتمد التشبيه ، والتشبيه يعتمد كون المشبة موصوفا ، والافعال والصفات المشتقة فيها ، بمعزل عن أن توصف ، والمحتمل للاستعارة في الأفعال والصفات المشتقة منها هو مصادرها .

ومن أمثلة الاستعارة التبعية ،

قول الشاعر فى وصف الزهر :

أنت فى خضراء ضاحكة   من بكاء العارض المهتن

شبه الشاعر ظهور الزهر بالضحك ، بجامع البيانى ، ثم حذف المشبه وأجرى الاستعارة فى لفظ مشتق ، وهو ضاحكة ، (من الضحك) والقرينه هنا خضراء (أى روضة خضراء) ولما كان اللفظ الذى جرت فيه الاستعارة اسما مشتقا ، كانت الاستعارة تصريحية تبعية .

ويجوز أن تجرى هذه الاستعارة فى القرينة (أى فى كلمة روضة خضراء) فنقول : شبه الروضة الخضراء بانسان ، وحذف المشبه به (وهو الإنسان) ورمز إليه ببعض لوازمه ، وهو ضاحكه ، فالاستعارة مكنية .

مثال آخر ،

قال البحترى يصف قصرا :

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت   شرفاته قطع السحاب الممطر

ففى هذه الاستعارة ، شبه الشاعر ملامسة شرفات القصر للسحاب بالعناق بجامع الالتصاق والاتصال فى كل منها ، وحذف المشبه ، وهو الملامسة

وجيء باللفظ الدال على المشبه به ، وهو مشتق من المعانقة . فالاستعارة تصريحية ، لأن لفظ المشبه به مصرح به ، والمشبه محذوف ، وتبعية لأن اللفظ الذى جرت فيه الاستعارة فعل . والقرينه هنا " شرفات ".

ويجوز أن تجرى هذه الاستعارة فى القرينة ، أى فى لفظ "الشرفات" فنقول : شبهت الشرفات بالإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وهو الإنسان ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو " المعانقة " ، فالاستعارة مكنية .

تنبيه :

كل استعارة تبعية ، يصح أن يكون فى قرينتها استعارة مكنية ، غير أنه لايجوز لنا إجراء الاستعارة فى كليهما معا بل فى واحدة منها

ومن أمثلة الاستعارة التبعية :

قوله تعالى : " ولما سكت عن موسى الغضب "(١)

فقد شبه انتهاء الغضب بالسكوت ، بجامع الهدوء فى كلٍّ ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

فاذا اجرينا الاستعارة على نحو مختلف ، فشبهنا الغضب بالإنسان بجامع ظهور الانفعال في كل ، فالاستعارة مكنية ، لأن المشبه به محذوف والمصرح به شيء من لوازمه .

---

(١) الاعراف : ١٥٤.

الاستعارة المجردة والمرشحة والمطلقة

تقسم الاستعارة ، باعتبار جامع الاستعارة ، إلى ثلاثه أُقسام :

مجردة ، ومرشحة ، ومطلقة

ويقصد بجامع الاستعارة ،مايتصل بالمشبة ، أو المشبه به ، أو ما يناسبهما ٠

١ــ الاستعارة المجردة :

هى التى يذكر معها صفات تلائم المشبه ، (أى المستعار له) وسميت مجردة ، " لتجريدها عن بعض المبالغة ، إذ يبعد المشبه ، بالمبالغـــــة عن المشبه به ، فيبعد دعوى الاتحاد ، الذى هو مبنى الاستعارة

ومن أمثلة الاستعارة المجردة ٠

قول سعيد بن حميد :

وعد " البدر" بالزيارة ليـــلا فإذا ما وفى قضيت نــــــذورى

الاستعارة هنا فى لفظ " البدر " ٠

فقد شبهت المحبوبة بالبدر ، بجامع الجمال فى كل منهما وحـــــذف المشبه ، وأبقى المشبه به ٠

والقرينة المانعة من إرادةالمعنى الأصلى ، هى " وعد " فالوعـــــــد إنما يكون ممن يعقل ، وهو هنا المحبوبة ٠

فالاستعارة تصريحية (لأنه صرح بلفظ المشبه به) ، أصليـــــة (لأن اللفظ المستعار جامد) ٠

واذا تأملنا هذه الاستعارة ، وجدنا أن الزيارة والوفاء بها ، أمــــور تلائم المشبه (أى المحبوبة) ، فالاستعارة مجردة ٠

ونحو قول الشاعر :

وليلة مرضت من كل ناحيـــة فما يضئ لها نجم ولا قمـــر

شبه الليل بالانسان المريض ، بجامع انطفاء معالم الحياة فى كل منهما ، ثـم حذف المشبه به ، وهو الانسان ، واتى بشى ء من لوازمه ، وهو المرض ، على سبيل الاستعارة المكنية ٠

ولما كان اللفظ المستعار فعلا ، فقد سميت الاستعارة المكنية ، تبعية ويلاحظ فى هذه الاستعارة ، وجود مايلائم المشبه (الليلة) وهو ذكر إضـاءة النجم ، والقمر . وهذه الملاءمة للمشبه هى شرط الاستعارة المجردة

أمثلة اخرى ٠

قال الشاعر

وغيبت النــوى الطيبـــات عنى فساعدت البراقع والحجـــالا

وقال مسكين الدرامى :

لحافى لحاف الضيف والبيــت بيته ولم يلهنى عنه غـــزال مقنـــع

٢ــ الاستعارة المرشحة :

وهى التى يذكر معها صفات تلائم المشبه به

سميت مرشحة ، لترشيحها وتقويتها بذكر الملائم • ويسمى الملائم :

ترشيحا •

نحو قول ابن زيدون :

يأيها الملك الذى فى ظلـــــة ريض الزمان فذل منه قيــــــاد

شبه الزمان بالحيوان أو البعير ، بجامع الجموح فى كل منهما ، ثم حـــذف المشبه به ، وجاء بشىء من لوازمه ، وهو الفعل المجهول " ريض " •

فالاستعارة مكنية تبعية •

ويلاحظ فى هذه الاستعارة ، وجود مايلائم المشبه به ، وهو القياد ، الـــذى يكون عادة للحيوان • فالاستعارة مرشحة •

مثال آخر:

قال تعالى " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم " (١)

فقد شبه " الاشتراء " بالاختيار ، بجامع الحصول على أفضـــل الفائدة فى كل ، وحذف المشبه ، وأبقى المشبه به على سبيل الاستعـــارة التصريحية • واللفظ المستعار " اشترى " فعل ، فهى استعارة تبعيــــة والقرينةالمانعة من إرادة المعنى الحقيقى هى " الضلاله " •

---

(١) البقرة : ١٦

إن المتأمل في هذه الاستعارة ، يلاحظ وجود أمور تلائم المشبه بـه هي : " الربح والتجارة " في قوله تعالى : " فما ربحت تجارتهم " فالاستعارة مرشحه ٠

ويعتبر الكلام المشتمل على الترشيح ، أقوى وأبلغ من المشتمل على الإطلاق والتجريد ، لاشتماله على تقويه المبالغة " وكمالها ، فإن المحور الذي يدور عليه الترشيح ، إنما هو تناسي التشبيه ، وادعاء أن) المشبه هو المشبه به نفسه ، وكأن الاستعارة غير موجودة ، ألا ترى أن الناثر أو الشاعر يجد في إنكارها ، ويخيل إلى السامع أن الأمر على مايقول حقيقة ، ومن ثم وضع أبو تمام كلامه في علو المنزلة ، والرقي في خلال الشرف ، وضعه في علو المكان حين يقول :

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة في السما

فلولا أنه قصد تناسي التشبيه ، وعقد العزيمة على جحده ، ولم يأل جهدا في إنكاره ، فجعله صاعدا في السماء من حيث المسافة المكانية ، لما كان لهذا الكلام وجه ٠

ونحو قول بشار :

أتتني الشمس زائرة   ولم تك تبرح الفلكا

وقول المتنبي :

كبرت حول ديارهم لما بدت   منها الشموس وليس فيها المشرق (١)

---

(١) علوم البلاغة : ٢٥٨٠

وقوله :

نامت نواطير مصر عن ثعالبهـــــا   وقد بشمن وما تفنى العناقيـــــد

وقول الرصافي :

متعطر فيها النسيم كأنمـــــــا   حبب النسيم على الشـذا مـزرور

وقول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أنـــــاس   كلاكله أناخ بآخرينــــــا (١)

٣ــ الاستعارة المطلقة :

هى التى خلت من الصفات التى تلائم المشبه ، و المشبه به ، أو هى التى ذكرت فيها صفات تناسبهما معا .

ومثال الاستعارة المطلقة ، الخالصة من كل قيد ،
قول قريط بن أنيف :

قوم إذا الشر ابدى ناجذيــه لهـم   طاروا إليه زرافات ووحدانـــــا

لقد شبه الشاعر الشر بالحيوان المفترس ، فأبقى المشبه وحذف المشبه به ، وجاء بشيء من لوازمه ، وهو " ناجذيه " فالاستعارة مكنية ،واللفظ المستعار جامد ، فالاستعارة أصلية .

---

(١) الكلاكل : جمع كلكل وهو الصدر ، والمعنى : أن عادة الدهر تكدير العيش فهو يصيب قوما بأذاه ، ثم ينتقل إلى إصابة غيرهم .

ولكن هذه الاستعارة خلت مما يلائم المشبه ، أو المشبه به ، فهي استعارة مطلقة .

ومثال الاستعارة المطلقة ، المرشحة — المجردة :

قول زهير :

لدى أسد شاكي السلاح مقـذف له لبد أظفـارة لم تقلـم

استعار الاسد ، للرجل الشجاع ، وقد ذكر مايناسب المشبه في قولة :

" شاكي السلاح مقذوف " وهذا هو التجريد . ثم ذكر ماينا سب المشبه بـه في قوله : " له لبد أظفاره لم تـقلم " وهذا هو الترشيح .

وقد اعتبر أهل البلاغة ، أن اجتماع الترشيح والتجريد يؤدي إلـى تعارضها ، وسقوطها معا ، فكأن الاستعارة لم تقترن بشيء ، وتكـون في رتبة المطلقة (١)

مثال آخر للاستعارة المطلقة ، الخالصة من الترشيح والتجريد

قول المتنبي ، يخاطب ممدوحه :

يابدر ، يابحر ، ياغمامة ياليث الشرى ، ياحمام ، يارجل

تنبيـه :

لايطلق الترشيح أو التجريد على الاستعارة ، إلا بعد استيفائها قرينتها

---

(١) جواهر البلاغة وصناعة الكتابة : ٣٩٣

لفظية كانت ، أم حالية ، فلا يقال عن قرينة التصريحية تجريدا ، ولاعـــن قرينة المكنية ترشيحا .

نوضح ، مانبهنا إليه ، بالمثل التالي :

قال أحدهم يصف امرأة جميلة زارته :

أتتنى الشمس زائـــــرة   ولم تك تبـــرح الفلكـــــا

فى هذا البيت استعارة : فقد شبه الشاعر المرأة با لشمس ، وحين قال : "أتتنى الشمس " فقد جاء بالقرينة ، وهى " أتتنى " ليمنع انصراف الذهن الى الشمس الحقيقية ، لأن الشمس لاتأتى ، فلا يقال أن كلمة " اتتنى " هى تجريـــد لأنها تلائم المشبه (المرأة) بل يجب أن ننظر فى الصفات الباقية مثــــل الزيارة (" للمشبه) والفلك (للمشبه به) .

ـ يعتبر البلاغيون الترشيح أبلغ من التجريد والإطلاق ، لاشتمالـــه على تحقيق المبالغة فى الاستعارة ، ولهذا كان مبنى الترشيح على أســـاس تناسى التشبيه ، والتصميم على إنكاره ، إلى درجة استعارة الصفة المحسوســة للمعنوى ، وجعلها كأنها ثابتة له حقيقة ، وكأن الاستعارة لم توجد أصلاوذلك كقول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهـــول   بأن له حاجـــة فى السمـــاء

فقد استعار لفظ العلو المحسوس لعلو المنزلة ، ووضع الكلام وضــع من يذكر علوا مكانيا ، ولولا أن قصده أن يتناسى التشبية ، ويصمم على انكاره

فيجعله صاعدا فى السماء ، من حيث المسافة المكانية ، لما كان لهذا الكلام وجه " (١)

ـ الاستعارة المطلقة أبلغ من المجردة ، لأن التجريد يذكر بالتشبيه فيضعف دعوى الاتحاد .

ـ يذكر العلوى صاحب الطراز ، الاستعارة المرشحة ، فيسميها " الاستعارة الموشحة " ويعلل هذه التسمية بقوله : " إذا قلت " رأيت أسدا وافر الأظفار ، منكر الزئير ، دامي الأنياب " فقد ذكرت اللفظ المستعار ، وذكرت خصائصه ، فوشحت هذه الاستعارة ، وزينتها بما ذكرته من لوازمها وأحكامها الخاصة ، أخذا لها من " التوشيح " ، وهو ترصيع الجلد بالجواهر واللآلئ ، تحمله المرأة من عاتقها إلى كشحها ، وهذا هو الوشاح ، واشتقاق " التشويح " للاستعارة منه . ومثالها قوله تعالى : " اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم " (٢) فلما استعار لفظ الشراء ، عقبه بذكر لازمه وحكمه ، وهو " الربح " توشيحا للاستعارة . ولو قال : فهلكوا أو عموا وصموا عوض قوله " فما ربحت " لكان تجريدا ، ولم يكن توشيحا

---

(١) تهذيب الايضاح / : ٢/٢١٧

(٢) البقرة : ١٦ .

الاســـتعارة التمثيلية

تقسم الاستعارة من جهة الإفراد والتركيب إلى قسمين : مفردة ومركبـة

١ ـ الاستعارة المفردة ، وهى ماكان المستعار فيها لفظا مفردا ، كمـــا هى الحال فى الاستعارة التصريحية والمكنية ، وقد سبقت الإشـــارة إليهما

٢ ـ الاستعارة التمثيلية أو المركبة

وهى الاستعارة التى يكون المستعار فيها مركبا ، وقد عرفهـا البلاغيون بالقول : " إنها تركيب استعمل فى غير ماوضع له ، لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى "

ومن أمثلتها ،

قول المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريـــــــض يجد مرا به الماء الـــــــزلالا

المعنى الحقيقى لهذا التركيب : أن حاسة الذوق عند الإنسان المريض مطبوعـــة بالمرارة ، فأى سائل يدخل فمه ، يلقاه مرا ، حتى لو كان ماء عذبا ٠ أى أن حاسة الذوق عنده معطلة ، بفعل المرض ، فهو بمثابة إنسان معدوم الـــذوق لايستطيع أن يميز بين طعم وآخر ٠٠ فكلهـا لديه سواء : مُرة

لكن هذا المعنى استعمل استعمالا مجازيا للإنسان الذى فقد نعمـة الذوق الأدبى ، فلم يقدر الشعر الرائع الجميل حق قدره فالعلاقة بيــــــن المعنيين علاقه مشابهة ٠

وقد حذف المركب المشبه ، وهو الإنسان الذى لايميز جيد الشعر من رديئه وأبقى التركيب الذى يمثل المشبه به ، وهو الإنسان المريض فى ذوقه ، لايقدر على تمييز مايدخل فمه من ألوان الأطعمة ·

فهذا التركيب يسمى استعارة تمثيلية

مثال آخر ،

قال الشاعر :

ونار لو نفخت بها أضاءت	ولكن أنت تنفخ فى رماد
لقد أسمعت لو ناديت حيا	ولكن لاحياة لمن تنادى

ذكر الشاعر فى البيت الأول ، حال من ينفخ فى الرماد لايقادذ النار ، مع عدم توافر القدرة على ذلك · يريد أن يشبه بهذه الحال ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، حالا أخرى لم يذكرها ، وهى حال من يريد استصلاح رجل فاسد الطوية ، فيعظه ، وينصحه ، ولكن الرجل لاينتصح ولايتعظ ، ويسترسل فى غيه ، لايرعوى ·

فالذى يعالج الفاسد ولاتثمر معه المعالجة ، كالذى ينفخ فى رماد تذهب جهودة أدراج الرياح ·

وكذا الأمر مع البيت الثانى فالشاعر يشبة حال الإنسان الرافض للنصيحة ، بحال الميت ، لايسمع النداء ، لأنه غير موءهل لسماعه

ومن أمثلة الاستعارة التمثيلية

قول الشاعر ؛

ومن ملك البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

(تقال لمن ورث المال بدون جهد ، فبعثره بدون حساب)

وقول الشاعر :

عاد السيف إلى قرابه وحل الليث منيع غابه

(تقال لمجاهد عاد إلى وطنه بعد غياب)

وقول المتنبى :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول

(تقال للقادر على الأمور الكبيرة ، حين تجبهه الأمور الصغير)

وقوله ايضا :

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيما تصيدا

(تقال لمن أساء اختيار موكله ، فخان موكله الأمانة)

ومن الأمثال العربية :

قولهم : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن .

(تقال لمن يتعجل الأمر ، قبل أن يعد له عدته)

وقولهم : أنت ترقم على الماء .

(تقال لمن يجد فى طلب المستحيل)

الاستعارة التمثيلية ، بين تشبيه التمثيل والتشبيه الضمني

قد يخلط البعض الاستعارة التمثيلية ، بتشبيهالتمثيل والتشبيه الضمني ، لذلك يقتضي الانتباه الى مابينها من فروق ٠

فتشبيه التمثيل ، يقوم على وجود تركيبين متشابهين صراحة ٠

نحو قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه

فالصورة المركبة الأولى ، وتمثل جو المعركة القاتم ، الذى تلمع فيه السيوف ، وتتطاير الشرارات المنبعثة منها ، هى المشبه ٠

والصورةالمركبة الثانية ، وتمثل الليل الملىء بالكواكب التى تتساقط ، هى المشبه به ٠

فطرفا التشبيه المركبان ملحوظان لفظا ٠

أما التشبيه الضمنى فيقوم — هو أيضا — على وجود تركيبين متشابهين لكن تشابهما ملحوظ ضمنا ، لاتصريحا ٠

نحو قول أبى تمام :

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

فالصورة المركبة الأولى ، وتمثل الحسد الذى يأكل قلب صاحبه ، هى المشبه ٠

والصورة المركبة الثانية ، وتمثل النار التى تأكل بعضها بعضا حتى

تفنى ، هي المشبه به •

فطرفا التشبيه المركبان ، ملحوظ تشابهها ضمنا ، لا لفظا •

أما الاستعارة التمثيلية ، فتقوم أيضا على صورتين مركبتين ، متشابهتين ضمنا ولكن عبارة الاستعارة لاتتضمن وجود المشبه ، أى أن الحالة الأصلية لاتـرد فى الاستعارة التمثيلية ، وإنما ترد العبارة المستعارة التى تشبه بها

نحو قول الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويُنكر الفم طعم الماء من سقم

فى هذا القول استعارتان تمثيليتان ، تنهضان على تشبيه حالة لم تذكر وهى حالة الإعراض عن رؤية الحق ، مرة ، بحالة الأرمد الذى يفقد النظر فلا يرى ضوء الشمس .. ومرة بحالة المريض ، الذى يفقد الإحساس فلا يقدر على تذوق الأشياء •

ونلحظ فى هاتين الاستعارتين التمثيليتين ، أن احد طرفى التشبيه فى كل منهما ، وهو المشبه ، محذوف •

بلاغـــة الاســتعارة

يكثر البلاغيون من ذكر فضل الاستعارة ،وعظيم مكانتها فى عالـــــم البيان الساحر ، والتصوير الباهر ..

فهى على حد تعبير ابن رشيق : " أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع وليس فى حلى الشعر أعجب ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلـت موضعها "(١)

وهى عند الجرجانى : " أمد ميدانا ، وأشد افتنانا ، وأكثر جريانهـــا وأعجب حسنا واحـسانا ، وأوسع سعة ، وأبعد غورا ، وأذهب نجدًا فى الصناعة وغورا ، من أن تجمع شعبها وشعوبها ، وتحضر فنونها وضروبها ، نعم ،وأسحـر سحرا ، وأملأ بكل مايملأ صدرا ، ويمتع عقلا ، ويؤنس نفسا ، ويوفر أنســــا وأهدى إلى أن تهدى إليك أبدا عذارى ، قد تخير لها الجمال ، وعنى بها الكما ل وأن تخرج لك من بحرها جواهر ، إن باهتها الجـواهر ، مدت فى الشــــــرف والفضيلة باعا لايقصر ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر ، وردت تلك بصفرة الخجل ، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر ، وأن تثير من معدنها تبـــرا لم تر مثله ، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلى ، وتريك الحلى الحقيقـــى ، وأن تاتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا وفضائل لها من الشـــرف

---

(١) الطراز للعلوى : ٢٣٨/١.

الرتبة العليا ، وهى أجل من أن تأتى الصفة على حقيقة حالها ، ونستوفى جملة جمالها ٠

ومن الفضيلة الجامعة فيها ، أنها تبرز هذا البيان أبدا فى صـــــــــورة مستجدة ، تزيد قدرة نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وانك لتجـــــــد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة فى مواضع ، ولها فـــى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقـــــــــــة وخلابه مرموقة ، ومن خصائصها التى تذكر بها ، وهى عنوان مناقبها ، أنهـــــــا تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحـــدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد انواعا من الثمر ٠

وانا تاملت أقسام الصنعة التى بها يكون الكلام في حد البلاغة ومعهـــا يستحق وصف البراعة وجدتها تفتقر الى أن تعيرها حلاها ، وتقصر عــــن أن تنازعها مداها وصادفتها نجوما هى بدرها ، وروضا هى زهرها ، وعرائس مالـــم تعرها حليها ، فهى عواطل ، وكواعب مالم تحسنها ، فليس لها فى الحســـــن حظ كامل ، فانك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والاعجم فصيحا ، والاجســـام الخرس مبينه ، والمعانى الخفية بادية جليه ٠ وانا نظرت فى امر المقاييـــــس وجدتها ولا ناصر لها اعز منها ولا رونق لها مالم تزنها وتجد التشبيهات علـــــى الجملة غير معجبة مالم تكها ، ان شئت ارتك المعانى اللطيفة ، التى هى مـــن خبايا العقل ، كانها قد جسمت حتى راتها العيون ، وان شئت لطفـــــــت

الأوصاف الجسمانية ، حتى تعود روحانية لاتنالها الا الظنون " (١)

فالاستعارة عالم من الابداع البيانى ، اتخذه الشعراء طريقا الى القول الجميل ، والخيال المثير ، والعاطفة الفياضة والفكر المحلق .

فبالاستعارة يتجسد المعنوى ، حتى يغدو كتلة من عالم المحسوسات تراه العين ، وتسمعه الأذن ، ويشمه الأنف ، ويذوقه اللسان ، وتتقراه اليدان بلمس .

وبالاستعارة تتلطف الاجسام ، وترتفع الى المعنوى ، ويتحول الظاهر للعيان ، خفيا تطلع عليه النفس ، ويعتبر من مكنونات القلب .

وبالاستعارة يشخص المادى ، فتدب الحياة فى الأرض والجبال والبحار والسهول والانهار ، والسماء والنجوم والشمس والقمر ، وتغدو الطبيعة كلها ممتلئة بالحياة ، تشاركنا مشاعرنا ، فتفرح لفرحنا ، وتحزن لاحزاننا ، وينبض قلبها مثلما تنبض قلوبنا . .

وتعد الاستعارة من أهم اساليب الكلام ، وعليها المعول فى التوسع والتصرف ، وبها يتوصل الى تزيين اللفظ ، وتحسين النظم والنثر (٢)

---

(١)

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه : ٤٤٢

وسر بلاغة الاستعارة آت من ناحيتين : الاولى من ناحيـــة اللفظ ، والثانية من ناحية الابتكار ٠

أما من جهة اللفظ فلان " تركيبها يدل على تناسي التشبية ويحملـــك عمدا على تخيل صورة جديدة ، تنسيك روعتها ماتضمنه الكلام من تشبيه حفـــي مستور "

انظر الى قول البحتري في الفتح بن خاقان :

يسمو بكف على العافين حانيـــة تهمي وطرف الى العلياء طمـــاح (١)

ألست ترى كفه ، وقد تمثلت في صورة سحابة هتانة ، تصب وبلها على العافين السائلين ، وان هذه الصورة قد تملكت عليك مشاعرك ، فاذهلتك عما اختبـــأ في الكلام من تشبيه ؟

وانا سمعت قوله في رثـاء المتوكل وقد قتل غيلة :

صريع تقاضاه الليالي حشاشـــــة يجود بها والموت حمر أظافـــره

فهل تستطيع ان تبعد عن خيالك هذه الصورة المخيفة للموت ، وهي صـــــورة حيوان مفترس ، ضرجت أظافرة بدماء قتلاه ؟ (٢)

---

(١) العافين : سائلي المعروف ، وحانية : عاطفة شفيقة ، وتهمي :تسيل والطرف : البصر ، والطماح : الذي يغالي في طلب المعالي والسعي وراء ها

(٢) البلاغة الواضحة : ١٠٥٠

وبيت بكت فيه الحياة شقـــاوة ... ولاحت بوجه العابس المتجهـــم
به ألقت الايام اثقـــال بؤسهـــا ... فهاجت به الاحزان فاغرة الفـــم

لقد سلك الشاعر في هذين البيتين ، سبيل الاستعارة ، فجسد في بيت اليتيم كل معاني البؤس والشقاء ، اذ جعل الحياة فيه تبكي ، وتبدو عابســة متجهمة الوجه كما جعل الأيام ترمي باثقال البؤس فيه ، فتحرك احزان القلــب هائجة كالحيوان الفاغر الفم ...

وفي هذا الاسلوب تصوير بليغ ، يؤثر في نفس السامع ، ويثير خيالــه ويستدر شفقته ورحمته ، هذا ما أفادته الاستعارات التي جاء بها الرصافي ،ولــو أنه سلك سبيل الحقيقةوقال : " انه بيت بؤس وشقاء " لما بلغ من التاثيـــر ما بلغة التصوير بالاستعارة .

وجمال الاستعارة يظهر في أنها تصور المعنى تصويرا يحقق غرض القائـل مع مبالغة مقبولة ، وتاثير في نفس السامع ، واثارة الخيالة دون اطالة أو اطناب

لهذا اعتبرت الاستعارة بجكميع ضروبها ، وتعدد مذاهبها واساليبهـــا أعلى مرتبة من التشبيه ، واقوى في المبالغة من التشبية البليغ ، لانه وان قام على ادعاء أن المشبه والمشبه به سواء ، لايزوال فيه التشبيه)ملحوظا بخـلاف الاستعارة ، لما فيها من تناس للتشبيه وادعاء الاتحاد بين طرفية كانهمـــا شيء واحد .

فانظر مثلا إلى قول المتنبي :

ترنو الى بعين الظبي مجهشة وتمسح الطل فوق الورد بالعنم

فانظر الى محبوبة الشاعر ، وقد تمثلت له غزالا ينظر اليه ، وقد همت بالبكاء تمسح دمعا كالندى ، فوق خدود كالورد ، باصابع لينه تشبه اغصان اشجار العنم

ولكن الشاعر ارتفع بخيالة ، فلم يعبر عن الصورة بالتشبية ، بل عمد بالاستعارة ــ الى المبالغة ، فتمثلت له محبوبته غزالا ، وسما به ابداعة فرأى العنم يمسح الندى الساقط على الورد ٠

اما بلاغة الاستعارة من حيث الابتكار وروعة الخيال ، وماتحدثة من أثر فى نفوس سامعيها ، فمجال فسيح للابداع ، وميدان لتسابق المجيدين من فرسان الكلام ٠

انظر الى قوله عز شأنه فى وصف النار " تكاد تميز من الغيظ ، كلما القى فيها فوج ، سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير " (١) ترتسم امامك النار فى صورة مخلوق ضخم بطاش ، مكفهر الوجه ، عابس ، يغلى صدره حقدا وغيظا ٠

---

(١) الملك : ٨ ٠

ثم انظر الى قول أبى العتاهية فى تهنئة المهدى بالخلافة :

اتته الخلافـــة منقـــادة اليـــه تجـــرر أذيالهـــا

تجد أن الخلافة غادة هيفاء مدلله ملول ، فتن الناس بها جميعا وهى تأبـــى عليهم وتصد اعراضا ، ولكنها تاتى للمهدى طائعة فى دلال وجمال ، تجـــر أذيالها تيها وخفرا ٠

هذه صورة لاشك رائعة ، ابدع أبو العتاهية تصويرها ٠ وستبقـــى حلوة فى الاسماع ، حبيبة الى النفوس ، مابقى الزمان "

ثم انظر هذه المبالغة فى قول البارودى :

اذا استل منا سيد غرب سيفـــه تفزعت الأفلاك والتفت الدهـــر

الا ترى أن الرعب قد حل فى المكان والزمان ، فالاجرام السماوية والكواكـــب والنجوم والشمس ، والقمر ، كلها قد دب فيها الهلع والخوف ، كما اهتز ، الدهـــر وادار ناظرية دهشة وذهولا ٠

ومن الاستعارات الجميلة ، قول الشريف الرضى فى الوداع ٠

نسرق الدمع فى الجحيوب حيـــاء وبنا مابنا من الاشـــــواق

هو يسرق الدمع ، حتى لايوصم بالضعف والخور ، ساعة الوداع ، وقد كـــان يستطيع أن يقول : " نستر الدمع فى الجيوب حياء " ولكنه يريد أن يسمـــو

الى نهاية المرتقى في سحر البيان ، فان الكلمة " نسرق " ، ترسم في خيالك صورة لشدة خوفه ، أن يظهر فيه اثر للضعف ، ولمهارته وسرعته في إخفاء الدمع عن عيون الرقباء (١)

مثال آخر ،

قول الشاعر إيليا أبي ماضي ، في قصيدته " المساء " (٢) مخاطبا سلمى

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين

والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين

والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين

لكنا عيناك باهتتان في الأفق البعيد

سلمى ! بماذا تفكرين ؟

سلمى ! بماذا تحلمين ؟

أرأيت أحلام الطفولة تختفي خلف التخوم ؟

أم أبصرت عيناك أشباح الكهولة في الغيوم ؟

أم خفت أن يأتي الدجى الجاني ولا تأتي النجوم ؟

انا لا أرى ماتلمحين من المشاهد ... إنما

اظلالها في ناظريك

تنم ياسلمى عليك

في هذه الابيات ، يشخص أبو ماضي الطبيعة ، ويبث فيها حياة إنسانية مميزة

---

(١) البلاغة الواضحة : ١٠٦

(٢) مختارات من الشعر العربي الحديث : ١٢١ .

تغدو معها الغيوم مثقلةبمشاعر الخوفوالهلع ، تجرى مسرعة ٠٠ والشمس مريضة ، تشكو من الصداع ٠٠ (البحر ، هذا الهادر الصاخب ، ساكنا هادئا متأملا ، متعبدا ٠٠٠

وسلمى ، المحبوبة ، تنظر الى الأفق البعيد ٠٠ ربما هى تفكر ، وربما هى تحلم ٠٠ لكنها فيتفكيرها ، وأحلامها ، تلتقى مع الطبيعة وتتبادل معها العاطفة ، فتتوجه هذه لتلك ٠٠ وتشاطرها تلك المشاعر والمخاوف والأحزان ٠٠٠

إنها ، خصوصية الرومنطيقيين ، الذين يفنون فيالطبيعة ويتوحدون من خلالها ، فإذا أصابهم حزن ، اسودت له السحب ، وان ألم بهم وجع ، عصبت الشمس جبينها ألما ٠٠ وان نزلت بهم محنة غدا البحر ساهم الطرف شاردا ، غارقا فى الهموم ٠

ويحاول الشاعر أن يكتنه عمق مايجول فى نفس سلمى ، بل يحاول أن يتخيل مايرتسم أمام عينيها من صور ٠٠

فماذا ــ يظنها ــ ترى ؟

يجسد الشاعر المعنوى ، فتتراءى له أحلام الطفولة ، وهى تغادر إلى البعيد الى حيث تزول عن مجال الرؤية ، وتضمحل ٠٠ لتظهر محلها ، أشباح الكهولة من خلال السحب ، ترمى بظلها الثقيل ٠٠

كأن الجميل ، البرىء ، العذب ، الطيب يمضى ٠٠ ليحل مكانه القبيح ، المسىء ، الكالح ، الشرير ٠

كأن صور الحياة الحلوة ترحل ، ويجىء بدلا منها ، صور الانتهاء والفناء .

أهو قلق الانتقال عبر مراحل الحياة ؟ .. أهو قلق انتظار الظلم يجىء غير مصطحب معه بصيص نور ؟ .. تماما ، كما نخاف أن يجئ الليل ولا يصحب معه قناديل المساء ..

إن الشاعر لايستطيع أن يرى ماتراه ، لكنه يستطيع أن يستنطق ما يتبدى له من حوالها وهى أحوال نشهد له ، بما يذهب اليه ..

تلك صور رسمها أبو ماضى ، مجازا علاقتهالمشابهة ، استعارات جميلة رائعة ، فإذا السحب تركض ، وأحلام الطفولة تختفى ، وأشباح الكهولة تظهر للعين ، والدجى يأتى ، والنجوم تتخلف عن المجىء ، والظل يفشى أسرار المكنون ...

وهذا وجه رائع ، من وجوه بلاغة الاستعارة ، وغنى اساليبها بالتعبير من الجمال ، حين يمسك بها خيال شاعر مبدع .

و بعد

فقد رأينا اساليب البيان فى الاستعارة ، فما هى أساليب هذا الفن فى الكناية ؟

الحقيقة والمجـــاز

أولا : الحقيقـــة :

الحقيقة في البيان قسمان : لفظية وعقلية ٠

١ــ الحقيقة اللفظية : هى اللفظ المستعمل فى المعنى الذى وضع له أصلا٠ كقولنا : " الشمس " ونحن نقصد بها الكوكب المضيء ، المعروف أيضا بهـذا الاسم الذى يشرق كل صباح ، ويغيب كل مساء ٠

وقد كثر كلام أهل اللغةوالبلاغة على الحقيقة ، وتحديد مفهومها ولا يخرج كلامهم عن هذا المعنى الذى اشرنا اليه ، إلا فى تفصيلات لاتغير من طبيعـة دراستنا ٠

فعبد القاهر يعرفها بانها " كل كلمة أريد بها ماوقعت له فى وضع واضـع ــ وإن شئت قلت : فى مواضعة ــ وقوعا لاتستند فيه إلى غيره ٠٠ وهـــذه عبارة تنظاالوضع لأول وماتخر عنه ، كلغة تحدث فى قبيلة من العرب ، أو فـى جميع العرب ، أو فى جميع الناس مثلا ، أو تحدث اليوم ويدخل فيها الأعـــلام منقولة كانت ، كزيد وعمرو ، أو مرتجلة كغطفان ٠ وكل كلمة استئونف لهـــا على الجملة مواضعة ، أو ادعى الاستئناف فيها "

" وإن أردت أن تمتحن هذا الحد ، فانظر إلى قولك : " الأسد " تريد به السبع ، فإنك تراه يؤدى جميع شرائطه ، لأنك قد أردت به ، ماتعلـــم

أنه وقع له ، فى وضع واضع اللغة • وكذلك تعلم ، أنه غير مستند فى هـذا الوقوع ، إلى شيء غير السبع • أى لايحتاج أن يتصور له أصل أداة إلى السبع من أجل التباس بينهما وملاحظة • وهكذا الحكم ، إذا كانت الكلمة الحادثة — هو وضعت اليوم متى كان وضعها — كذلك ، وكذلك الأعلام ومعلوم أن الرجل يواضع قومه فى اسم ابنه ، فإذا سماه زيدا ، فحاله الآن كحال واضع اللغة (١)

والسكاكى يعرفها : بأنها " الكلمة المستعملة فيما هى موضوعة له من غير تأويل في الوضع " •• ولك أن تقول : " الحقيقة هى الكلمة المستعملة ، فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة " (٢)

أما ابن الأثير ، فيرى أن الحقيقة ، هى اللفظ الدال على موضوعه الأصلى والحقيقة اللغوية ، هى حقيقة الألفاظ فى دلالتها على المعانى (٣)

٢— الحقيقـة العقلية :

هى إسناد المعنى إلى صاحبه الحقيقى • كأن تقول : " زأر الأسـد" فتسند الزئير إلى صاحبه الحقيقى ، وهو الأسد •

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٢٤

(٢) مفتاح العلوم : ١٩٦

(٣) المثل السائر : ٥٨/١٠

ثانيا : المجـــــاز :

المجاز لغـــة واصطلاحـــا :

المجاز مشتق من جاز الشيء يجوزه ، إذا تعداه . فالمجاز إذاً ، اســـم للمكان الذي يجاز فيه ، كالمعاج ، والمزار ، وأشباههما . وحقيقته ، هـــي الانتقال من مكان إلى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محل إلى محـــل كقولنا " زيد أسد " فإن زيدا انسان ، والأسد هو هذا الحيوان المعروف،وقد جزنا من الإنسانية إلى الأسدية : أي عبرنا من هذه إلى هـذه ، لوصلة بينهمـا وتلك الوصلة هي صفة الشجاعة .. وقد يكون العبور لغير وصلة ، وذلك هـــو الاتساع ، كقولهم في كتاب " كليلة ودمنة " : قال الأسد ، وقال الثعلب" كلمة جزت بها ماوقعت له في وضع الواضع ، مالم توضع له . من غير أن تستأنف فيها وضعا لملاحظةبين ماتجوز بها إليه ، وبين أصلها الذي وضعـــت له . في وضع واضعها فهي مجاز " (١)

فكل مخلوق له اسم يستدل به عليه ، فالاسم الموضوع بإزاء المسمـــــى هو حقيقة له ، فإذا نقل إلى غيره ، صار مجازا .

ومثال ذلك إذا قلنا : " بحر " أردنا به هذا الماء العظيم المالح ، الـــذى يحوى حيوانات ونباتات وكنوزا لاحصر لها .. فإذا أردنا به " الرجل الجـواد " صار مجازا .

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٢٥.

وإذا قلنا " الشمس " وأردنا بهذا اللفظ ، الكوكب العظيم الذي يمنحنا الإشراق والضوء ، كان هذا الاسم له حقيقة ، فإذا أردنا به " الوجه المليح " صار اللفظ مجازا •

والمرجع في هذا ، إلى أصل اللغة التي وضعت فيها الأسماء على مسمياتها " ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمى شمسا ، ولا أن الرجل الجواد يسمى بحرا ، وإنما أهل الخطابة والشعر توسعوا في الأساليب المعنوية ، فنقلوا الحقيقة إلى المجاز • ولم يكن ذلك من واضع اللغة في أصل الوضع ، ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه في التوسعات المجازية •

هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئا لم يكن قبله : فمن ذلك أنه أول من عبر عن الفرس بقولة : " قيد الأوابد " ولم يسمع ذلك لأحد من قبله

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يوم حنين : " الآن حمى الوطيس " وأراد بذلك شدة الحرب : فإن الوطيس في أصل الوضع هو التنور فنقل إلى الحرب استعارة ، ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه ، من غير النبى صلى الله عليه وسلم

والمجاز نوعان :

١ـ المجاز العقلى :

وهو إسناد الفعل أو ما فى معناه ، إلى غير صاحبه ، لعلاقة مع قرينه مانعة من إرادة الإسناد الحقيقى .

نحو قولك : يخصب العز السيوف بالدم

فالعز لايخصب ، ولكنه سبب القوة التى تدفع الأبطال إلى القتال ، وتخصيب السيوف . ففى هذا مجاز ، لكنه ليس فى ذات اللفظ " العز " فإن العز مستعمل بمعناه الحقيقى ، ولكن فى إسناد الفعل " يخصب " إليه .

ومثل ذلك قوله تعالى : " فما ربحت تجارتهم " (١) ففى هذه الاية مجاز لكنه ليس فى لفظ " تجارة " فالتجارة هنا مستعملة فى معناها الحقيقى ولكن فى جعلها فاعلا لربح .

وقد سمى عبدالقاهر هذا النوع من المجاز " المجاز الحكمى " (٢)

٢ـ المجاز اللفظى (أو اللغوى) :

وهو استعمال اللفظ فى غير ماوضع له أصلا ، لعلاقه مع قرينة مانعة

---

(١) البقرة : ١٦

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٢٧ .

من إرادة المعنى الحقيقى . وهذا المجاز يكون فى المفرد ، كما يكـــون فـــى التركيب .

وهو نوعان : المجاز المرسل والاستعارة

فالمجاز المرسل ، نحو قول البحترى :

إذا العين راحت وهى عين على الجوى فليس بسر ماتسر الأضالــــــع

ومعنى البيت : أن عين الانسان إذا أصبحت بسبب بكائها جاسوسا ، على مـا فى النفس من وجد وحزن ، فإن ماتنطوى عليه النفس منها ، لايكون ســــرا مكتوما فأنت ترى أن كلمة " العين " الأولى استعملت فى معناها الحقيقـــى وأن كلمة " عين " الثانية استعملت فى الجاسوس ، وهو غير معناها الأصلـى والعلاقة بين العين والجاسوس هى الجزئية وليست المشابهة ، فقد أطلــــق الشاعر لفظة " العين " وهى جزء من " الجاسوس " وأراد بها الكل . أمـا القرينة ، فهى " على الجوى "

والاستعارة ، نحو قولك : " جاء القمر يتثنى "

فلفظة " القمر " هنا ، لم تستعمل فى المعنى الذى وضعت له أصلا ، أى للدلالة على ذلك الكوكب الذى يضىء فى الليل ، فيزين بوجهه السماء ، وإنمــا استعملت فى غير معناها الحقيقى ، لتدل على صاحبة الوجه المليح

والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقى ، هى " يتثنى " التى تدل على أن المقصود بالقمر هنا ، انسان . القمر لاينعطف فى سيره ، ويتمايــل كما تفعل المرأة الحسناء المغناج .

المجـــاز العقـــــلى

قلنا إن المجاز العقلى ، هو إسناد الفعل ، أو ما فى معناه ، إلـــى غير صاحبه ، لعلاقه مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقى .

ويقصد بعبارة " وما في معناه " : المصدر واسم الفاعل ، واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل .. وهى مشتقاتتعمل أحيانا عمل الفعل .

علاقات المجاز العقلى :

اما العلاقة المانعة من إرادة الإسناد الحقيقى فأشهرها ست وهى : المكانية ، والزمانية ، والسببية ، والمصدرية ، والفاعلية ، والمفعولية .

١ــ المكانية :

وفيها يسند الفعل ، أو مافى معناه ، إلى مكان المسند اليه

نحو قوله : تجرى الأنهار .

فالفعل " تجرى " أسند إلى " الأنهار " والانهار لاتجرى ، وإنما هــــى أمكنة ، لما يجرى ، للمياه .. والعلاقة التى سوغت هذا الإسناد ، هــــى المكانية والقرينة التى منعت من اعتبار هذا الإسناد حقيقيا إدراكا بالعقـــــل أن المكان لايجرى ، وإنما الذى يجرى ، هو المياه التى تحل فيه .

ونحو قولك : هذه حديقة غناء •

فقد اسندنا كثرة الغناء إلى الحديقة ، وهنا مجاز غير حقيقى ، والـــذى سوغ هذا الإسناد ، العلاقة المكانية ، فالحديقة هى مكان تألف إليه الطيــور المغردة ، وتجتمع فيه العصافير المزقزقة ، وتتغلغل بين أغصانه الحساسيــن المنشدة ، تغنى كلها لحن فرح وحياة • بعبارة أخرى ، الحديقة هى مكــا ن هذا الغناء الجميل الكثير ، وليست فاعلته •

وقولك : هذا مشرب عذب

فالعذوبة لاتنسب أصلا إلى المشرب ، وهو مكان الشرب ، وإنما إلى المياه التى تكون فيه فإسناد العذوبة إلى المشرب ، اسناد مجازى عقلى ، سوغته العلاقة " المكانية " •

٢ــ الزمانيـــة :

وفيها يسند الفعل ، أو مافى معناه ، إلى زمان حدوث الفعل

نحو قولك: أيقظ الفجر الطيور •

فالفعل " أيقظ " أسند إلى الفجر "ولكن الفجر ليس سوى ، وقت مـــن اليوم ، وليس هو من أيقظ الأطيار ، لأنه شيء معنوى ، لايمتلك إرادة الفعل أو القدرة عليه وإنما أسند الفعل إليه ، لأنه الزمن الذى تمت فيه اليقظــة فالعلاقة زمانية •

ومثل ذلك ، قولـــك : " نهاره صائم وليله قائم " لأن النهار لايصــوم

والليل لايقوم ، وإنما يصام فى النهار ، ويقام فى الليل ، والصائم الحقيقى والقائم الحقيقى ، هو الإنسان . وإنما أُسند الفعل إلى النهار والليل ، لأنهما زمن حدوثه .

وقوله تعالى : " كيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا "(١) فأسند الفعل إلى اليوم وهو ليس بفاعله ، وإنما زمن وقوعه .

وقوله تعالى : " والضحى والليل إذا سجا "(٢) أى سكن . ولكن الليل لايسكن ، وإنما تسكن حركات الناس فيه ، فأجرى سبحانه وتعالى صفة السكون عليه ، لما كان الليل الزمن الذى يقع فيه السكون

ومثل ذلك قول النعمان بن بشير :

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا ... وليلك عما ناب قومك نائم

فالمجاز في إسناد النوم لليل ، والليل لاينام ، وإنما يقع النوم فيه

وقول المتنبى :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من أمره ما عنانا

---

(١) المزمل : ١٧

(٢) الضحى : ١

وتولوا بغصـــــه كلهم منـــــــــــ ــــه وإن سر بعضهم أحيانـــــــا

ربما تحسن الضيبع لياليـــــــــ ــــه ولكن تكدر الإحسانـــــــــا

كلما أنبت الزمان قنـــــــــــاة ركب المرء فى القناة سنانـــــــا

يشكو الشاعر الزمان ، ويتحدث عن صنيعه) مع الناس . ونحن يهمنا أن نتوقف عند بعض ماقال ، كمثال على هذا اللون من المجاز .

نجد في كلام الشاعر أربعة مجازات عقلية :

فالشاعر فى أسند السرور للزمان فى البيت الثانى .. وحسن الصنيع ، وتكديـر الإحسان لليالى فى البيت الثالث .. ثم عاد فأسند إنبات القناةللزمـــــــان فى البيت الرابع .. وكل ذلك على سبيل المجـاز .

فالزمان والليل أمران معنويان ، نعرفهما بالعقل لا بالحواس ولا قدرة لها بالتالى على الفعل .. ولذا لم يجىء إسناد السرور وحسن الصنيع وتكد يـــر الإحسان وإثبات القناة إليهما ، إسنادا حقيقيا .. وإنما هو إسناد مجازى علاقته الزمانية .

ومثل ذلك قول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهــلا ويأتيك بالأخبار من لم تــــزود

فالأيام لاتبدى إنما أسند الإبداء إليها على سبيل المجاز .. (العلاقة ــ كسابقاتها ــ زمانية .

٣ـ السـببية :

وفيها يسند الفعل أو مافي معناه إلى سببـه ٠

نحو قول الشاعر :

إنا لمن معشر أفنى أوائلهـم   قيل الكلمات : "الاأين الحامونا ؟

لقد أسند الفعل " أفنى " إلى القول ٠

لكن القول ، ليس هو الذى " أفنى أوائلهم " على سبيل الحقيقة ، بل هـو السبب فى ذلك ، فحين يصدر القولويسمع النداء ، يهب المقاتلون للزود عـن الحياض ، وتبذل الأرواح رخيصة فى سبيل الدفاع عن الحمى ، فيموت فى هذه المعارك أناس حاربوا ليكونوا الحماة ، وماكانوا ليقتلون لو لم يصدر القـــول ولم ينهضوا للإجابة عنه ٠ " فقيل الكماة " هو السبب فالعلاقة هنا سببية ٠

ونحو قولهم :

١ـ بنى الأمير المدينة

٢ـ وشيد الرئيس قصرا

٣ـ وأنشأت الحكومة سدا

وهذه الأقوال إنما هى على سبيل المجاز فالأمير لم يبن ، والرئيس لم يشيـــد والحكومة لم تنشئ ، ولم يزاول أى منهم حقيقة عملية البناء والتشييد والإنشاء وإنما الذى قام بها فعلا ، رجال آخرون ، عمال وفنيون ، ولكن بسبب أوامـــر الأمير والرئيس والحكومة ٠ فالعلاقة هنا أيضا سببية ٠

ومن أمثلةالعلاقة السببية ،

قوله تعالى : " وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا " (١)

فالمجاز هنا عقلي ، اذ أسند زيادة الايمان التي هي من فعل الله عز وجـــل إلى الآيات لكونها سببا في الزيادة .

ونحو قولهم : " أهلك الناس الدينار والدرهم "

فالدينار والدرهم ليسا من أهلك الناس حقيقة ، وإنما هما سبب الفتنة التـــي تؤدي بالناس إلى قتل بعضهم البعض .

٤ـ المصدريـــــة :

وفيها يسند الفعل إلى مصدره ،

نحو قول الشاعر :

قد عز عز الألى لايبخلون على ... أوطانهم بالدم الغالي إذا طلبـــــا

فالفعل " عز " قد أسند إلى مصدره " العز " على سبيل المجاز والمقصـــود عز الألى عزا .

ونحو قول أبي فراس :

سيذكرني قومي إذا جد جدهـــم ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البـــــدر

---

(١) الأنفال : ٢ .

ففى قوله " جد جدهم " أُسند الفعل " جد " إلى المصدر " الجد " بينما الذين يجدون حقيقة هم القوم الذين سيذكرونه ويفتقدونه ولذا اعتبر الفعل قد أُسند إلى غير فاعلة الحقيقى ، مجازا ، والعلاقة " المصدرية " ٠

ومن المجاز العقلى ، قول الشاعر :

تكاد عطاياه يجـــن جنونهـــا إذا لم يعوذها برقية طالـــب

لقد أُسند الشاعر الفعل " يجن " إلى المصدر " الجنون " وكان الجنـــون كائن حى ، يحس ويعقل ، ويتعرض لضروب الحوادث والأمراض ، وفقـــدان العقل ٠ وهذا الإسناد مجازى علاقته " المصدرية "

٥ـ الفاعليـــة :

وفيها يسند الوصف المبنى للمفعول إلى الفاعل ، أى يستعمل المفعول والمقصود اسم الفاعل ٠

مثال ذلك ٠

قوله تعالى : إنه كان وعده مأتيا " أى " آتيـــا "

ففى هذا القول ، أُسند الوصف المبنى للمفعول أى " مأتيا " إلى الفاعـــل أى " آتيا " على سبيل المجاز ٠ والعلاقةبالقرينه المانعة من إرادة المعنـــى الحقيقى ، هى الفاعلية ٠

قال الله تعالى : " وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا "

فقوله تعالى : " مستورا " جاء على سبيل المجاز ، لأنّ الحجاب بطبيعته إنما يكون ساترا لامستورا ، وهذا هو المعنى الحقيقى . لكن اسم المفعول حل محل اسم الفاعل ، فالعلاقة هي " الفاعلية " .

ونحو قولهم " سيل مفعم "

أى مفعم ، لأنّ السيل هو الذى يفعم أى يملأ ، وأصله أفعم السيل الوادى أى ملأه ، ولكن اسم المفعول حل محل اسم الفاعل ، أى أسند الوصف المبنى للمفعول إلى الفاعل .. وهو إسناد مجازى علاقته الفاعلية .

٦ـ المفعولية :

وفيها يسند الوصف المبنى للفاعل إلى المفعول ، أى يستعمل اسم الفاعل ، والمقصود اسم المفعول .

مثال ذلك

قوله تعالى : " أولم نمكن لكم حرما آمنا (أى : مأمونا) .

فلفظ اسم الفاعل " آمن " إنما يكون لمن يحس ويشعر ، ولكنه هنا ، أطلق على الجهاد ، وأريد به اسم المفعول : مأمونا ، فالإسناد مجازى والعلاقة المفعولية .

ونحو قوله تعالى : " في عيشة راضية " أى مرضية .

ونحو قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

لقد أسند الشاعر إلى ممدوحه ، ظاهر صفتين ايجابيتين تنمان عن الكرم

مستخدما فى ذلك لفظين بصيغة اسم الفاعل ، لكن الشاعر لم يكن يقصد ذلك المعنى ، وإنما كان هدفه الهجاء ، بإسناده الوصف المبنى للفاعل إلى المفعول وهو إسناد مجازى علاقته المفعولية • ويقصد بالطاعم الكاسى المطعوم المكسى•

ونحو قول النابغة الذبيانى :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلـــــــــة　　　من الرقش فى أنيابها السم ناقـــع

لقد أسند الشاعر النقع إلى السم إسنادا مجازيا ، لأن السم لايفعل النقع علـى الحقيقة ، وإنما هو الذى يفعل به النقع ، فالسم لايكون ناقعا وإنما يكـــو ن منقوعا • فالإسناد مجاز عقلى علاقته " المفعولية "

بلاغـة المجـــاز العقـــــــلى

بلاغـة المجـاز العـقلى

يعتبر المجاز العقلى ، من أساليب البلاغة العربية ، التى وسعت مجالات التعبير والإبداع ، وأضفت على اللغة طابع الجمال •

وقد ارتفع المجاز العقلى ، بالمادة الأدبية ، فسمت به آفاقها ، وتفتحت عبره حدودها ، وارتقى بفضله خيالها •

وقد أفاض أهل البلاغة فى الحديث عن بلاغه المجاز • فقال ابن رشيق " إن العرب كثيرا ماتستعمل المجاز ، وتعده من مفاخر كلامها ، فإنه دليل الفصاحة ، ورأس البلاغة ، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات •• المجاز فى كثير من الكلام ، أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع ".

وقال عبدالقاهر الجرجانى : هذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ ، فى الإبداع والإحسان والاتساع فى طريق البيان ، ولايغرنك من أمره ، أنك ترى الرجل يقول " أتى بى الشوق الى لقائك " و" سار بى الحنين إلى رؤيتك " وأقدمنى بلدك حق لى على انسان " وأشباه ذلك ، مما تجده لشهرته ، يجرى مجرى الحقيقة ، فليس هو كذلك ، بل يدق ويلطف حتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها والنادرة تأنق لها "

وقال الدكتور أحمد المراغى : المجاز العقلى ، ضرب من التوسع فى أساليب اللغة ، فن من فنون الإيجاز فى القول ، ألا ترى أن إسناد الفعل إلى سببه ، وجعله الفاعل المؤثر ، دليل على ماكان لهذا الأثر من شديد الصلة فى صدور الفعل ، وكأنه هو الذى صدر منه .

انظر إلى قول ابن الرومى :

أرى الشعر يحيى الناس والمجد بالذى ... تبقيه أرواح له عطرات
فما المجد لولا الشعر إلا معاهد ... وما الناس إلا أعظم نخرات

تراه قد جعل حياة الناس ومآثرهم رهينة الشعر ، بما ينشر من فضائلهم ويذكره من جليل إحسانهم ، وعظيم إنعامهم ، على كر الغداة ومر العشى .

وكذلك تجد ما فى نسبة الحادث إلى زمانه ، أو مكانه ، من دلالة على التعميم والشمول . فإن الفعل ، إذا أريد بيان شموله ، وأنه يعم كل من يكه المكان ، أو يحيط به الزمان ، نسب إلى المكان أو الزمان ، تأمل قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام " إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا " (١)

---

(١) مريم : ٤

تراه ، أراد أن يجعل الشيب قد عم رأسه ، حتى صار كأنه نار ، أضاف الاشتعال إلى الرأس ، لا إلى الشعر ، مع أن المقصود هو بيان ابيضاض الشعر .

وانظر إلى طرفة بن العبد ، وقد نسب إبداء المجهول الى الأيام وهى لاتظهره ، بل يظهر فيها ، ويستبين من أمره ماكان خفيا فى قوله :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقد جعل ذلك شيمة الزمان ، وطبيعة الحدثان ، فى كل عصر وأوان ولاتجد ذلك المعنى مستبينا ، إذا أنت قد قلت : سيبدو على صفحات الزمان ، ماكان أمره خفيا ، وما لم تجده من الشؤون جليا " (١)

---

(١) علوم البلاغة : ٢٧٥ .

المجـــــاز المرســـــــل

القسم الثانى

المجاز المرسل

المجاز المرسل : مجاز لغوى ، علاقته غير المشابهة ٠

ويقال فى تعريفه ايضا : هو اللفظ المستعمل فى غير معناه الأصلى لعلاقة غير المشابهة ، مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقى ٠

" سمى مرسلا ، لإرسالة عن التقيد بعلاقة المشابهة ز، أى اطلق فلم يقيد بعلاقة واحدة مخصوصة ، وانما له علاقات كثيرة ، تدرك من خلال الكلمة التى تذكر فى الجملة (١)

مثال ذلك ،

قوله تعالى : " واركعوا مع الراكعين " (٢)

فالركوع اصلا ، حركات وتلاوات عبادية ، تؤدى كجزء من الصلاة ولكنها هنا استعملت مجازا ، بمعنى الصلاة نفسها ، كما استعمل لفظ " الراكعين " بمعنى المصلين والعلاقه بين المعنى الحقيقى ، والمعنى المجازى ، علاقة الجزء بالكل ٠ فذكر الجزء و قصد الكل ٠

---

(١) صناعة الكتابة : ٤٠٦

(٢) البقرة : ٤٣

ومن امثلته : " اليـد " اذا استعملت في النعمة ، لما جرت بـه العادة من صدورها عن الجارحة ، وبواسطتها تصل الى المقصود بها ويجـــب أن يكون في الكلام دلالة على رب تلك النعمة ، ومصدرها ، بنسبتها اليـــه) ومن ثم لا نقول : " اقتنيت يدا " ولا " اتسعت اليد في المدينة " كمـــا تقول : " اقتنيت نعمة " و " كثرت النعمة في البلد " ٠

وانما تقول جلت يده عندي ، وكثرت اياديه لدي ، وماشاكل ذلـــك ومن هذا قوله عليه السلام لازواجه اسرعكن لحوقا بي اطولكن يدا " انا المـراد بسط اليد بالعطاء والبذل ٠

علاقات المجاز المرسل :

للمجاز امرسل علاقات كثيرة ، ابرزها : السببية ، المسببية والجزئية والكلية والماضوية والمستقبلية ، والمحلية ، والحالية والالية والمجاورة ٠٠

١ـ السـببية :

وذلك بان يطلق لفظ السبب ، ويراد المسبب

مثال ذلك

قول المتنبي :

لـه أيـاد على سابغـــة   اعد منها ولا اعددهـــا

اراد الشاعر أن يشير الى كثرة عطايا الممدوح له ، زوما أفاض علية من النعـــم

فلم يستخدم الألفاظ التى تدل حقيقة على هذا المعنى ، بل عمد إلى التعبير عنها مجازا بلفظة " اليد " آخذا بالاعتبار العلاقة بين اليد والنعم ، فاليد هى التى تمنح النعم ، وتقدم العطايا ، فهى السبب فيها • ولذا سميت العلاقة سببية •

مثال آخر

قول السموءل :

تسيل على حد السيوف نفوسنا   وليست على غير السيوف تسيل

أراد السموءل أن يقول : ان الدماء هى التى تسيل على حد السيوف ولكنه لم يستعمل اللفظ الحقيقى : " دماؤنا " بل استخدم لفظا آخر على سبيل المجاز ، وهو " نفوسنا " لعلاقة السببية بينهما • فالنفس هى السبب فى وجود الدم ، لذلك أشار الى السبب ، وهو يقصد المسبب •

ونحو قول الشاعر :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له   عليها إذا ما أجدب الناس اصبعا

فالإشارة بالعصا تعنى حسن الرعية ، والعمل بما يصلحها ويحسن اثره عليها وأراد بضعيف العصا ، أنه رقيق بها ، مشفق عليها ، لايقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة ، فهو يتخير مالان من العصى •

ويعلق الجرجانى على ماتقدم ، فيقول : " فأنت الآن ، لاتشك أن الإصبع مشاربها إلى إصبع اليد وان وقوعها بمعنى الأثر الحسن ، ليس

على أنه وضع مستأنف في حد اللغتين . ألا تراهم لايقولون : " رأيـــــت اصبع الدار " بمعنى آثار الدار و " له اصبع حسنه " و " أصبع قبيحة " علـى معنى أثر حسن ، واثر قبيح ، ونحو ذلك . وانما أرادوا أن يقولوا " له عليهـا أثر حذق " فدلوا علية بالإصبع ، لان الاعمال الدقيقة ، لها اختصاص بالاصابـــع وما من حذق في عمل يد الا وهو مستفاد من حسن تصريف الاصابع واللطـــف في رفعها ووضعها كما تعلم من الخط والنقش ، وكل عمل دقيق . وعلى ذلـك قالوا في تفسير قوله عز وجل : " بلى قادرين على أن نسوى بنانه " (١) أي نجعلها كخف البعير فلا تتمكن من الأعمال اللطيفة (٢)

فالإصبع هنا سبب الحذ ق والمهارة ، واستعمالة بمعنى الأثـــر الحسن ، انما هو استعمال على سبيل المجاز المرسل ، علاقته السببية .

ومن امثلة المجاز المرســل .

قول الشاعر :

اذا نزل السماء بأرض قــــوم   رعيناه وإن كانوا غضابـــــا

وقوله تعالى : " فمن شهد منكم الشهر فليصمه " (٣)

---

(١) القيامة : ٤٠

(٢) اسرار البلاغة : ٣٢٧

(٣) البقرة : ١٨٥ .

وقولهم : رعينا الغيث

٢ـ المسببية :

وذلك بأن يطلق لفظ المسبب ويراد السبب

نحو قوله تعالى : " وينزل لكم من السماء رزقا " أى مطرا ٠ فالرزق لاينزل من السماء ، وإنما المطر الذى يروى الأرض ، فتأتى أكلها ويجنى الإنسان منه رزقه ٠ فالشاعر عمد إلى تجاوز المعنى الحقيقى إلى المجازى ،لعلاقة المسببية ، التى تجمعهما ، فذكر المسبب وهو يريد الإشارة إلى السبب ٠

مثال آخر ،

قال أحدهم يوصى أبناءه : " لاتجالسوا السفهاء على الحمق "

أراد الشاعر أن يحذرهم من مجالسة أهل السوء ، الذين يتعاطون أعمال السفهاء كشرب الخمر ، ولعب القمار وغير ذلك ٠ فلم يذكر الخمر أو القمار أو غيرها صراحة ، ولكنه جاز إليها ، بذكر ماتتسبب عنه من ضياع العقل والرشد مما يؤدى إلى الحمق ٠

فالشاعر ذكر المسبب ، وهو يقصد ذكر السبب ٠

ومن أمثلة المجاز المرسل أيضا ،

قوله تعالى : " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا " (١)

---

(١) النساء : ١٠

فالنار لاتؤكل ، وإنما هى المسبب عما يأكله الانسان ، مـــــن الطعام المحرم .

وقولهم : أمطرت السماء نباتا .

فالسماء تمطر غيثا لانباتا ، وإنما استعمل النبات مجازا ، لعلاقةالمسببيـــة فالنبات هو المسبب عن الغيث .

ومن الأمثلة التى تشمل مجازين مرسلين ، علاقة أولهما السببية ، وعلاقـــة ثانيهما المسببة ، قول الشاعر :

أقطف الغيث فتحيا أمنيـــاتى والسما تمطر رزقا عم شعبـــه

فالغيث مجاز مرسل علاقته السببية ، والمقصود الثمر .

والرزق مجاز مرسل علاقته المسببة ، والمقصود المطر .

٣ـ الجزئيـــة :

وذلك بأن يطلق لفظ الجزء ، ويراد به الكل .

نحو قول الشاعر :

أعلمه الرماية كل يـــــوم فلما اشتد ساعده رمـــــانى

وكم علمته نظم القوافـــــى فلما قال قافيـةً هجانـــــى

تحدث الشاعر عن نظم الشعر ، لكنه لم يشر إليه بالألفاظ

الحقيقية ، وإنما عمد إلى ألفاظ أخرى ، معانيها جزء من المعنى المقصود فعبر عن الشعر بالقافية وهى جزء من الشعر فكل من لفظتى " القوافى " و " القافية " مجاز مرسل ، علاقته الجزئية .

مثال آخر ،

قوله تعالى : " فرجعناك الى امك كى تقر عنها ولاتحزن " (١)

تتحدث الآية عن أم موسى عليه السلام ، حين كان فى كنف فرعون وليدا فأعاده الله عز وجل إليها ، كى تفرح ، ويطمئن قلبها ، وتهدأ جوارحها وتقر نفسها وتطيب بذلك الرجوع .

لكن الآية لم تشر إلى هذا الاطمئنان ، الذى يصيب من الأم كامل كيانها واكتفت بذكر سرور العين واطمئنانها ، دون سواها : وما ذلك ، إلا على سبيل المجاز ، فالعين جزء من جوارح الإنسان ، لايقتصر عليها الفرح والأمان وهذا الجزء ، يعترى أم موسى وليدها الصغير فتفرح ، ويخلو من الحزن قلبها . ولما كان للعين هذه الأهمية ، وهى جزء من الكل ، فقد نابت منابه ، وذكرت مكانه ، وإنما المقصود حقيقة هو : الإنسان ، فالفرح فرحه ، والاطمئنان اطمئنانه .

ومن أمثلته أيضا

قول الشاعر :

كم بعثنا الجيش جرارا وأرسلنا العيونا .

فالعيون جمع عين ، وهى هنا الربيئة أو الجاسوس ، فأطلق الجزء ، وأريد

الكل . ذكرت العين لأنها الجزء الأهم الذى يستخدمه الإنسان ، حين يراقب الأعداء ، ويتسقط أخبارهم ، وأريد بها الجاسوس ، أى الإنسان كاملا شاملا .

ومن أمثلة المجاز المرسل ،

قول الشاعر :

اكتب النفس كتابا من يقين على " عينى " تبلغ الغيب وخصبة

وقولهم : " الإسلام يحث على تحرير " الرقاب " .

تنبيه :

اشترط البلاغيون فى الجزء المطلق على الكل ، أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى الذى قصد بالكل ، فمثلا ، لايجوز إطلاق اليد أو الأصبع على الربيئة وان كان كل منهما جزءا منه ، لأن العين ، هى المقصودة فى كون الرجل جاسوسا ، إذ ماعداها من أعضاء الجسم لاينوب منابها ، ولايغنى شيئا مع فقدها ، فصارت كأنها الشخص كله

٤ـ الكلية

وذلك بأن يطلق لفظ الكل ، ويراد به الجزء .

نحو قول المتنبى :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى تخب بى الركاب ، ولا أمامى

فالشاعر يقول : إنه أقام بأرض مصر ومصر بلد مساحته مئات الآلاف من الكيلومترات ، ولايمكنه أن يسكن فيه كله ، لكنه ذكر ذلك مجازا مرسلا والحقيقة : أنه نزل في جزء منه ، وبهذا يكون قد ذكر لفظ الكل ، وأراد به الجزء • فأرض مصر ، مجاز مرسل ، علاقته الكلية •

مثال اخر •

قال تعالى : ((قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائي الا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم)) (١)

فالأصبع لايوضع كله في الأذن ، وإنما طرفه فحسب •

ففي هذه الآية ، أطلق لفظ الكل ، وأريد الجزء ، وهو الأنامل فأصابعهم مجاز مرسل ، علاقته الكلية أيضا •

وذكر الزمخشري في الكشاف ، عند الكلام على مجاز الآية السابقة أمثلة مشابهة مثل قوله تعالى : " فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق "

---

(١) الربيئة : الشخص الذي يستطع تحركات العدو في مكان عال : الجاسوس

(٢) نوح : ٥ ، ٦ ، ٧ •

ومثل قوله تعالى " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما " (١)

فالمراد : أيديهم إلى الرسغ (٢)

ومن أمثلة المجاز المرسل ، للكلية .

قوله تعالى : " يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم " (٣)

أطلق لفظ " الأفواه " وأريد به الجزء : اللســـان

وقولهم : " شربت ماء دجلة "

فدجلة ، نهر عظيم ، والمقصود جزء بسيط جدا منه .

٥ ــ الماضوية أى اعتبار ماكان .

وذلك بأن يطلق اللفظ ، الذى يدل على ماكان الأمر عليه والمـــراد ما هو عليه فى الحاضر .

مثاله ،

قول ابن الرومى :

لاأركب البحـــــر إنى	أخاف منــه المعاطـــب
طين أنا وهو مـــــاء	والطين فى الماء ذائـــب

---

(١) المائدة : ٣٨

(٢) المائدة : ٦

(٣) علم البيان : ٥٤

(٤) آل عمران : ١٦٧ .

كيف يكون الإنسان العاقل ، المتحرك ، الحيوى طينا ؟

وماذا يقصد ابن الرومى ، حين ماز نفسه بهذه الصفة ؟

وهل يمكن أن نفهم أن الطين معناه " الإنسان " إلا مجازا ؟

وإذا أردنا ، أن نبحث عن العلاقة التى سوغت هذا الاستعمال ، فنحـــــن

واجدوها فى الماضوية • فالطين هو الإنسان ، باعتبار ماكان •

لأن الإنسان أصله من طين •

وفى ذلك يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

" هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا " (١)

" ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين " (٢)

" إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين لازب " (٣)

مثال آخر ،

قال تعالى : " إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيا " (٤)

---

(١) الأنعام : ٢

(٢) المؤمنون : ١٢

(٣) ص : ٧١

(٤) طه : ٧٤

فسماه — عز وجل — " مجرما " باعتبار ماكان عليه فى الحياة الدنيا من إجرام .

ومن أمثلته ،

قوله تعالى : " وآتوا اليتامى أموالهم "

فاليتم لغة ، الذى مات أبوه ، فهو يتيم حتى يبلغ ، فإذا بلغ ، لم يعد يسمى " يتيما "

فالمقصود بالآية ، ليس الصغار ، غير البالغين ، ممن فقدوا آباءهم كما يشير المعنى اللغوى الحقيقى ، لأن هؤلاء ، لايحسنون إدارة أموالهم ولا يملكون من الخبرة والحكمة ، مايؤهلهم للسهر على مصالحهم ، وإنما المقصود بذلك من بلغ سن الرشد منهم ، وصار مؤهلا لرعاية نفسه ، رعاية طيبة ، وإدارة شؤون مصالحه ، إدارة جديدة ، فاستعمال الاسم الأول ، الذى كان لهم ، قبل إيناس الرشد منهم ، وهو اليتامى انما كان على سبيل المجاز المرسل والعلاقة هنا ماضوية ، أى باعتبار ماكان .

أمثلة أخرى ،

قولك أكلت القمح " أى الخبز ، باعتبار ماضيه

وقولك : " شرب البن " أى ، القهوة باعتبار ماكانت عليه .

٦ ــ **المستقبلية ، أى اعتبار مايكون**

وذلك ، بأن يطلق اللفظ الذى يدل على مايكون الأمر عليـــــه والمراد به ، ماكان عليه قبل ذلك ٠

نحو قول الشاعر :

إننى أوقد نارى ، فى البرارى وأُجارى المشتهى ، أُنس ربـــه

فالنار أصلا ، هى ما اشتعل ، وأُصبح بغير حاجة إلى الإيقاد ٠ إنما يوقــــد الحطب وغير ذلك مما يتحول بايقاده نارا فالشاعر قد استعمل لفظ النار ،وهــو يقصد الحطب ، أو شيئا من هذا القبيل ، والعلاقة هى المستقبلية

مثال آخر

قال تعالى ، على لسان نوح عليه السلام :

" رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ٠ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا " (١)

كيف يكون المولود فاجرا ، وكافرا ، وهو بعد صغير ، لايعرف ولا يعى من أمور الخير والشر شيئا ؟!

والجواب : أن إطلاق نوح هذين اللفظين على أولاد القوم الكافرين ، إنمـــا كان باعتبار ما ظن أنه كائن فى المستقبل ، إذ سيؤول أمرهم إلى الاعتقـــاد بما اعتقده أهلهم ، فالأبناء عادة على دين آبائهم لما للآباء من قوة وسطوة على الأبناء ولما لقومه بالذات ، من سيطرة ، ونفوذ ، وفجور ، وكفر ، وجبروت٠ فاللفظان مجازان مرسلان ، علاقتهما المستقبلية ٠

مثال آخر

قال تعالى ، على لسان أحد الفتيين ، اللذين دخلا السجن مع يوسف عليه السلام : " إنى ارانى أعصر خمرا " (١)

الكلام هنا عن عصر الخمر ، مجاز والحقيقة : أن مايعصر هو ابنة الكرم ، التى تتحول بعد ذلك خمرا فالخمر لايعصر ، وإطلاقه ، إنما يراد به العنب ، على سبيل المجاز ، باعتبار ماسيكون فالعلاقةمستقبلية) .

ومن الأمثلة الأخرى

قوله تعالى : " فبشرناه بغلام حليم " (٢)

أى سيكون حليما فى المستقبل .

وقوله تعالى : " يا أيها االذين آمنوا ، كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى (٣)

فأطلق لفظ " القتلى " وأريد به : " الذين سيقتلون " .

٧ ـ المحلية

وذلك بأن يطلق لفظ المحل ، ويراد به الحال فيه ،

نحو قول الشاعر :

واسألا القرية عنا : كيف كنا فى روابيها ربيعا ومحبة

---

(١) يوسف : ٣٦ .

(٢) الصافات : ١٠٤ . (٣) البقرة : ١٧٨ .

فالقرية محل أو مكان ، يسكنه الناس ، لايفهم الأسئلة ، ولايملك أن يجيب عنها ، وإنما يقصد الشاعر بالقرية " أهلها ، وسكانها ، الذين يحلون فيها ٠

لقد استعمل الشاعر لفظ المحل ، وقصده الذين ينزلون فيه فالعلاقة محلية ٠

مثال آخر ،

قول ابن الرومى :

لا أركب البحر إننى   أخاف منه المعاطب

فالمرء لايركب البحر ، وإنما يركب شيئا يحل فى البحر كالسفينةمثلا ٠

ولكن ابن الرومى ، لم يستعمل اللفظ الذى يدل على قصده الحقيقى بل استخدم لفظا آخر ، على سبيل المجاز ، لعلاقةالمحلية ٠ فالبحر محل للسفن ، والسفن حالة فيه ٠

ومن أمثلة هذه العلاقة

قوله تعالى : " فليدع ناديه ، سندع الزبانية " (١)

فأطلق لفظ النادى ، وهو محل للاجتماع ، ولكن المراد به هو الناس ، الذين ينزلون فى هذا المحل ٠

---

(١) العلق : ١٧٠

وقول الحجّاج فى أهل العراق : " إن أمير المؤمنين أطال الله بقـــاءه نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكســـرا فرماكم بى " .

فالمجاز هنا ، فى لفظ " كنانته " الكنانة : وعاء توضع فيه السهام ، والوعـاء لاينثر ، إنما ينثر ماحل فيه .

٨ـ الحالية :

وذلك بأن يطلق لفظ الحال ، ويراد به المحل

ومثاله

قوله تعالى : إن الأبرار لفى نعيم" (١)

فالأبرار ، إنما يكونون فى مكان عظيم ولكن الآية لم تذكر هذا المكان وهـــو الجنة ، وذكرت صفة أساسية من الصفات التى تحل فيه ، وهى النعيم .

فالنعيم ، مجاز مرسل ، أطلق ، وأريد بالجنة . فالعلاقة هنا حالية

مثال آخر

قال الشاعر :

ألما على معـــن وقولا لقبـــره سقتك الغوادى مربعا ثم مربعـــا

---

(١) المطففين : ٢٢

وهو " القبر " بل استعمل اللفظ الدال على الحال فيه ، وهو " معن "

فمعن مجاز مرسل ، علاقته الحالية

أُمثلة أُخرى

قال تعالى : " فى رحمة اللهم فيها الخالدون " (١)

أى فى الجنة التى تحل فيها الرحمة ٠

قال المتنبى :

إنى نزلت بكذابين ضيفهـــم   عن القرى وعن الترحال محــدود

أى نزل فى مكان ، أُصحابه كذابون ٠

٩ــ الآلـيـــــة :

وذلك ، بأن يطلق اسم الآلة ، ويراد لبه ، الأثر الذى

ينتج عنها ٠

نحو قوله تعالى : " واجعل لى لسان صدق فى الآخرين " (٢)

فذكرت الآية ، الآلة وهى اللسان ٠ والمراد ماينتج عن اللسان وهو الكـــلام

أى : واجعل لى ذكرا جميلا بعدى ، اذكر به ، ويقتدى بى فى الخير ٠

---

(١) آل عمران : ١٠٧ ٠

(٢) الشعراء : ٨٤ ٠

فاللسان ، مجاز مرسل ، علاقته الآلية .

مثال آخر .

قال تعالى : " فأتوا بعلى بن الناس " (١)

لقد أطلق لفظ الآلة هنا ، وهى العين ، وأريد بها ، ماينتج عنها ، وهى الرؤية . أى : أتوا به على رؤوس الأشهاد

فالمجاز المرسل ، هنا ، علاقته الآلية .

أمثلة أخرى

قال تعالى : " واصنع الفلك بأعيننا " أى بمرأى منا

وقوله تعالى : " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه "

أى بلغة قومه .

١٠ـ المجـــاورة

وذلك بأن يطلق لفظ الشيء ويراد به مايجاوره

مثاله ،

قول عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابـــه ليس الكريم على القنا بمحـــرم

يفتخر عنترة بشجاعته ، وشدة مراسه فى القتال ، ويصف طعنه للعدو ، فيقول إنه شك بالرمح ثياب العدو فإذا أخذنا اللفظ على معناه الحقيقى ، فإن الضربة

لاشك هزيلة ، لكن عنترة استعمل اللفظ هنا على سبيل المجاز ، فذكر الثياب ، وقصده ماجاورها من اللحم والعظم · وبذا يأخذ المعنى أبعاده الصحيحة ·

فالثياب ، مجاز مرسل ، علاقته المجاورة

تنبيه :

" ليس المقصود من العلاقة ، إلا بيان الارتباط · فالفطن اللبيب يعرف مايناسب كل مقام ، فيصح أن يعتبر فى إطلاق الدال على المدلول علاقة المجاورة ، بأن يخيل أن الدال مجاور المدلول ، أو علاقة الحالية ، نظرا الى أن الدال محل للمدلول ". أو نحو ذلك بحسب مايهدي إليه الذوق ، ويرشد إليه الوجدان الصادق ·

وقد يكون اللفظ الواحد صالحا لأن يكون بالنظر إلى المعنى الواحد مجازاً مرسلا ، واستعارة ، باعتبارين ··

فإذا جاز مرعاة علاقتين أو اكثر ، فالمعول عليه ، هو مالاحظه المتكلم فإن لم يعرف مقصده صح للمخاطب أن يعتبر مايشاء ولكن بعد أن ينعم النظر ويرجح أكثرها قوة ، وأشدها ملاءمة للغرض ومن ثمة يرجح علاقة المشابهة أو غيرها ·

فمثلا : " المشفر " ، إذا أطلق على شفة الإنسان ، فإن لوحظ فى إطلاقه عليها ، المشابهة فى الغلظ ، فهى استعارة · وإن لوحظ أنه من إطلاق اسم المقيد على المطلق ، كان مجازا مرسلا

ـ يستفاد اسم العلاقة ، من وصف الكلمة ، التي تذكر في الجملة ، على سبيل المجاز • فإن كانت الجزء جعلت العلاقة الجزئية ، وإن كانت الكل جعلت الكلية •• وهكذا " (١)

(١) علوم البلاغة : ٢٣٤ •

بلاغـــة المجـاز المرســـــل

بلاغة المجاز المرسل

المجاز المرسل ، ضرب من التوسع فى اساليب اللغة ، وفن من فنون الإيجاز .

فمن جهة التوسع : نرى اللفظ ينقل من مدلوله الأصلى ، إلى مدلول جديد ، فيبعث على التأمل ، ويستثير الخيال والتفكير ، ويشرع للمعانى آفاقا عريضة ، ترتاح لها النفس ، ويستسيغها الذوق ، لما فيها من توسيع للغة ، وافتنان فى التعبير ، وإيراد المعنى الواحد بصور مختلفة .

ويفيد المجاز المرسل المبالغة ،

كما فى قولة تعالى : " يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق " (١)

ويقصد بالأصابع الأنامل ، وجاء إطلاق لفظ الأصابع ، فى هذه الآية ،ليدل على شدة رعب القوم ، وعظم خوفهم .

وقوله تعالى : " وآتوا اليتامى أموالهم " (٢)

فإطلاق لفظ اليتامى ، إشارة إلى استمرار وضعهم الإنسانى ، ووجوب الوفاء بحقوقهم ، والإسراع إلى مساعدتهم .

وقوله تعالى : " واسأل القرية التى كنا فيها " (٣)

---

(١) البقرة : ١٩

(٢) النساء : ٢

(٣) يوسف : ٨٢

ففى هذه الآية اطلق لفظ المكان ، وأريد به أهله . لكن هـــــنا التعبير بحد ذاته يشير إلى قوة الاحتجاج بتلك القرية . لكأن القرية كلهـــا ستجيب عن السؤال ، سيتحدث أهلـــها وتشهد بيوتها وشوارعها وتنطـــق أرضها ، ويومى ء هواؤها ويعبر حيوانها .. فإذا القرية كلها تسأل .. وإذا القرية كلها تجيب .

ولهذا كان المجاز المرسل ، من أجمل أساليب التعبير ، لما يستكمل عليه من قوة البيان وتنوعه .

ويحقق المجاز المرسل الإيجاز فى القول ، وهو من أساليب البلاغة التى تعبر عن المعنى الكثير ، بالكلام القليل ، وفيما أوردناه من أمثله خـــير دليل .

من هنا فضل أهل البلاغة المجاز على الحقيقة ، ورأوا أن " المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة ، فى باب الفصاحة والبلاغه ، لأنه لو لم يكـــن كذلك ، لكانت الحقيقة التى هى الأصل ، أولى منه ، حيث هو فرع عليهـــا وليس الأمر كذلك لأنه قد ثبت وتحقق ، إن فائدة الكلام الخطابى ، هـــو إثبات الغرض المقصود فى نفس السامع ، بالتخييل والتصوير ، حتى يكاد ينظـــر إليه عيانا ..

وأعجب مافى العبارة المجازية ، أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعـــى فى بعض الأحوال ، حتى إنها ليسمح بها البخيل ، ويشجع بها الجبان ويحكـــم

بها الطائش المتسرع ، ويجد المخاطب بها عند سماعها ، نشوة كنشوة الخمـــر حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام ، أفاق وندم على ما كان منه ، من بذل مـــال أو ترك عقوبة ، أو إقدام على أمر مهول ، وهذا هو فحوى السحر الحلال ، المستغنى عن القاء العصا والحبال " (١)

فالمجاز أسلوب بيان ساحر ، للتعبير المبدع الجميل ٠

---

(١) المثل السائر : ١/٦٢ ، ٦٣ ٠

البــــاب الرابـــــع

الكآبـــــة

الكـــــــــايـــــة

ان مصطلح الكنايـــة فى تصـور البلاغيين العـرب يتجاذبـه معنيـان :

المعنى اللغوى :

هو أن نتكلـم بشيء ونريد غيره ، أو نتكلم بما يستدل به عليـه وهى مصدر لفعل (كنيت) أو (كنوت) تقول : كنيت بكذا عن كذا ، وتكنّى أى تستّر (١)

المعنى الاصطلاحى :

هى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، مع جواز إرادةالمعنى الأصلـى أو هى التصريح بذكر الشيء إلى مايلزمه .

وبعبارة ثانية : كلام أريد به معنى غير معناه الحقيقى الذى وضـع له مع جواز إرادة ذلك المعنى الاصلى ، اذ لاقرينة تمنع هذه الإرادة .

---

(١) انظر : لسان العرب ، والقاموس المحيط مادة : كنـى

ومثال ذلك قول الخنساء في أخيها صخـــر :

طويل النجاد ، رفيع العماد .. كثير الرماد اذا ماشـــتا

فالخنساء تصف أخاها بثلاث صفات (كنايات) هي على التوالي : طويــل النجاد ــ رفيع العماد ــ كثير الرماد ، فطول النجاد ــ وهي حمائل السيف ــ يستلزم طول القامة ، فأخوها طويل ، وتلك هي الصفة الأولى ، ورفعــة العماد تستلزم الشهرة والحسب والزعامة ، لأن بيت الزعماء يدخله أناس راكبون وراجلون ، فيستلزم أن يكون بابهم عاليا ، ومن ثم فأصحابه متصفون بصفــه الزعامة .

وكثرة الرماد تستلزم كثرة الطبخ ، وكثرة الطبخ تستلزم كثرة الآكلين وكثــرة الآكلين تستلزم كثرة الضيوف ، وكثرة الضيوف تستلزم الكرم فـ " كثيــر الرماد " وحدها (أي في دلالتها الحرفية) لاتحتمل مدحا ولاذما .وإنمــا تمثل خيطا رفيعا مكن السامع من الغوص على المعنى المناسب ، فالمعنــى الحرفي في " كثير الرماد " مقبول ممكن ، ولكنه غير كاف كما ترى ، ولذلك اعتبر ابن الاثير أن " الكناية إذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز فالحقيقــة هي المعنى الحرفي والمجاز هو معنى الكرم .

ولايعني عدم الاكتفاء بالمعنى الحرفي في الكناية أنه مرفوض ، بــل هو مقبول ممكن ، فـ " كثير الرماد " تعني كثرة الرماد أولا ، ثم تعني الكــرم بعد ذلك على النحو التالي :

كثير الرماد ← النار ← الطهي ← الآكلون ← الضيوف ← الكرم

اللفظ الدال — الوسائط ـ اللـــوازم — المدلول

↓

مدلول حرفي

فالكرم يمثل المعنى المستلزم ، وهو مشتق من المعنى الحرفـــي ولكنه تحوّل لاينفي المعنى الحرفي ٠

فالكناية إذن تقوم على طرفين أحدهما حاضر هو اللفظ الذى تنطلق منه سلسلة التوليـد والآخر غائب هو المدلول ، وبينهما وسائط تقل وتكثـــر حسب المسافة الفاصلة ، والطرف الحاضر هو اللفظ المصرّح به فى الكناية علـى المعنى المكنّى عنه عن طريق الاستلزام . فالرماد يستلزم النار التى تستلزم الطهى وهكذا الى أن نبلغ معنى الكرم كما بينا أعلاه ٠

أقســـام الكنايـــة :

جـرى تقسيم الكناية فى الدرس البلاغى عند العرب ـ كما ســـــبق ـ باعتماد معيارين هما :

١ ـ نوع المكنى عنـه : صفـــة / موصـو ف / نســـبه

٢ ـ المسافة الفاصلة بين اللفظ والمعنى المقصود :

التعريض
التلويح
الإيماء
الرمز

أ - الكناية عن الصفة :

هى الكناية التى يستلزم لفظها صفة :والمراد بالصفة - هنا - ليس النعت المعروف فى علم النحو ، بل الصفة المعنوية كالجود والشجاعة والطول والجمال ، وغير ذلك ٠

ومن أمثلتها قول المتنبى فى إيقاع سيف الدولة بأعدائه :

فمسّاهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب

أراد المتنبى أن يقول : إن سيف الدولة هاجم الأعداء الذين قضوا ليلتهم وهم فى عز ولما أصبح عليهم الصباح ماتوا جميعا ، فأصبحت بسطهم ترابا أو أنهم كانوا فى المساء سادة أعزاء ، ثم صاروا فى الصباح بعد الإيقاع بهم فقراء أذلاء ٠٠ أو قتلى ٠٠ فالتعبير بـ (بسطهم حرير) و (بسطهم تراب) كنايتان عن صفتى الغنى والفقر ٠ كما يجوز فى الوقت نفسه إرادة المعنى الأصلى لبسط الحرير وبسط التراب ٠

مثال ذلك :

- طويل النجاد : شجاع ، رفيع العماد : عظيم فى قومـه .
- كثير الرماد : كريم ، نؤوم الضحى : مترفة ، ثرية .
- بعيدة مهوى القرط : طويلة الجيد ، عريض الوسادة : أبله .
- جبان الكلب : كريم (ألِف كلبه الضيوف فهو لاينبح)
- مهزول الفصيل : كريم (الفصيل ولد الناقة ، وذبحت أمه فكـــان هزيلا) .

ب ـ الكنايــة عن الموصـوف :

وهى الكناية التى يستلزم لفظها ذاتًا أو مفهوما ، أو هى التى يصـرح فيها بالصفة وبالنسبة ولايصرح بالموصوف .

كقولك : فلان صفا لى مجمع لبه أى قلبه ، فقد صرح بالصفة ، وهى (مجمع لبه) وصرح بالنسبة ، وهى (إسناد الصفاء إلى مجمع اللـــــب) ولم يصرح بالموصوف الذى هو القلب ، بل ذكر مكانه وصفًا خاصًا به ، وهـــو كونه مجمع اللب

فالقلـب ←
- مجمع اللب .
- موطن الرعب .
- موطن الحقـد .
- موطن الأضغان .
- موطن الكتمـان .
- موطن الأسرار .

كقـول الشاعر :

الضار بين بكل أبيض مخـــذم　　　　والطاعنين مجامع الأضغـــــان

ج ـ الكنايـة عن النسـبة :

هى الكناية التى يصرح المتكلم فيها بالصفة وصاحبها (الموصوف) ولكنه لايعقد بينهما مباشرة ، ويعمد إلى نسبة الصفة إلى شيئ له اتصـــال بصاحبها •

تقول : الكرم فى ثوب محمـد •

فتذكر الصفة وهى الكرم ، وتذكر الموصوف وهو محمد ، ولاتذكر أنه كريـــم بل تنسب الكرم إلى مافى ثوبه ، وهذه تستلزم أن محمدا هو الكريم ، لأن الذى فى الثوب هو محمد لاغيره •

ومنه قول الشاعر :

إن السماحة والمروءة والندى　　∴　　فى قبة ضربت على ابن الحشرج

أراد الشاعر أن يثبت السماحة والمروءة والكرم للمدوح (ابن الحشرج) فلـم يعبر بصريح اللفظ ، وإنما لجأ إلى الكناية ، فنسب الصفات إلى قبة الممدوح وهذه النسبة تستدعى أو تستلزم أن يكون سيد القبة وصاحبها هو صاحـــب السماحة والمروءة والندى •

ومثلة :

ـ　اللوم فى جلـــده .

- يسير الجود حيث يســــير .
- يبيت بمنجاة من اللوءم بيتها .

انا مابيوت بالملامة حلـــــت

المرأة المعنيــة هنا عفيفــة ، لذلك لايـــلام بيتهـا .

أنواع الكناية باعتبار الوسـائط

لاحظنا أن بين اللفظ المصرح به والمعنى المكنى عنه فضاء تتوزعه درجات تشغلها وسائط تربط بين الطرفين ، وتهدى المتلقى إلى المعنى المراد ·

وقد قسم البلاغيون الكناية باعتبار الوسائط المتصلة بها خمسة اقسام :

أ- التلويـــح :

التلويح لغة : أن تشير إلى غيرك من بعد ·

والتلويح بلاغة : كناية تكثر فيها الوسائط بلا تعريض ·

ولايعنى تعدد الوسائط الإلغاز أو الغموض إذ يتميز هذا النوع من الكنايـة بالوضوح والسهولة في المرور من واسطة إلى أخرى ، ومن لفظ الكناية إلى المعنى المراد · وعلى هذا فالتلويح يتميز بميزتين :

الأولى : البعد في المسافة بين المعنى الحرفى والمعنى المراد لكثرة الوسائط·

الثانية : القرب في الفهم لوضوح العلاقات فيه فيسهل المرور من واسطة إلـى أخرى ومن المعنى الحرفى إلى المعنى المكنى عنه ·

مثال ذلك : صخر كثير الرماد ·

المراد بهذه الكناية عن الصفه وصف صخر بالكرم ولانستطيع أن نصل إلى هـذه الصفة إلا بعد وسائط عدة وهى : كثرة الرماد تستدعى كثرة إحراق الحـطب تحت القدور ، وكثرة الإحراق تستدعى كثرة الطبخ ، وكثرة الطبخ تستدعى كثـرة الآكلين ، وكثرة الآكلين تستدعى كثرة الضيفان ، وكثرة الضيفان تستدعـى صفة الكرم·

ومنه قول الشاعر الحماسى :

وَمَايَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّيِّ   جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزُولِ الْفَصِيلِ

المراد بقولة : فإنى جبان الكلب مهزول الفصيل : أنى رجل كريم . والتعبير بقوله : جبان الكلب ، كناية عن كرم الرجل بأسلوب التلويح .

وقد وصلنا إلى هذه الصفقعبر الوسائط التالية ، جبن الكلب ناجم عن دوام منعه عن الهرير فى وجه القادمين ، ودوام المنع معناه دوام تأديبه وزجره ودوام تأديبه ناجم عن كثرة القادمين إلى دار صاحبة ، وكثرة القادمين ناجم عن كونه سيدًا كريما .. إذ لايزدحم الناس إلا على المنهل العذب والنبع المعطاء والتعبير بقوله : مهزول الفصيل : كناية عن كرم الرجل بأسلوب التلويح وقد توصلنا إلى هذه الصفة عبر الوسائط التالية : الفصيل ولد الناقة ، ولايكون هزيلا إلا إذا لم تتح له فرص الرضاع من أثداء أمه (الناقة) وأمه الناقة لاترضعه بسبب غيابها عنه غيابا أبديا ، وغيابها الأبدى ناجم عن كون صاحبها قد نحرها لضيوفه لأن لحمها طرى ، وشهى ، فيه لذة للآكلين .

أرأيت إلى الوسائط المختلفة التى توالت إثر بعضها حتى وصلنا بها إلى الكناية المرادة . وكل كناية عبرت عبر وسائط كثيرة مع وجود فضاء كبير فاصل بين المعنى المكنى عنه والمعنى الحرفى فهى التلويح

وكقول نصيب :

لعبد العزيزِ على قومِه   وغيرِهم منن ظاهِره

فبابُكَ أَسْهَلُ أَبْوابِهِم ... وَدارُكَ مأهولةٌ عامِرَهْ
وَكَلْبُكَ آنَسُ بالزّائِرِينَ ... مِنَ الأُمِّ بالابنةِ الزّائِرَهْ

فإنه كنى عن وفور إحسان عبدالعزيز إلى الخاص والعام بأنس كلبه بالزائرين فأنت تنتقل من أنس الكلب بالزائرين إلى أنهم عنده معارف ثم إلى اتصال مشاهدته إياهم ، ثم إلى لزومهم باب عبدالعزيز ، ثم إلى المراد (١) .

---

(١) المثل السائر /: ٢/١

٢ــ الايمــاء والاشــارة :

وهي كناية تتوسط بين التلويح والرمز ، بقلة الوسائط فيهــا ، وبوضوح نسبي في العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المراد ، كأنها تومــئ إليه وتشير ٠

نحو قول البحتري :

أَوَمَا رَأَيْتَ المَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ
فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَــوَّلِ ؟

فالبحتري يتحدث هنا ــ عن إلقاء الرحل ، وهذا يعني توقف المسافر ، وإلقائه مايستصحبه من أغراض في سفره ، بهدف الإقامة في المكان ، ولكن المجد هــو الذي يريد الإقامة الدائمة في آل طلحة ، فالغاية من ذلك أن ينسب الشاعــر المجد إلى آل طلحة على طريق الكناية ، فلم يعمد إلى إطالة المسافة بيــن اللازم والملزوم ، بل جعل الوسائط بينهما قليلة ، واضحة كل الوضوح ٠

ولو قارنا بين هذه الكناية ، وعبارة " كثير الرماد " لتبين لنا بعــد المسافة بين كثرة الرماد ، ومايلزم عنها من الكرم ، وقلة المسافة بين عبــارة " إلقاء الرحل في آل طلحة " ومايلزم عنها من نسبة المجد إليهم وحيــث أن الوسائط واضحة ، فالكناية من قبيل الإيماء والاشارة ٠

مثال آخر :

قول أبي تمام يصف ابلا :

أَبَيْنَ فَمَا يَزُرْنَ سِوَى كَرِيمٍ
وَحَسْبُكَ أَنْ يَزُرْنَ أَبَا سَعِيدِ

فالشاعر لم ينسب الكرم إلى أبى سعيد ، لكن هذه الصفة مفهومة النسب إليـــه بسهولةويسر من خلال الربط بين وقف زيارة الإبل على الكرماء وزيارتهم لــــه ، فإذا كانت الإبل لاتزور إلا كراما ، فكريم هو أبو سعيد ، لأن الإبل قد زارته.

ومنه قول الآخر :

سَأَلْتُ النَّدَى وَالْجُودَ مَالِي أَرَاكُمَا
تَبَدَّلْتُمَا ذُلًّا بِعِزٍّ مُؤَبَّـــدِ ؟

وَمَابَالُ رُكْنِ الْمَجْدِ أَمْسَى مُهَدَّمًا ؟
فَقَالَا : أُصِبْنَا بِابْنِ يَحْيَى مُحَمَّدِ

فَقُلْتُ : فَهَلَّا مُتُّمَا عِنْدَ مَوْتِهِ
فَقَدْ كُنْتُمَا عَبْدَيْهِ فِي كُلِّ مَشْهَـــدِ

فَقَالَا : أَقَمْنَا كَيْ نُعَزَّى بِفَقْـــدِهِ
مَسَافَةَ يَوْمٍ ثُمَّ نَتْلُوهُ فِي غَـــدِ (١)

٣ـ الرمـــــز :

الرمز لغة : الإشارة بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو الفم أو اليد أو اللسان وأكثر مايكون ذلك على سبيل الخفية (٢)

---

(١) مفتاح العلوم : ١٩٣ .

(٢) القاموس المحيط : مادة رمز .

وسبب اطلاق الرمز على هذا القسم ، أن الرمز بمعنى الإشارة من قريب على سبيل الخفية ، قال تعالى فى قصة زكريا " أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا " .

وقال الشاعر :

رَمَزَتْ إِلَيَّ مَخَافَةً مِنْ بَعْلِهَا
مِنْ غَيْرِ مَا تُبْدِي هُنَاكَ كَلَامَهَا

والرمز اصطلاحا : كناية ذات مسافة قريبة ، ووسائط قليله ، مع نوع من الخفاء وذلك كقولك : " عريض الوسادة " كناية عن الابله فالأبله همه من الدنيا أن يرتاح فى نومه ، وأن يتخذ له من الوسائد ماعرض وأراح ، ذلك لأن عرض الوسادة يستلزم كبرا فى الرأس وطولا فى العنق ، وعرضا فى القفا ، وهذا يستلزم البلاهة عند العرب .

وقولهم : فلان من المستريحين : أى الذى لاعقل له ، فالذى لاعقل له لايفكر ولايعرف الهموم ، فهو سعيد مسرور .

وكقول الشاعر :

صَاحِبُنَا أَحْوَالُهُ عَالِيَهْ لَكِنَّمَا غُرْفَتُهُ خَالِيَهْ (١)

فكنى عن قلة الدماغ والعقل بخلاء الغرفة ، ولا يخفى مافى هذه الكنايات من الخفاء .

---

(١) الكنايات للثعالبى : ٣٨

ومما يلاحظ في الكناية بالرمز ، أن درجة الخفاء فيه متفاوتة من كـــلا م إلى آخر ، فمنها مايدرك بسهولة ويسر ، ومنها مايحتاج فهمه إلى جهد كبير ، ومنها مايستغلق على الأفهام حتى ليعد لحنا أو لغزا .

واللحن هو الرمز الذى لايعرف معناه إلا من يستخدمه ، أى اقتصرفهـم معناه على القائل والمخاطب ، ويخفى على غيرهما ، فكأنه يشبه " الشفرة " التى يستخدمها رجال الأمن وسفراء الدول والجواسيس ، إذ يتفقون مع رؤسائهــــم على رموز معينة يتفاهمون بها حتى إذا وقعت هذه الرموز فى أيدى غيرهم لم يفهم منها شيئا .

وقد عرف هذا اللون عند العرب فى الجاهلية وسموه " اللحن " أو " الملاحن " والملاحن مايفزع إليها المجبر المضطر على اليمين المكره عليهـــا فيضمر خلاف مايظهر ، ليسلم من عادية الظالم ، ويتخلص من جنف الغاشم (١)

وساعد العرب على هذا أن فى اللغة العربية ألفاظا تحتمل الدلالة علـــى معنيين أو اكثر كأن تقول : مارأيته أى ماضربت رئته ، وماكَلَمْتُهُ : أى ماجرحته وهكذا (٢).

---

(١) انظر مقدمة كتاب الملاحين لابن دُريد : ٣

(٢) تاريخ آداب العرب : ٣/٤١٧.

وللفقهاء كلف بهذه الألفاظ ، لأنها تفتح لهم أبوابا كثيرة مما يسمونه بـ " الحيل الشرعية " ولهم فيها ألغاز ومطارحات ٠

ولقد كانت الملاحن فى الجاهلية وبعد الإسلام قليلة ، وأخبارها معدودة ولكنها لم تذع وتنتشر على ألسنة الناس إلا فى العصور العباسية المتأخرة وقد عرفت باسم " المعمى " .

ومن ذلك قول امرأة برمكية للخليفة هارون الرشيد : " أتم الله سعدك " وهى تقصد النيل منه إشارة إلى قول الشاعر :

إذا تم شيء بدا نقصه	ترقب زوالا إذا قيل تم

ومن المعمى انتقل الشعراء إلى : " الألغاز والتعمية " واللغز فى اللغة من الألغاز ، مصدر الفعل " ألغز " وألغز كلامه : إذا ورى وعرض ليخفى أو عمى كلامه ٠

واستخدم شعراء العصر الحديث الرمز ، وأطلقوا معه جوا من الإيحاءات والأضواء ، توضح الرمز ، وتنير قصد الشاعر : فهذا شاعر معاصر يقول فى قصيدة بعنوان أمتى :

أمتى هل لك بين الأمم	منبر للسيف أو للقلم
أتلقاك وطرفى مطرق	خجلاً من أمسك المنصرم

ويكاد الدمع يهمى عابثـــا ببقايا كبريـــاء الألـــم
كيف أقدمت وأحجمت ولـــم يشتف الثأر ولم تنتقـــى
رُبَّ " وامعتصماه " انطلقت مل ء افواه الصبايا اليتـــم
لامست اسماعهم لكنها لـــم تلامس نخوة المعتصـــم

إلى أن يقول :

لايلام الذئب فى عدوانــه
إن يك الراعى عدو الغنـــم

الشاعر أفعم قصيدته با لرمز : فمنبر السيف رمز للأمة المقاتلة ، ومنبر القلـــم رمز للأمة العالمة وكلمة " وامعتصماه " رمز للقصة المشهورة بأن فتاة عربيـــة استغاثت وهى فى بلاد الروم بالمعتصم وهو فى بغداد ، فانجدها ، وهانحـــن نسمع صرخات ستين ألف امرأة تنتهك أعراضهن فى البوسنه ولامجيب •

والذئب فى القصيدة رمز للراعى ، والغنم رمز ، للرعية •

١ــ التعريـض :

التعريض لغة : خلاف التصريح ، يقال عرض لى فلان تعريضـا إذا خرج بالشيء ولم يبين ، والمعاريض التورية بالشيء عن الشيء قال صلى الله عليه وسلم : " إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب (١)

---

(١) اللسان مادة عرض .

ويعتبر الإمام الشافعى رضى الله عنه – أول من تعرض إلى التعريض وتفسيره ، يقول فى باب التعريض بالخطبة من كتابه " الأم " "والتعريض كثير ، وهو خلاف التصريح ، وهو تعريض الرجل للمرأة بما يدلها به على إرادة خطبتها بغير تصريح ، وتجيبه بمثل ذلك (١).

وجعله ابن قتيبة من باب الكناية ، وعنى منه مايبلغ به الشخص إرادته بوجه ألطف وأحسن من الكشف والتصريح .

فالتعريض فى البلاغة – هو أن يطلق الكلام ، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق نحو قولك للمؤذى :(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) تعريضا ينفى صفة الإسلام عن المؤذى .

العرب تستعمل التعريض فى كلامها فتبلغ إرادتها بوجه ألطف وأحسن من الكشف والتصريح ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف فى كل وجه ولا يقولون : (فلان لايحسن التعريض) إلا ثلبًا وقد جعله الله فى خطبة النساء جائزا فقال :" ولاجناح عليكم فيما عرضتم به من خِطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم (٢)

---

(١) الام : ١٧١/٨

(٢) البقرة : ٢٣٥

ولم يُجز التصريح والتعريض في الخِطبة أن يقول للمرأة : (والله إنك لجميلة ، وإنك لشابة ،
ولعل الله أن يرزقك بعلا صالحا)

ومن أمثلة التعريض قوله تعالى في شأن قوم نوح :
" قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَانَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا ، وَمَانَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَانَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (١)

فقوله : " مانراك إلا بشرا مثلنا " تعريض غايته أن ينفوا عنه أي ميزة له عليهم وأنه ليس أحق منهم بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم .

مثال آخر :
وقفت امرأة على قيس بن عبادة فقالت : (أشكو إليك قلة الفأر في بيتي ، فقال : (ما أحسن ما وَرّت عن حاجتها ، املأ والها بيتها خبزا وسمنا ولحما)
فهنا تعريض من المرأة حسن الموقع .

ومثله قول المتنبي يعرّض بسيف الدولة وهو يمدح كافورا :

---

(١) هـود : ٢٧ .

إنا الجودُ لم يُرزق خلاصا من الأذى

فلا الحمدُ مكسوبا ولا المالُ باقيـــــا

وفى مسرحية أهل الكهف لتوفيق الحكيم يخاطب مشلينيا بريسكا الثانية التـــى اتهمته بالجنون قائلا :

" لأنْ أكون مجنونا ، خير من أن أكون خائنا " فحديثه هذا تعريض ببريسكا غرضه أن ينسب إليها صفة الخيانة .

فالتعريض إذن — هو ترك التصريح بما يدل على الغرض ،وذكره بكـــلام آخر يشير إليه من طريق السياق والفحوى ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليـــه جئتك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا : وحسبـــك بالتسليم منى تقاضيا .

بلاغـــــة الكتابـــــــــة

بلاغـــة الكنايـــة

الكناية مظهر من مظاهر البلاغة ، وأسلوب من أساليب البيان ،وغايـــة لايقوى على الوصول إليها إلا كل بليغ متمرس ، لطف طبعه ، وصفت قريحته .

والسر فى بلاغتها أنها فى صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلهـــا ، والقضية فى طيها برهانها ، ولهذا كانت أبلغ من الإفصاح ، وأشد وقعا مـــن التصريح .

إنها تحمل فى طواياها نفحة من نفحات المبالغة ، تضفى على المعنـــى حُسنا وبهاء ، وتزيد الصورة وضوحا وجلاء .

ومن أسباب بلاغتها أنها تضع لك المعانى فى صورة المحسات ، وتلـــك هى خاصة الفنون ، فإن المصور إذا رسم صورة للأمل أو اليأس بهـــرك وجعلك ترى ماكنت تعجز عن التعبير عنه واضحا ملموسا .

كذلك فإنها تؤدى إليك المعنى الكبير فى قليل من اللفظ ، وذلك هـــو الإيجاز الذى يمثل عنصراً من عناصر رفيع التعبير والإعجاز .

وهى بالإضافة إلى هذا كله وسيلة للتعبير عن أمور لاتحب أن تصـــرح بها ، ولا أن تذكرها باسمها الأصيل .. وليس إلا الكناية من يقوم بهذا العبء ويحقق لك ماتريد .

فلو قرأت قوله تعالى : (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً) (١)

ألا ترى أن التعبير عن البخل . باليد المغلولة إلى العنق ، فيه تصوير لهذه الخلة المذمومة فى صورة بغيضة منفرة ؟فهذه اليد التى غُلت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد ، وهذا التعبير التصويرى مثّل لك صورة البخيل الذى لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية مجسمة ، محسة ، كأنك تراها وتلمسها .وكانت الكناية وسيلة إلى هذا الهدف المنشود .

ولو قرأنا قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) (٢) لوجدنا كيف مثّلت الآية الغيبة بأكل لحم الإنسان .. ولكن أى إنسان هنا ؟ إنه أخ .. وأن المغتاب يأكل لحم أخيه ، وأى أخ هنا ، إنه الأخ الميت الذى تفسّخ لحمه ، وأنتن ، وكان للدود فيه حظ ونصيب .. ومن يستطيع أن يُقبل على أكل لحم إنسان أخ ميت ، متفسخ ؟

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٢٩.

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٢.

هذا الاغتياب ذكر لمساوئ الناس ، وتمزيق لأعراضهم ، ونهش لسمعتهم وغض لفضائلهم ، لافى وجوههم ولا بين أيديهم ، وإنما من وراء ظهورهم وأنه لفعل الجبناء ، الضعفاء ، الذين لايظهرون قوتهم إلا فى الخلاء وعند فراغ الساحة من الرجال .. م وهؤلاء الذين يغتابون الناس مثلهم كمثل التافهين والحشرات ، والهوام ، الذين ينتظرون موت الإنسان ، ليكون بلا عقل ، ولاحس ، ولاشعور لينهشوا لحمه ، وإن كان نتنا ، وذلك لأنهم لم يعتادوا الأطايب فى الحياة ، وإنما استساغوا الأقذار والأنتان .

ألا تحس بروعة هذه الكناية ، وجمال تصويرها وحسن أدائها ؟؟..
اقرأ الآن قوله تعالى : " مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ، قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ...) (١)

تجد الكناية فى قوله (كانا يأكلان الطعام) وتستطيع أن تجد لها معنيين معنى قريبا هو الذى يتبادر إلى ذهنك للوهلة الأولى ، لكنه معنى غير مراد ، إنما المقصود به ماوراء أكل الطعام ، ومايشير إليه ذلك الأكل ... وتلك هى الكناية ..

والروعة فى هذا التعبير أنه تعالى أراد أن يصف السيد المسيح ـ عليه السلام ـ بالصفات البشرية ، فعبّر عن ذلك بأكل الطعام ، وفى هذا التعبير

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٥.

أدب عظيم ، وذوق رفيع ورقة مابعدها من مزيد .. إن أكل الطعام يتبعه هضم ، والمهضوم يسرى فى الجسد منه شىء ويزيد منه شىء آخر وهـــذا المتبقى يخرج من سبيله المعلوم ..

أرأيت إلى الكناية ، وروعة استعمالها ، وكيف حادت عن التصريح إلـــى التلميح ..؟

وانظر فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم لحادى الإبل " أنجشـــة " الذى كان يحدو ، فتطير الإبل بسرعة .. (رفقا بالقوارير) .

أرأيت إلى هذه الكناية الرائعة ، وماتحملة من رقة وعطف وحنان تجـــاه النساء الظاعنات الراكبات الإبل ؟؟..

واقرأ أبيات المتنبى وهو يعرِّض فيها بسيف الدولة بينما هو فى الظاهـــر يمدح كافورا :

رحلتُ فكم باكٍ باجفانِ شـــادنٍ ... عليّ ، وكم باك بأجفانِ ضيغـــم

وما ربّة القرْطِ المليح مكانـــه ... بأجزعَ من ربِّ الحسام المصمّـــمِ

فلو كان مابى من حبيبٍ مقنّـــع ... عذرتُ ولكن من حبيبٍ معمّـــم

رمى واتّقى رمْيِى ومن دونِ ما اتّقـى ... هوىً كاسر كفّى وقوسِي وأسهمـــى

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءت ظنونــه ... وصدّق ما يعتاده من توهّـــم

فإنه كنّى عن سيف الدولة بالحبيب المعمم ، ثم وصفه بالغدر الذى يدعى أنه من شيمة النساء ، ثم لامه على مبادهته بالعدوان ، ثم رماه بالجبن لأنه يرمى ويتقى الرمى بالاستتار خلف غيره • على أن المتنبى لايجاز به على الشر بمثله لأنه لايزال يحمل له بين جوانحه هوى قديما يكسر كفه وقوسه وأسهمه إذا حاول النضال • ثم وصفه بأنه سيى ء الظن بأصدقائه لأنه سيىء الفعل ، كثير الأوهام والظنون حتى ليظن أن الناس جميعا مثله فى سوء الفعل ، وضعف الوفاء •• وانظر كيف نال المتنبى من سيف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفا واحدا •

الباب الخامس

الكناية في ضوء تصور البلاغيين القدامى

الدراسات المبكرة

الكناية

مـو بحث الكناية بمراحل مختلفة ، ولهذا حاولنا تصنيف الدارسيـن لها فى هذه الحقبة حتى يمكننا تلمس التطور الذى حدث فى دراسة هذا البا ب على أقلام هؤلاء العلماء إلى أن جاء (عبدالقاهر) الذى يمثل مرحلـــــة النضج فى تحليل نصوص البلاغة وتذوقها .

وهذه الدراسات التى سبقت عبدالقاهر وإن بدأت ساذجة كما عنــــــد (أبى عبيــدة) ، إلا أنها انتقلت نقلة كبيرة عند (الجاحظ) و (المبرد) و (عبدالله بن المعتز) فهى عندهم لم تعد ملاحظات متفرقة وانما اصبحـــت تختص بدراسات فى أبواب معينة بها ، بل جرت هناك محاولات لتقنينها كمـــا عند المبــرد .

ثــم جاء (قدامة) لينتقل بها نقله كبيرة فيضع لها تعريفا يميزهــا عن غيرها ، ويدرسها فيه دراسة لم يخرج فيها عــن مصطلح الكناية ، إلا أن قدامة لم يدرسها باسم الكناية ، ولم يشر إلى هذا الاسم ، ولكنه درسها تحـت مصطلح الإرداف . ودراسة مسائل البلاغة فى هذا الزمن المبكر لها أهمية عندنا لأنها تكشف لنا أحوال هذه القضايا وهى بذور متفرقة فى كلام العلماء ثـــــم نراها وهى تتنامى شيئا فشيئا .

وتلمس الحقائق العلمية فى هذه المصادر الأولى أدق وأغمض وأكثـــــر حاجة إلى المراجعة والنظر . وهناك شئ آخر هو أن صاحب هذا البحث تفــرغ لدراسة " الكناية " ويرى لزاما عليه ألا نتجاوز هـــذه الحقبة مهما كانت نتائـــج

الخوض فيها ، وقد أشرنا الى أن فى هذه المرحلة جهودا سخية ونافعة تمثل أصولا مهمة فى مرحلة تنضج الدراسة كما سنرى فى العلاقة بين فكر (عبدالقاهر) و (قدامه) •

ومما استحكم عندنا أن دراسة جهود الأوائل حول باب من الأبواب الذى يظن أنهم خاضوا فيه ضرورة لازمة •

والمهم عندنا أن تكون الدراسة قائمة على الفهم العلمى والأناة ، وأن تكون النتائج دقيقة ومطابقة لما فى هذه المصادر من مادة •

والدراسة فى هذه الحقبة يمكن تصنيفها الى طورين :

الطور الأول :

وقد كان مفهوم الدراسة فيه مفهوما لغويا غالبا •ويتمثل هذا الطور فى دراسة (أبى عبيدة ، والجاحظ ، والمبرد ، وابن المعتز)

الطور الثانى :

وهو طور درس فيه أسلوب الكناية بالمصطلح البلاغى حينا ،وبالمفهوم اللغوى حينا آخر ، ويتمثل فى دراسة (قدامة ، والعسكرى ، وابن رشيق والخفاجى •

المفهوم اللغوى للكناية :

لعل أبا عبيدة [1] (ت ٢١٠هـ) هو أول من درس الكناية بهذا المفهوم فى كتابه (مجاز القرآن) ، ومعلوم أن ابا عبيدة لايقصد بكلمه (مجاز) المصطلح البلاغى ، وإنما يعنى مجازى المعانى فى الأساليب التى يسلكها القرآن الكريم فى تعبيراته ، ويعد (مجاز القرآن) المحاولة الأولى فى دراسة المجاز القرآنى بمعناه العام مع مقارنته بماجاء فى دراسة الشعر العربى ، وإن كانت تشاركه كتب فى تحديد مسالك المعانى وبيان المراد من الجملة القرآنية إلا أننا وجدناه أول من أطلق لفظ " المجاز " على كتابه هذا . وقد مد الكتاب الدراسات البلاغية بذخيرة موفورة من الشعر العربى القديم .

ونجد هذا المفهوم اللغوى عند (أبى عبيدة) فى تحديد مجاز هذه الآية الكريمة فى قوله : " ومن مجاز مايحول خبره إلى شئ من سببه ويترك خبره هو " قال : "فظلت أعناقهم لها خاضعين" حول الخبر إلى الكناية

---

(١) هو ابو عبيدة معمر بن المثنى . وكتابه (مجاز القرآن) ليس كتابا بلاغيا بالمعنى المعروف وإنما هو فى تفسير الآيات القرآنية ومافيها من غريب اللغة ووجوه نظم القرآن التى لها نظائر فى كلام العرب . انظر احمد مطلوب مناهج بلاغية ص ٨٣ .

التى فى آخر الأعناق

أراد بتحويل الخبر (إلى شىء من سببه) : وصف الاعنـــــاق بالخضوع محولا عن وصف الكفار بالخضوع ، والمقصود بالكناية فى آخـــــر الأعناق هنا هو الضمير فى قوله تعالى : " أعناقهم " •

فالمفهوم هنا عن أبى عبيدة مفهوم لغوى للكناية وهو معنى الســتر والخفا لأن الضمير فى قوله تعالى (أعناقهم) وهو الهاء ستر للكفار والتقدير له (أعناق الكفار) ولما كان الضمير ساترا لكلمة الكفار أطلق عليه أبو عبيـدة لفظ الكناية •

كما أنه يطلق لفظ الكناية أيضا على " ما " موصوله أو مصدريـــة ونجد هذا فى قوله " ومن مجاز ماجاء من الكنايات فى مواضع الاسما بــــدلا منهن قال : " انما صنعوا كيد ساحر فمعنى " ما " معنى الاسم مجـــازه ان صنيعهم كيد ساحر •

فالمفهوم هنا لايختلف عن سابقة وهو الستر وابو عبيدة نفسه يحـدد ذلك فى قوله : " ومن مجاز ماجا من الكنايات فى مواضع الاسما فكأنه سماها كناية لانها كنت الاسم أى سترته لانها جاءت فى مكانه •

ومـع أن المفهوم اللغوى هو الاصل فى دراسة (ابى عبيدة) للكناية الا أننا نجده يورد بعـض المعانى التى جرى عليها الاصطلاح وذلك فى دراسة

لبعض الآيات مثل قوله تعالى : " أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ " (١) يقول : " كناية عن حاجة ذى البطن " (٢) وفى قوله تعالى : " أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ " (٣) كناية عن الغشيان " (٤)

ويعنى هذا أن مفهوم الكناية (عند أبى عبيدة) قد تطور من مفهوم لغوى إلى مفهوم جرى عليه الاصطلاح ، وهذه الإشارات (عند أبى عبيدة) وإن كانت ساذجة إلا أنها جديرة بالمناقشة باعتبارها القاعدة التى بنى عليها من جاء بعده .

ومن الدارسين للكناية بالمفهوم اللغوى أيضا (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) (ت ٢٢٥هـ) وإن كان المفهوم لغويا عند (الجاحظ) إلا أن الذى أغرانا بدراستة هو عنايته بهذا الأسلوب مما جعل الكناية تدخل عنده مرحله جديدة . فالكناية لم تعد قاصرة على الملاحظات المتفرقة كما هو الحال عند (أبى عبيدة) وإنما اختصت بأبواب بعينها حيث أفرد لها الجاحظ بابا فى كتاب " الحيوان " وسماه " باب من الفطن وفهم الكنايات والرطانات

---

(١) سورة المائدة آية ٦ .

(٢) مجاز القرآن ١٢٨/١

(٣) سورة المائدة آية ٦

(٤) مجاز القرآن ١ : ١٥٥

(٥) الحيوان للجاحظ ٣ : ١٢٤ .

فالجاحـــظ أورد كثيرا من أقوال العرب وأشعارهم فى هذا البـــاب من ذلك قوله " ... أخبرنى شيخ من بنى العنبر قال : أسر بنو شيبـــان رجلا من بنى العنبر ، قال : دعونى حتى أُرسل إلى أهلى ليفدونى قالوا : على ألا تكلم الرسول إلا بين أيدينا ، قال : نعم ، قال : فقال للرســـول : ائت أهلى فقل لهم : إن الشجر قد أورق ، وقل : إن النساء قد اشتكـــت وخرزت القرب ... ثم قال له : اذهب إلى أهلى فقل لهم : عروا جملـــى الأصهب ، واركبوا ناقتى الحمراء ، وسلوا جارنا عن أمرى ــ وكان حـــارث صديقا له ــ فذهب الرسول فأخبرهم فدعوا حارثا فقصّ عليه الرسول القصـــة فقال : إن الشجر قد أورق ، فقد تسلح القوم ، وأما قوله : إن النســـاء قد اشتكت وخرزت القرب ، فيقول : قد اتخذت الشكا وخرزت القرب للغـــزو واما قوله : عروا جملى الاصهب ، فيقول : ارتحلوا عن الصمان وامـــا قوله اركبوا ناقتى الحمراء ، فيقول انزلوا الدهناء وكان القوم قد تهيئوا لغزوهم فخافوا أن ينذرهم فأنذرهم وهم لايشعرون فجاء القوم يطلبونهم فلم يجدوهم [1]

فإيراق الشجرة عند الجاحظ هنا كناية عن تسلح القوم ، واتخـــاذ النساء الشكا [2] ، وخرزهن القرب كناية عن تجهيز الأمتعة للغزو ، وتجهيـــز

---

(١) الحيـوان ٣ : ١٢٤.

(٢) الشكا ، بالكسر جمع شكوة بالفتح وعاء للماء أو اللبن من أدم.

الجمل الأصهب كناية عن الارتحال ، وركوب الناقة الحمراء كناية عن نـزول الدهنـاء .

والمتأمـل فى تعليقات (الجاحظ) على هذا النص يجده قد دخل بالكناية مدخلا جديدا فى معالجة أساليب أرحب من دائرة الجملة ، فالنـص عبارة عن رسالة شفهية من أعرابى لقومه ، يحذرهم خطر قوم استعدوا لغزوهم وهو عند (الجاحـظ) يقوم على أسلوب الكناية الذى هو عنده بمعنـى الستـر والخفاء ، وهذا يفهم من النص نفسه ، فالأعرابى ذكر هذا عـلى مسمع من القوم الغزاة ولكنهم لم يفطنوا لما فيه من الكنايات ، وهذا غـرض من أغراض الكناية ذكره العلماء وهو أنه يُلجأ إليها حين يراد الإخفاء حتـى لايُدرك المقصود حين لايراد إدراكه . وكما قلت فإن المفهوم هنا لم يخـرج عن المفهوم اللغوى ولكنه انطلق داخله ليعبر فى مسلك أرحب . ويلاحـظ أن الجاحظ جمع فى هذا الباب بين الكناية ، والتشبيه ، والاستعارة .

والجاحظ لم يقف بحثه للكناية عند هذا الباب ولكنه أشار اليهـا فى مواضع مختلفه فى كتبه ، وهذا الباب لم يشر إليه الدارسون ، فكثير من الذين كتبوا عن الكناية عند الجاحظ تعرضوا لبعض إشاراته الكناية فى كتبه ، ولكنهـم لم يشيروا لهذا الباب الذى خص به الكنايـة (١)

---

(١) البيان العربى : ٧٧، . بدوى طبانه .

والكناية عند الجاحظ أسلوب تقتضيه الضرورة فهو عنده أبلغ من التصريح اذا كان التصريح لايحسن أو كان متعذرا ، والتصريح أبلغ اذا كانت الكناية لا تفي بالغرض ، يقول في ذلك : " وقال بعض أهل الهند .. ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذ كان الإفصاح أوعر طريقة ".

ويقول في خطبه (قيس بن خارجة) التي خطب فيها يوما الى الليل " ... فقيل لابي يعقوب هلا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهي عن التقاطع أو ليس الأمر بالصلة هو النهي عن القطيعة ؟ قال : أو ماعلمت أن الكناية والتعريض لايعملان في العقول عمل الافصاح والكشف ..." (١)

فهذه نقلة كبيرة انتقل فيها (الجاحظ) بأسلوب الكنايةحيث سار بها في مسالك مختلفة مع تبين قيمتها التعبيرية ، ومواضع صلاحيتها وعدم صلاحيتها في الاستعمال وذلك في قول (الهندي) و (أبي يعقوب) (٢)

ويتمثل هذا الطور اللغوي أيضا في دراسة (المبرد) (ت٢٨٥هـ) وهي دراسة حاول فيها المبرد تصنيف الكناية وتقسيمها مع التعمق في دراسة وتحليل أسلوبها .

---

(١) المصدر السابق نفسه ١ : ٨٨

(٢) انظر الفنون البلاغية في بيان أبي عثمان للدكتور علي العماري ، مجلة البحث العلمي العدد الخامس ص ٢٠٧ .

يقول أبو العباس فى كتابه الكامل " والكلام يجرى على ضروب ،فمنه ما يكون فى الأصل لنفسه ، ومنه مايكنى عنه بغيره ، ومنه مايقع مثلا فيكون أبلغ فى الوصف "(١) فالكناية عنده إنما ضرب من ضروب الكلام الذى لايقصد به معانى الفاظه وانما يكنى به عن غيره .

ولم يقف (المبرد) عند هذا الحد أعنى أنه لم يقف بها عند اعتبارها ضربا من ضروب الكلام الذى تكون الدلالة فيه غير مباشرة ،بل قسمها إلى ثلاثة أقسام ولعل محاولته هى المحاولة الأولى لتقسيمها .

يقول المبرد " والكناية تقع على ثلاثة أضرب : أحدهما التعمية والتغطية كقول النابغة :

أُكَنِّى بِغَيْرِ اسمِها وَقَدْ عَلِمَ اللهُ خَفِيَّاتِ كُلِّ مُكْتَتَمِ

وقال ذو الرمة :

أحبُّ المكان القفرَ من أجلِ أنَّنِى ... بهِ أتغنَّى باسمِها غَيْرَ مُعْجَمِ (٢)

---

(١) الكامل فى اللغة والأدب ٢ : ٥

(٢) أى غير تكنيه بل صراحة .

وقال احد القرشيين وهو محمد بن نمير الثقفى :

وَقَدْ أَرْسَلَتْ فِي السِّرِّ أنْ قَدْ فَضَحْتَنِـي ... وَقَدْ بُحْتَ بِاسْمِي فِي النَّسِيبِ وَمَا تَكْنِي (١)

فالكناية فى هذا الضرب قائمة عنده على الستر وعدم التصريح " أكنى بغير اسمها " " غير معجم " " بحت باسمى فى النسيب وماتكنى " ٠

أما الضرب الثانى من ضروب الكناية فله معان أقوى وأحسن عند المبرد يقول فى ذلك : " ويكون من الكناية وذاك أحسنها الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى مايدل على معناه من غيره ٠

قال الله وله المثل الأعلى " أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ" (٢) وقال : " أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ " (٣) والملامسة فى قول أهل المدينة مالك وأصحابه غير كناية انما هو اللمس بعينه ٠

وكذلك قولهم فى قضاء الحاجة : جاء فلان من الغائط ، قال عمرو بن معدى كرب الزبيدى :

فَكَمْ مِنْ غَائِطٍ مِنْ دُونِ سَلْمَى ... قَلِيلُ الأُنْسِ لَيْسَ بِهِ كَتِيعُ

---

(١) الكامل فى اللغة والادب ٢ : ٥

(٢) سورة البقرة آية ١٨٧ ٠

(٣) سورة المائدة آية ٦ ٠

وقال الله جل وعز في المسيح بن مريم وأمه (صلى الله عليهما) (كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ) وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة .

وقال : (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) [٢] وإنما هي كناية عن الفروج [٣] " .

قلنا إن المبرد عدَّ هذا الضرب من أحسن ضروب الكناية لأنه يمثل عنده ستر اللفظ الخسيس إلى معنى يدل عليه ، وهذا في حد ذاته يمثل عندنا محاولة من المبرد في دراسة أسلوب الكناية دراسة تقوم على الموازنة بين أساليبها .

والعبود هنا يشير إلى قضية كبيرة ومهمة في درس الكناية ، وذلك في خلافه مع المالكية حول ملامسة النساء في الآية الكريمة ، إذ يورد رأي المالكية الذي يعتبر الملامسة حقيقة ، وهي عنده كناية ولعل هذا الخلاف هو أول بذرة حول موضوع الكناية أهو حقيقة ، أم مجاز ، أم حالة وسطى ، كما أنه يشير إلى حقيقة جوهرية انتهى إليها المتأخرون وعدوها أصل الفروق وهي أن الكناية يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي بخلاف المجاز الذي لا يجوز فيه ذلك .

---

(١) سورة المائدة آية ٧٥
(٢) سورة فصلت آية ٢١
(٣) الكامل في اللغة والادب ٢ : ٦٠

والثالث من أضرب الكناية عند " المبرد " التفخيم والتعظيم ومنه اشتقت الكنية وهى أن يعظم الرجل أن يدعى باسمه ووقعت فى الكلام على ضربين : " وقعت فى الصبى على جهة التفاؤل بأن يكون لعولد ويدعى بولده كناية عن اسمه ، وفى الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه وإنما يقال كنى بكذا عن كذا أى ترك كذا إلى كذا لبعض ماذكرنا " (١)

وهذا الضرب أيضا يقوم على المفهوم اللغوى وهو الكنية ويعنى ذلك ستر الاسم واخفاءه ، سواء كانت الكنية للصغير أم للكبير وهو مشتق من الكناية •ونقول إن المبرد لم يشر إلى الكناية فحسب ولكنه سلك بها طرقا متعددة ، حاول فيها الموازنة بين أساليبها بين حسن وأحسن كما حاول تقسيمها إلى أضرب مختلفة •كذلك لمس فيها بعض القضايا المهمة والأساسية والمبرد إن لم يكن قد عرّف الكناية تعريفا اصطلاحيا لكنه بلا شك أول من حاول تقسيمها •

إن هذه الأضرب التى ذكرها المبرد لم يدخل واحد منها فى الأقسام التى اصطلح عليها البلاغيون ، ولكنها تعتبر ضمن أغراض الكناية أو السياقات التى يعالجها أسلوب الكناية ، وهذا كله يعد تطورا ملحوظا فى دراسة الكناية عند المبرد •

---

(١) الكامل فى اللغة والادب : ٢ : ٦

ومن الدراسات التي لمسنا فيها مجهودا جديدا يضاف للكناية ، دراسة عبدالله ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) ٠ ولعل (ابن المعتز)أول من كتب في الكناية بالمعنى التخصصي إذ أن كتابه لم يخرج عن موضوع البلاغة ، علما بأن من سبقوه (كالجاحظ) و (المبرد) كانت كتاباتهم في فنون الأدب ، واللغة وغيرها من العلوم ، ولهذا فإن كتاب البديع يعتبر أول كتاب اختص بعلم البلاغة دون غيره من العلوم ٠

ويدرس (ابن المعتز) في كتابه ثمانية عشر فنا من فنون الكلام أو محسنات الكلام خص الخمسة الأولى منها باسم (البديع) وهي : الاستعاره التجنيس ، المطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ماتقدمها ، والمذهب الكلامي الذي ينسبه إلى (الجاحظ) ثم أورد ثلاثة عشر فنا أخرى سماها محاسن الكلام ، وأحد هذه الفنون (الكناية والتعريض) ، فهما عنده من محاسن الكلام ٠٠٠ يقول في ذلك : " ومنها التعريض والكناية ٠ قال علي رضي الله عنه لعقيل ومعه كبش له : أحد الثلاثه أحمق فقال عقيل : أما أنا وكبشي فعاقلان ٠ وكان عروة بن الزبير اذا أسرع إليه إنسان بسوء لم يجبه ويقول : إني لاتركك رفعا لنفسي عنك ، فجرى بينه وبين علي بن عبدالله بن عباس كلام فأسرع إليه عروة بسوء فقال إني لأتركك لما تترك الناس له فاشتد ذلك على عروة "(١)

---

(١) البديع : ٦٤٠

وقال آخر فى حجام :

أبوك أبٌ مازالَ للناسِ موجعاً ... لأعناقِهِم نقرٌ كما ينقرُ الصقرُ
إذا عوّجَ الكتابُ يوماً سطورهم ... فليسَ بمعوجٍ له أبداً سطرُ (١)

والحق أن دراسة (ابن المعتز) للكناية لم تُضف جديدا ويمكن أن نقول إن دراسة (المبرد) و (الجاحظ) كانت أكثر عمقا من حيث تحليلها وتبيين قيمتها التعبيرية كما جاء فى دراستنا لهم ، فالملاحظات التى أبداها (ابن المعتز) هنا كلها من أسلوب التعريض سواء كان فى الحوار بين (على) و (عقيل) (رضى الله عنهما) أو بين (عروة) و (على بن عبدالله) أو فى الحجام ، وكلها ملاحظات عابرة لم يقف عندها (ابن المعتز) كثيرا وإن كان قد خص بها كتابه وعدها من محاسن الكلام .

وورود الكناية والتعريض ضمن محاسن الكلام عند ابن المعتز يجعلنا نتساءل ما الفرق بين البديع الذى يحصره ابن المعتز فى خمسة أبواب وبين محاسن الكلام التى ذكر منها ابن المعتز ثلاثة عشر فنا . وقال : إنها كثيرة لاينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها ؟ علما بأن هناك كثيرا من الباحثين ومنهم الدكتور (بدوى طبانه) يرون أن ابن المعتز يعتبر المحسنات من البديع .

يقول الدكتور طبانة " والسبب فى ذلك أن ابن المعتز ألف هـــذا الكتاب على مرحلتين وقد خص فى المرحلة الأولى الفنون الخمسة الأولى ، ولعله سمع بعد ذلك من بعض النقاد والمتتبعين اعتراضا على قصر البديع أكثـــر مما ذكـر فأقرهم على دعواهم وكتب بقية المحسنات " (١)

ونفهم من النص الذى اختتم به ابن المعتز الأبواب الخمسة وافتتح به المحسنات خلاف ذلك فابن المعتز ينبه إلى انتهاء البديع ويقول : " قـــد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا " ثم يقول : " وكأنى بالمعاند المغـرم بالاعتراض على الفضائل قد قال : البديع أكثر من هذا أو قال البديع بـــاب أو بابان من الفنون الخمسة التى قدمناها فيقل من يحكم عليه لأن البديع اسـم موضوع لفنون الشعر ..."(٢)

فليس فى هذا النص مايدل على أن ابن المعتز يعد محسنات الكـلا م التى ذكرها من البديع بل إنه يذكر بالنص أن البديع قد كمل عنده بهذه الأبـــواب الخمسة . ثم يدخل فى المحاسن بقوله : " ونحن الآن نذكر بعض محاســـن الكلا م والشعر ومحاسنها كثيرة لاينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها" (٣)

---

(١) البيان العربى ، د. بدوى ذطبانة : ٩٧

(٢) البديع : ٥٧ـ٥٨

(٣) المصدر نفسة : ٥٨.

ثم انظر هذا القول الفاصل منه : " ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام ولاضيق فى المعرفة فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ، ولم يأت غير رأينا فله اختياره إنها نظرة رجل عالم له رؤيته العلمية فى هذا الموضوع ، فمن شاء سار عليها ونهج نهجه ، ومن رأى خلاف ذلك فله ما رأى •

ويمكننا أن نقول بعد مناقشتنا لهذه الآراء لابن المعتز : إن البديع عنده من محاسن الكلام وليست محاسن الكلام من البديع •

ولعل ابن المعتز أراد من حصر البديع فى هذه الفنون الخمسة باعتبارها هى الأنواع التى أكثر منها الشعراء المحدثون حتى جاء أبو تمام واتخذها مذهبا ومقصدا فى شعره ، الأمر الذى أدى لقيام حركة نقدية كبيرة حول شعر أبى تمام

وبعد فيمكننا القول وفى ضوء هذه الدراسات المختلفة للكناية والتى كانت ترتكز على المفهوم اللغوى للكناية وهو معنى الستر والخفاء ، يمكننا أن نقول : إن الكناية تدرجت فى هذه المرحلة وخطت خطوات واسعة مهدت للدراسات التى تليها •

فإن كانت دراسة أبى عبيدة تقوم على الملاحظات المتفرقة ، فإن دراسة الجاحظ قد خصت الكناية بأبواب بعينها ، وناقشت أسلوب الكناية ، وحددت بعض مقتضياته التى يحسن فيها ، ثم جاء المبرد ليبدأ خطوة جديدة

هى تقسيم الكناية وتصنيفها ، فهى ضرب من ضروب الكلام الذى لايقصد بـــه معانى ألفاظه وإنما يكنى به عن غيره ، وهى ثلاثه أضرب تتفاضل فيما بينهـــا من حيث القدرة على التعبير •

وجاء ابن المعتز لتدخل دراسة البلاغة عنده بصفة عامه مرحلة التخصص وتصبـح الكناية عنده واحدة من محاسن الكلام •

وإن كان المفهوم اللغوى هو السائد لهذه الدراسات فإنها كذلك لـم تخـل من بعض الملاحظات الاصطلاحية •

الطـور الثانـي

الكنايـة بين المفهوم اللغوى والمصطلح البلاغى :

هذه مرحلة جديدة فى دراسة الكناية وهى المرحلة التى مهدت لدراسـة (عبدالقاهر) ومن بعده من العلماء ، وهى مرحلة تقترب من النضج حيـث أخذ العلماء فيها يتجهون إلى تحديد المفاهيم البيانية التى كانت تتسم بالعموم عند السابقين لهم ٠

والذى لاحظناه فى دراسة الكناية فى هذه الحقبة هو الخلاف فى مفهومها وفى تقنينها ، ولهذا حاولنا أن نجتهد فى البحث عن أسباب هذا الخلاف علنـا نهتدى إلى تفسيره وتبيينه ٠

ومن أهم الدراسات التى انتقلت بالكناية من المفهوم اللغوى إلـــى المصطلح البلاغى (قدامة) (ت ٣٣٧هـ) لأنه أول من عرفها باسم "الإرداف" وذلك فى دراسته لأنواع ائتلاف اللفظ والمعنى ٠ يقول قدامة : " ومن أنـواع ائتلاف اللفظ والمعنى الإرداف ، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى مـن المعانى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى بل يدل على معنى هو ردفـه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع "(١)

---

(١) نقد الشعر قدامه بن جعفر : ١٥٥

وهـذا التعريف الذى عرف به قدامة الإرداف وإن كان أول تعريـف اصطلاحى لها كما قلنا إلا أنه يعتبر تعريفا ناضجا تبعه فيه الكثير ممن جا بعده (كالعسكرى ، وعبدالقاهر ، والجرجانى ، وابن سنان) .

ومن مآثر قدامة الواضحة تحليلة للكناية تحليلا يتسم بالنضج البلاغـى وتوضيح المعنى الكنائى ، بخلاف من سبقه من الدارسين حيث كانت دراستهـم تكتفى بالقول : قوله كذا كناية عن كذا . أما قدامة فإنه لايدع الصورة حتى يبين المعنى واضحا من خلال تحليله لها . فيقول فى بيت عمر بن أبى ربيعة .

بعيدة مهوى القرط إما لنوفـل أبوها وإما عبد شمس وهاشـم

" وإنما أراد هذا الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به بـل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد ، وهو بعد مهوى القرط ويقول فى بيـت امرئ القيس :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشهـا نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضـل

وإنما أراد أن يذكر ترف هذه المرأة وأن لها من يكفيها ، فقال : نؤوم الضحـى وأن فتيت المسك يبقى إلى الضحى ، فوق فراشها ، وكذلك سائر البيت أى هـى لا تنتطق لتخدم ، ولكنها فى بيتها متفضلة ومعنى " عن " فى هذا البيـت معنى " من بعد " وكذلك قوله :

وقد أغتدى والطير فى وكناتهـا بمنجرد قيد الأوابـد هيكـل

فإنما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة وانه جواد ، فلم يتكلم باللفظ بعينـه

ولكن بأردافه ولواحقه المتابعة له ، وذلك أن سرعة إحضار الفرس يتبعها أن تكون الأوابد وهى الوحوش كالمقيدة له إذا نحا فى طلبها .

والناس يستجيدون لامرئ القيس هذه اللفظة فيقولون : هو أول من قيّد الأوابد وإنما غرابة الدلالة على جودة الفرس وسرعة حضوره فلو قال ذلك بلفظه لم يكن للناس من الاستجادة لقوله مثلهم عند إتيانه بالردف له " (١)

قلنا إن دراسة قدامة لهذا الأسلوب دراسة ناضجة من حيث التحليل وتحديد الأماكن فيها فهو لايكتفى بالإشارات ولكنه يتتبع الصورة خطوة خطوة حتى يصطاد معانيها ، ويحلل جزئياتها ، ليضعها أمامك جلية ، ثم يقول لك " وفى هذا برهان على أن وضعنا الإرداف من أوصاف الشعر ونعوته واقع بالصواب " (٢) .

والذى نلحظه أن الدراسة التى قام بها قدامه للإرداف هى الدراسة نفسها التى لاتزال قائمة فى دراسة الكناية ، ويعتبر هذا نضجا مبكرا فى دراسة قدامه . كذلك نلاحظ أنه كان دقيقا فى اختيار نصوصه فالنصوص التى درسها باسم الإرداف جميعها من أسلوب الكناية مع ملاحظة أن قدامه لم يستعمل مصطلح الكناية وإنما كان يستعمل مصطلح الإرداف .

---

(١) المصدر نفسه ١٥٧

(٢) المصدر السابق : نفسه ١٥٧ .

ومن سوابق قدامه فى دراسة هذا الأسلوب حديثه عن الوسائط وأثرها فى قرب المعنى وبعده وتعتبر هذه البادرة من القضايا النقدية المهمة فى البلاغة لما لها من تأثير واضح على النص .

يقول قدامة "ومن هذا النوع مايدخل فى الأبيات التى يسمونها أبيات معان . وذلك إذا ذكر الردف وحده ، وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر ، أو كانت بينه وبينه أرداف أخر ، كأنها وسائط وكثرت حتى لايظهر الشئ المطلوب بسرعة ، وهذا الباب إذا غمض لم يكن داخلا فى جملة مايذسب إلى جيد الشعر إذا كان من عيوب الشعر الانغلاق فى اللفظ وتعذر الفهم بمعناه "(١).

فهذا النص يشير إشارة واضحة إلى معرفة قدامه بالوسائط ، ودراسة تأثيرها على المعنى الشعرى ، وتعتبر دراسة الوسائط ذات تاثير مهم فى أسلوب الكناية وسنأتى للحديث عن هذه القضية فى دراستنا لمعيار جودة الكناية عند القدماء وعندها سيتضح لنا مدى سبق قدامه إلى هذه المسألة .

ونقول : إن دراسة قدامة للكناية كانت لاتهتم بالتقسيم والتبويب وإنما كانت تقوم على تحليل النصوص ، وتحديد معانيها ، وهى من هذه الناحية كانت دراسة ناضجة بدليل أننا لازلنا نسير عليها دون أن نضيف إليها شيئا جديدا فهو حقا رائد من رواد الكناية .

---

(١) المصدر السابق نفسه : ١٥٨.

أما دراسة الكناية بالمفهوم اللغوى حينا ، وبالمصطلح البلاغى حينا آخر فتتمثل فى دراسة (العسكرى) و (ابن رشيق) ، (ابن سنان) .

أما ابو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) فنجد أسلوب الكناية عنده موزعا بين الكناية والتعريض ، والإرداف ، والمماثلة . يقول عن الكناية : وهو أن تكنى عن الشئ وتعرض به ولاتصرح على حسب ماعملوا فى اللحن والتورية عن الشى كما فعل العنبرى إذ بعث إلى قومه بصرة شوك ، وصرة رمل وحنظلة بريد جاءتكم بنو حنظلة فى عدد كثير ككثرة الرمل والشوك " (١)

فالمفهوم هنا عند العسكرى لغوى يقوم على الستر والخفاء ، ورسالة العنبرى هنا عند العسكرى شبيهة برسالة العنبرى عند الجاحظ (٢) وربما كانت الرسالة واحدة أخذ كل واحد منهما جزءا منها ليستشهد به .

والعسكرى يعتبر "الكناية " واحدة من فنون البديع الذى قسمه الى خمسة وثلاثين فصلا ، أحدها (الكنايه والتعريض) بخلاف (ابن المعتز)

---

(١) كتاب الصناعتين : ٣٦٠

(٢) انظر دراسة الجاحظ : ٥

الذى لا يعتبرها من البديع . نجد أسلوب الكناية عنده كذلك فى (دراسته للإرداف) الذى هو فى حقيقته دراسة للكناية ولكن ربما كان العسكرى يفرّق بين المفهوم اللغوى للكناية ، والمعنى الاصطلاحى لها ، فالكناية بمعنى الستر والخفاء ، والإرداف بمعنى إراده الدلالة معنى من المعانى فتترك اللفظ الخاص به وتأتى بلفظ هو ردفه وتابع له .وهذا المفهوم يخالف مفهوم (قدامة) الذى لايفرق بين الكناية والارداف فكلاهما عنده بمعنى واحد . ومفهوم (قدامه) للكناية هو مفهوم عبدالقاهر نفسه كما سيأتى ، لأن عبدالقاهر لم يفرق بينهما فكلاهما عنده بمعنى واحد .

وكذلك نجد صورًا من الكناية فى باب " المماثلة " وذلك فى قوله : (فلا ن نقى الثوب) يريدون أنه لاعيب فيه و ليس موضوع نقاء الثوب للبراء ة للعيوب ، وإنما استعمل فيه تمثيلا " (١)

ومرجع ذلك أنه لم يحكم النظر إلى طريق الدلالة والذى عليه معتمد العلماء فى التفريق بين الأساليب ، فنظر إلى مثل قولهم " نقى الثوب " على أنه مستعمل فى طهارة البدن استعمال المثل ، ولو أنه نظر إلى نقاء الثو ب رادف للطهارة لأدخلة باب الإرداف .

---

(١) كتاب الصناعتين : ٣٦٤

ونخلص من ذلك إلى أن العسكرى لم يتضح عنده مفهوم مصطلح الكناية بصورة واضحة مما جعله يخلط فى دراسته حينا ، ويفرق بين أساليبه حينا آخر . وقلنا إن ذلك راجع إلى تفريقة بين المعنيين اللغوى والاصطلاحى.

ودراسة ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ) ـ لأسلوب الكناية لم تخرج أيضا عن هذا الخلط فهو يشير إليها فى أبواب متفرقة مختلفة حيث تحدث عنها فى باب " المجاز" و " الإشارة " فهى فى باب المجاز فى قوله : " وكذلك الكناية فى مثل قوله عز وجل إخبارا عن عيسى ومريم عليهما السلام (كانا يأكلان الطعام)[١] كناية عما يكون عنه من حاجة الانسان "[٢] ثم هو يذكرها كذلك فى باب " الإشارة " الذى يشتمل على عدة أنواع عند ابن رشيق فهو يشمل " الإيماء ، التفخيم ، التعريض ، الكناية ، التلويح ، التمثيل ، الرمز ، اللمحة ، اللغز ، التعمية ، الحذف ، التورية ، والتتبع .

والملاحظ فى ذلك أن كثيرا من أضرب باب " الإشارة " يندرج فى باب الكناية بمفهومه الاصطلاحى وذلك كالتلويح ، والرمز ، والإشارة ، يقول فى التورية التى هى أحد أقسام باب الإشارة : " وأما التورية فى أشعار العرب

---

(١) ورة المائدة آية ٧٥

(٢) العمدة لابن رشيق ١ : ١٦٨ .

فإنما هي كناية بشجرة أو شاه ، أو بيضة ، أو ناقة ، أو مهرة ، أو ماشاكل ذلك كقول المسيب بن علس :

دعا شجرَ الأرضِ داعيهُمُ لينصرَه السِّدْرُ والأَثْأَبُ

فكنى بالشجر عن الناس وهم يقولون في الكلام المنثور : " جاء فلان بالشوك والشجر إذا جاء بجيش عظيم "(١) .

الذي وجدناه في دراسة ابن رشيق للتورية أن معظم الأساليب التي درسها في التورية هي من أسلوب الكناية ، ولعل السبب في ذلك هو المفهوم اللغوي إذ أن معنى التورية اللغوي هو الستر والخفاء ، وهو لايختلف عن معنى الكناية اللغوي كثيرا .

أما الخلط الآخر في دراسة الكناية فقد جاء في باب " التتبع " وهو باب وضع له تعريفا شبيها بتعريف قدامه " للإرداف " وهو من أقسام باب (الإشارة) كذلك .

يقول فيه : " التتبع ، وقوم يسمونه التجاوز ، وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ، ويذكر مايتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه

---

(١) العمدة ١ :٣١٣ .

وأول من أشار إلى ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشهـــا نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضــل

فقوله : " ويضحى فتيت المسك " تتبع وقوله : " نؤوم الضحى " تتبع ثان وقوله : " لم تنتطق عن تفضل " تتبع ثالث وإنما أراد أن يصفها بالترفـــة والنعمة وقلة الامتهان في الخدمة وأنها شريفة مكفية المؤونه ، فجاء بما يتبـــع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة (١) فهذه الصفات تابعة للمعاني التي أراد الشاعر التعبير عنها .

وكما قلت فإن التعريف شبيه بالتعريف الذى وضعه قدامة (للإرداف) فالمعنى المقصود واحد وإن اختلف التعبير ، فما يعنيه قدامه بقوله : " أن يريد الشاعر الدلالة على معنى من المعاني " هو مايقصدهابن رشيق بقوله : " أن يريد الشاعر ذكر الشيء "ومايقصده قدامه بقوله : " فلا يأتي باللفظ الـــدال على ذلك " هو مايعنيه الآخر بقوله : " فيتجاوزه " وكذلك عند قدامه : "بـل يدل على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع " هـــو مايعنيه ابن رشيق بقوله : أن يريد الشاعر ذكر الشيء " ومايقصده قدامـــة بقوله : " فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك " هو مايعنيه الآخر بقوله : فيتجاوزه " وكذلك عند قدامة : " بل يدل على معنى هو ردفه وتابع له فـإذ ا دل على التابع أبان عن المتبوع " هو مايعنيه ابن رشيق بقوله : " ويذكـــر

---

(١) المصدر السابق نفسه ١ : ٣١٥ .

مايتبعه وينوب عنه فى الدلالة " .

والذى نريد أن نقف عنده هو : ما الذى حمل (ابن رشيق) علـى دراسة أسلوب الكناية في أبواب مختلفة " كالمجاز " و " الإشارة " وفى فنـون مختلفة " كالتورية" و " التتبع " ؟ ! وسبب الخلط عندى يفسره ماكتبـــه فى حديثه عن التورية بقوله : وأما التورية فى أشعار العرب فإنما هى كنايـــة بشجرة ، أو بيضه ، أو ناقة ، أو مهرة ، أو ماشاكل ذلك .. "(١)

فالأمثلة التى ذكرها هنا جميعها تكنى عن المرأة بلفظة مفردة ،مردها الستر والخفاء وهذا يعود بنا لقولنا إن المفهوم اللغوى له فحسب هو سبـــب الخلط بين " الكناية " و " التورية " و " التتبع " علما بأن " التتبع " عندهغير معدود فى أنواع الكناية ..

ودراسة ابن رشيق مع كثرتها إلا أنها تفتقر إلى التحليل والتذوق .وهى وإن كانت أكثر ثراء من دراسة " العسكرى " لكنها تبتعد عن النضج الفنـى إذ أنها تفرق بين المفهوم اللغو ى والاصطلاحى لأسلوب الكناية الذى اقتـــرب من النضج عند قدامه .

---

(١) المصدر نفسة ١ : ٣١١

أمـــا دراسة ابن سنان الخفاجي ـ (ت ٤٦٦ هـ) ـ لأسلـــوب الكناية فقد جاءت في موضعين : الأول تحت اسم الكناية وذلك في دراستـــه للأجناس التي يجب فيها وضع الألفاظ موضعها وذلك في قوله : " ومن هـــذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضوع الذى لايحسن التصريح فيه وذلك أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة "(١) .

والذى نلحظه هنا أن الخفاجي جعل الكناية أصلا من أصول الفصاحة وشرطا من شروط البلاغة ، بل وهى واجبة يؤدى العدول عنها إلى فقـــدان الأسلوب معنى البلاغة والفصاحة وذلك فى قوله : " وإنما قلنا فى الموضع الذى لايحسن فيه التصريح لأن مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر يليق بها ذلـــك ولاتكون الكناية فيها مرضية فإن لكل مقام مقالا ولكل غرض فنا وأسلوبا (٢)

فأسلوب الكناية إذًا له مقامه وغرضه الذى يحسن فيه عند الخفاجي.
بعد هذا يأتى الخفاجي لدراسة بعض الأساليب ليحدد موضع الكناية فيهـــا ودراسته لهذه الأساليب قائمة على التصور اللغوى كما هو الأمر عند (العسكرى)

---

(١) سر الفصاحة للخفاجي : ١٥٦

(٢) المصدر السابق نفسه / ١٥٦

و (ابن رشيق) فيقول فى ذلك : " ومما يستحسن من الكنايات قـــول امرىء القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنــــا   ورضت فذلت صعبة أى إذلال

لأنه كنى عن المضاجعة بأحسن مايكون من العبارة .

ومن هذا الفن أيضا من حسن الكناية قول أبى الطيب :

تدعى ما ادعيت من ألم الشـــو   ق إليها والشوق حيث النحـول

لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية " (٢) .

ثم يعقد الخفاجى مقارنة فى أساليب الكناية بين حسنها وقبيحها فيقول :
" وأضداد هذا من قبيح العبارات قول أبى الطيب :

إنى على شغفى بما فى خمرهــــا   لأعف عما فى سراويلاتهـــــا

وقول الرضى يرثى والدته :

كان ارتكاضى فى حشاك مسببـــــا   ركض القليل عليك فى أحشائى (٣)

("١) سر الفصاحة للخفاجى : ١٥٦

(٢) المصدر السابق نفسة : ١٥٧

(٣) يعنى أن ارتكاضة وهو جنين فى بطنها كان سببا فى تدافع الحزن وتضاربه فى أحشائه لمزوتها .

والأمر الذى جعل الخفاجى يخرج بيتى المتنبى والرضى من حسن الكناية إلى قبيحها هو تعبيرهما بأسلوب الكناية فيما لاكناية فيه من المواضع فأحسن وأجاد . يقول الخفاجى : " لأنك إذا تأملت هذين البيتين وجدتهما يجريان من بيت امرىء القيس مجرى الشد وذلك أن امرأ القيس عبر عما يجب أن يكنى عنه من المباضعة فكنى بأحسن كناية ، وهذان عبرا عما لايجب أن يكنى عنه فأتيا بألفاظ يجب أن يكنى عنها " (١) .

والذى نلحظه عند ابن سنان أنه أوجبها فى المواضع التى يقبح ذكرها الأمر الذى جعله يعتبر استعمالها فى مواضع أخرى خروجا بها عن حسنها لأنه كناية فيما لاكناية فيه .

ونحن نتفق مع الخفاجى فى حكمه على بيتى المتنبى والرضى بأنهما من قبيح الكناية ، ولكننا لانتفق معه فى قوله بأنهما عبرا عما لايجب أن يكنى عنه ، إذ أننا لو سلمنا بذلك نكون قد حصرنا أسلوب الكناية فى ستر الأساليب التى يستقبح ذكرها فقط ، وأسلوب الكناية أكبر من ذلك وأرحب ، فهو لون من ألوان الأساليب يخرج به الشاعر إلى معان فى اللغة ، يتجوز فيها الأساليب التى تخدمه فى غرضه ، مع مراعاة العلائق والروابط بين المعنى المقصود والمعنى المذكور ، فالذى نأخذه على المتنبى والرضى إنًا ليس فى تكنيتهما

---

(١) المصدر السابق نفسة : ١٥٨ .

فيما لاكناية فيه ، وإنما فى إخفاقها فيما استعملاه من أسلوب ، فالمأخذ عليهما جمالى إذًا وليس موضعيا كما هو عند الخفاجى ٠

ثم إننا نجد أسلوب الكناية عند الخفاجى كذلك فى نعوت البلاغة والفصاحة ٠ ووجدنا دراسته لها فى هذا الموضع تنهج نهج (قدامه) فى التحليل والتعريف وذلك فى قوله : " ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له فى اللغة ، بل يؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة ، فيكون فى ذكر التابع دلالة على المتبوع وهذا يسمى الإرداف والتبع " (١)

ولقد حاول الخفاجى فى دراسته للإرداف أن يتعمق ويحلل ، ويضع يد القارىء على مواضع الجمال فى هذه الأساليب ٠

يقول فى بيت عمر :

بعيده مهوى القرط إما لنوفل　　　أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فإنه إنما أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق فلو عبر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال — طويلة العنق — فعدل عن ذلك وأتى بلفظ يدل عليه

---

(١) المصدر السابق نفسه : ٢٢٩٠

وليس هو الموضوع له ، فقال — بعيدة مهوى القُرط — فدل ببعد مهوى قرطها على طول الجيد ، وكان فى ذلك من المبالغة ماليس فى قوله — طويلة العنق — لأن بعد مهوى القرط يدل على طول أكثر من الطول الذى يدل عليه — طويلة العنق — لأن كل بعيدة مهوى القرط الطويلة العنق وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القرط إذا كان الطول فى عنقها يسيرا ، وهو موضع يجب فهمه " (١)

وإذا قارنا تعريف الخفاجى بتعريف قدامه نجد أن الخفاجى قد حاول أن يتعمق أكثر فى دراسة النص وأن يبين مواضع الجمال فيه وذلك فى مقارنته بين الاستعمال الصحيح لطول العنق ، والاستعمال الكنائى له لتكون المقارنه بذلك دليلا على وجهة نظره • فالتعبير الصريح لطول العنق يدل على أن هناك طولا " ما " ولكن قد يكون هذا الطول يسيرا وقد يكون كثيرا أما التعبير الكنائى وهو — طول المهوى — فإن الدلالة فيه واضحة على طول أكثر وذلك لبعد المهوى •

ومثل هذه المقارنات والمفاضلات بين الأسلوبين — الصريح والكنائى تجدها عند الخفاجى فى غير هذا البيت وذلك فى بيت البحترى مثلا يقول لك " ومن هذا الفن من الإرداف قول أبى عبادة " •

---

(١) المصدر السابق : نفسه ٢٢١•

فأوجرته أخرى فأضللت نصله   بحيث يكون اللب والرعب والحقد

لأنه أراد القلب فلم يعبر عنه باسمه الموضوع له ، وعدل إلى الكناية عنه بما يكون اللب والرعب والحقد فيه " وكان ذلك أحسن " لأنه إذا ذكره بهذه الكنايات كان قد دل على شرفه وتميزه عن جميع الجسد بكون هذه الأشياء فيه ، وأنه أصاب هذا المرمى فى أشرف موضع منه ولو قال — أصبته فى قلبه — لم يكن فى ذلك دلالة على أن القلب أشرف أعضاء الجسد فعلى هذا السبيل يحسن الإرداف "(١)

قلنا إن الخفاجى كان عميقا فى دراسته ، وكان حريصا دائما أن ينبه القارئ فى دراسته إلى قيمة الإرداف الجمالية ، وهذا مانجده فى ختام دراسته للنص فيقول لك مثلا : " وهو موضع يجب فهمه " أو يقول لك وأتى بالفاظ تدل على ذلك أبلغ مما يدل عليه قوله كذا إلى أن يختم دراسته للإرداف بقوله : " فعلى هذا السبيل يحسن الإرداف " فالخفاجى حرص فى دراسته للإرداف أن يخضعه للمفهوم العام للكتاب وهو سر الفصاحة .

ولكن على الرغم من هذه النظرات الدقيقة فى نصوص الكناية عند الخفاجى فإننا نجده لايخلو من الخلط بين أساليبها ، فالكناية عنده غير الإرداف ولكل نوع منها موضعه الخاص به.

---

(١) المصدر السابق نفسه : ٢٢٣.

ففى دراسته للكنايةتبين لنا أنها تستعمل فيما يجب أن يكنى عنه ولايصرح بذكره ، وهنا يكون فيما يستقبح ذكره من الألفاظ " وهذه النظرة فى دراسة الكناية تعتبر غرضا واحدا من أغراضها وليست هى مفهومها العام وهى نظرة لغوية تقوم على ستر مايستقبح ذكره من الكلام — وتضع الكناية فى موضع ضيق محدود يفصل بينها وبين " الإرداف " الذى هو معناها الاصطلاحى عند البلاغيين •

وملاحظة أخرى هى أن جميع النصوص التى درسها الخفاجى تحت موضوعى الكناية والإرداف تعتبر من أسلوب الكناية بالمفهوم البلاغى المصطلح عليه مما يجعلنا نبحث عن السبب فى هذا الفصل بين المعنيين •

وهذا الاستفهام عن الفصل بين الإرداف والكناية يدفعنا إلى العودة للدراسة حتى يمكننا تلمس الحقيقة من داخل النصوص •

فالنصوص التى درسها الخفاجى فى موضوع الكناية هى التى كنى فيها أصحابها عن معان يقبح ذكرها ، فامرؤالقيس يكنى عن المباضعة بقوله : "قصرنا إلى الحسنى ••• " والمتنبى ، يكنى عن كذب حبيبته " بعدم نحولها "ويكنى عن عفته بترفعه عما فى سراويلاتها " •

فالأساليب الواردة كلها تكنية عن اللفظ لايحسن التصريح بها ، فالمعنى الكنائى إذا لغوى عند الخفاجى كما أشرنا إليه آنفا ، ومحصور فى ستر مايستقبح ذكره ، ولهذا جاءت دراسته لها فى كتابه مع المواضع التى يجب فيها وضع

الألفاظ موضعها ، فالمواضع التى لايحسن فيها التصريح تجب بها الكناية .

أما الأساليب التى درسها الخفاجى تحت موضوع الإرداف فهى جميعـــــا من النعوت ، ولهذا درست مع المواضيع التى عدها من نعوت البلاغة والفصاحـة . فهو يقدم لها بقوله : " ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة علــــى المعنى فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له فى اللغة ... "[1] فالأساليب هنا جميعها من النعوت ، " فعمر " ينعت صاحبته " ببعد مهوى القرط" وامرؤالقيس يصفها : " بنؤوم الضحى " و البحترى يصف القلب بأنه مكمـــن " اللب ، والرعب ، والحقد " .

وتعليل الخفاجى لدراسة الإرداف أنه يقع فيه من المبالغة فى الوصــــف مالا يكون في اللفظ الصريح .

ومع هذا فإننا نقول إن الدراسة التى حظى بها أسلوب الكناية بصفـــــة عامه من حيث التحليل ،وبيان القيم الجمالية ، والتعبيرية فيه ، لم نجدهـا عند أحد غيره ممن سبقه من الدارسين لها .

وبهذه الدراسة لأسلوب الكناية عند الخفاجى نختم دراستنا للكنايـــة بين المفهومين اللغوى والاصطلاحى .

---

(١) المصدر السابق نفسه : ٢٢٩.

والذى نخلص إليه من هذه الدراسة وفى هذا الطور مايلى :

تمثل دراسة قدامه مرحلة النضج من حيث وضع المصطلح البلاغى وبيان مواضـــع الكناية فى النصوص ، كما أنها تعتبر ناضجة من حيث تحديد المفهوم البلاغـــى للكناية وعدم الفصل بينه وبين المفهوم اللغوى • ولهذا تعد دراسته نقلـــــة كبيرة فى مسار الكناية وكانت الأساس النظرى لجميع الدراسات التى جاء ت بعدها

أمـا دراسة (العسكرى) و (ابن رشيق) فهى وإن حاولت أن تستفيد من دراسة قدامة للكناية ، خاصة فى تعريفه لها بمعنى الإرداف ، فـإن المفاهيم عندهما لم تتضح ، ولهذا جاء كثير من الخلط فى أساليب الكنايــــة وجاء ت دراستها فى فنون متفرقة • لكننا لانغمط الرجلين حقهما ، فقد جمعـا كثيرا من النصوص وأبديا عليها ملاحظات لانعدم فيها محاولة الإضافة ، والتجديد خاصة فى دراسة االتتبع عند ابن رشيق •

أما ابن سنان فهو وإن فرق كذلك بين المفهومين للكناية ، فقد كـــان أكثر عمقا وتحليلا فى الدراسة مما وضع الكناية فى مرحلة جديدة انطلق منهـــا عبدالقاهر ومن بعده •

الكنـــــايـــــة

بيـــن عـــبدالقـــاهر والزمخشــــــــرى

عـبد القاهـر الجرجـــانى

وجـاء عبدالقاهر الجرجانى ليثرى أسلوب الكتابة بدراسة تقوم عـــــلى الفهم لدلائل التراكيب وخوافيها ويغوص " عبدالقاهر " فى نصوص الكتابة ليخرج منها بمعان فاتت من سبقه وعجز عن مثلها من لحقه ، فالنصوص الكتائيـــــة أصبحت فنا ينبض بالحركة والحياة ، فالجرجانى يستخرج منهـا أشكالا أدبيـــة حية ثم يناظر بينها ويفاضل ، مطبقا فيها نظريته التى تقوم على نظم الكـــلام وتركيبه " لايكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لايكون لصاحبتها ٠٠٠ وإذا كان هذا كذلك فانظر هل كانت هـــــذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه ٠٠٠ "(١) وليـــس ذلك غريبا على الجرجانى فإن التعمق فى دراسة النصوص ديدنه "واعلـــم أنك لاتشفى الغلة ولاتنتهى إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملا إلى العلم به مفصلا وحتى لايقنعك إلا النظر فى زواياه والتغلغل فى مكامنـــه وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه ٠٠٠ " (٢)

---

(١) دلائل الاعجاز عبدالقاهر الجرجانى ١٨٦٠

(٢) المصدر نفسه ١٨٦٠

وكلما تغير النظم أعطانا معنى جديدا فالغرض الواحد تتعدد صـــور معانية باختلاف ألفاظة وتراكيبها مادام يمكن التجوز فيه " وجملة الأمر أن صور المعانى لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ حتى يكون هناك اتساع ومجــاز وحتى لايراد من الألفاظ ظواهر ماوضعت له فى اللغة ولكن يشار بمعانيها إلــى معان أخر ". (١)

قلت إن أسلوب الكناية وجد من الدراسة عند عبدالقاهر مالم يجده عنـد غيره ، ومن الاستقراء والتتبع والبحث ما جعله يسوق الحديث فيه ويقف عنـد كل نقطة فيه تمثل عملا أدبيا قيما وتعطيه شكلا فنيا جديدا فيقتلها بحثا بعـد أن يضع لها الأمثلة والشواهد التى يفصح بها عن رأية وقصده ثم تقوده هـذه النقطة إلى نقطة أخرى ، فهو يعرّف الكناية ، وتعريفة لها يقوده إلى الحديث عن قيمتها الفنية ، وحديثه عن هذه القيمةالفنية يقودة إلى الحديث عن السبب فى ذلك ، وهو عنده يتمثل فى إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها ، وحديثـه عن هذا الجانب جعله يقف على الكناية عن نسبه ، فتجد عنده التأمل والنظـر الثاقب فهو يقف على أساليبها يناظر بينها ويفاضل . ثم إن هذه الصور الأدبيـة التى خرج بها من أسلوب الكناية وقفت به على الحديث عن المعنى ومعنى المعنـى والذى يدخل به إلى الحديث عن الوسائط التى تربط بين الأول والثانى ثم تصبح الكناية عنده من الأساليب التى تستحق اسم البلاغة يسابـق

(١) المصدر نفسه ١٩٢.

لفظها معناها ومعناها لفظها ، وتدخل فى الأذن بلا إذن •

وحين نتتبع ماقاله الجرجانى فى الكناية نخرج بجملة من القضايا وهى وإن وردت فى مواضع مختلفة إلا أنها كلها وردت فى حديثه عن الكناية وهى :

١ـ تعريفه للكناية وتقسيمه لها •

٢ـ الكناية أبلغ من التصريح وتعليله لذلك

٣ـ ليست المزية فى الكلام المتروك على ظاهره بسبب المبالغة فيه ، ولكن فى طريقة إثباته وتقريره •

٤ـ دلالة المعنى على المعنى وهو مايسميه " معنى المعنى " •

٥ـ الكناية عن نسبه ومناظرته لأساليبها وتقاربها وتعدد الكنايات فى البيت •

٦ـ اختلاف صور الكناية عن المعنى الواحد •

تعريف الكناية وتقسيمها :

نهج عبدالقاهر فى تعريفه للكناية نهج قدامه وهو تعريفها بالإرداف •

يقول " عبدالقاهر" : " والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومى ء به إليه ويجعله دليلا عليه " (١)

---

(١) دلائل الاعجاز : ٠٥١

قلت إن تعريفه لها سلك به مسلك قدامة ولكنه درسه تحت اسم الكناية ثم ساوى بين الكناية والرمز ، والإشارة : " وكما أن الصفة إذا لم تأتـك مصرحا بذكرها ، مكشوفا عن وجهها ولكن مدلولا عليها بغيرها ، كان ذلـك أفخم لشانها ، وألطف لمكانها وكذلك إثبات الصفة للشئ ، تثبتها له إذا لـم تلقه إلى السامع صريحا وجئت إليه من جانب التعريض والكناية ، والرمـز ، والإشارة ، كان له من الفضل والمزية ... " (١)

الكنـايـة عن صفـة :

وقف عبدالقاهر فى الكناية المطلوب بها صفة وقفة فاحصة ودرس أسلوبهـا مبينا القيمة الأدبية فيه والمشارب المختلفة التى يعطيها المعنى الواحد فتعطـى كل منها بعدا مختلفا وطريقة جديدة فى الإبانه عن المعنى ، وكذلك تتعـدد الكنايات فى البيت الواحد ، ثم هو يناظر بين هذه الأساليب ويقارن كمـا يتحدث عن الوسائط التى تنقل الإنسان إلى المعنى المقصود ، فالكناية عـن صفة في قوله : مثال ذلك قولهم " هو طويل النجاد ؟ يريدون طويل القامـة وكثير رماد القدر يعنون كثير القرى وفي المرأة نؤوم الضحى " فالمراد أنهـا مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرهـا ... وإذا كانت المراة مترفة لها من يكفيهـا امرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى " (٢)

---

(١) المصدر السابق : ٢٢١

(٢) المصدر نفسة : ٥١

ويقول لك في بيت الشاعر :

ومايك فيّ من عيب فإنـــــــي   جبانُ الكلب مهزولُ الفصيـــل

" فكما أنه إنما كان من فاخر الشّعر ومما يقع في الاختيار لأجل أن اراد أن يذكر نفسه بالقرى والضيافة فكنى عن ذلك بجبن الكلب ، وهزال الفصيل ، وتـــرك أن يصرح فيقول : قد عرف أن جنابي مألوف وكلبي مؤدب لايهر في وجة مــن يغشاني من الأضياف وأني أنحر المتالي من إبلي وأدع فصالها هزلى "[1] ثــم دخل في دراسة مدلولات الكناية عن صفة وابعادها متخذا في ذلكطريق المناظرة والمقابلة مدللا بذلك على فصاحتها وبلاغتها ٠

الكنـايـة عن نســـــبة :

أيضـا تحدث عن الكناية في إثبات الصفة وهو ما اصطلح عليه بالكنايــة عن نسبة ، وحديثة عن هذا النوع كان من استنباطاته فلم يسبق إليه إذ كــان أول من تحدث عنه وذلك فيما راجعناه من مصادر في هذا الباب وكان حديثــة عنها حديثا مستفيضا مستقصيا لأسرارها وتعابيرها ، وهو يدخل بـك مدخــــلا في دراسته لهذا الفن يجعلك تعد نفسك ، وتشحذ فكرك وتتلطف في دخولــك معه ، لترى مايراه ، وتدرك مرماه ، من ذلك قوله : " هذا فن من القـــول

---

(١) المصدر السابق : نفسه : ٢٢٢

دقيق المسلك لطيف المأخذ وهو أنا نراهم كما يصنعون فى نفس الصفة بـــأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض كذلك يذهبون فى اثبات الصفة هذا المذهب وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطرف ، ودقائق تعجز الوصـــــف ورأيت هناك شعرا شاعرا وسحرا ساحرا ، وبلاغة لايكمل لها إلا الشاعر المفلــق ثم يفصح لك عن كنه كلامه فيقول لك " وتفسير هذه الجملة شورحها أنهـــــم يرومون وصف الرجل ومدحـ ه واثبات معنى من المعانى الشريفة له فيدعـــــون التصريح بذلك ويكنون عن جعلها فيه يجعلها فى شىء يشتمل عليه ويتلبـــر به ويتوصلون فى الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات ..."

مثال ذلك عنده قول زياد الاعجم :

إن السماحة والمروءة والنـــدى ··· فى قبة ضربت على ابن الحشـــرج

ثم يعلق عبدالقاهر على هذا البيت مبينا لك المعانى التى أراد الشاعـــر إثباتها لمدوحه والتى عدل بها إلى الكناية والتلويحيث جعل منها قبة مضروبـــة على ممدوحه .

وهى عنده كذلك فى قوله : " ومما هو إثبات للصفقطى طريق الكنايـــة والتعريض قولهم : المجد بين ثوبيه والكرم فى برديه وذلك أن قائل هـــــذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للمدوح بأن يجعلها فى ثوبه الذى يلبسه "

---

(١) المصدر السابق نفسة : ٢٢٣.

بعد ذلك يدخل بك عبدالقاهر فى تحليل هذه الأساليب بنوعيهـا المطلوب بها صفة ، والمطلوب بها إثبات للصفة لترى منها عظمة الكناية وثراءها ودقائقها فهذه معان مختلفة تخدم غرضا واحدا ولكن لكل منها طريقته فى الدلالة وقوته فى التركيب وقربه من المضمون ، وسهولته فى الفهم ، وهذا بطبعـه يرجع إلى الوسائط التى تنقلك من معنى إلى آخر حتى تقف بك على المعنـى الأكبر المقصود ، وباختلاف هذه الوسائط من قوة ، وضعف ، وبعد ،وقـرب يكون الخلاف فى بلاغة معانيها " " وإذا كان ذلك كذلك علم الضرورة أن صَرف ذلك إلى دلالات المعانى على المعانى ، وأنهم أرادوا أن من شـرط البلاغة ، أن يكون المعنى الأول الذى تجعله دليلا على المعنى الثانى ووسيطا بينك وبينه ، متمكنا فى دلالته مستقلا بوساطته ، يسفر بينك وبينه أحسـن سفارة ، ويشير لك إليه أبين إشارة ، حتى يخيل إليك أنك فهمته من حـال اللفظ ، وذلك لقلة الكلفة فيه عليك ، وسرعة وصوله اليك ، فكان من الكنايـة مثل قولة :

لاأمتع العوذ بالفصـال ولا أبتاع إلا قريبـة الأجـل (١)

وهذه الأساليب بعضها يتقارب ويتناسب فى خدمة الغرض ، وبعضها يختلف فى خدمة الغرض نفسه ، فكلما تقاربت التراكيب والدلائل والوسائط تقاربـت

---

(١) المصدر السابق : نفسة ١٩٣٠

المعانى وتناظرت ، وكلما اختلفت هى تباعدت المعانى وإن كان المقصـــــود بها غرضا واحدا ٠

" وكما أن من شأن الكناية الواقعة فى نفس الصفة أن تجىء على صــور مختلفة كذلك من شأنها إذا وقعت فى طريق إثبات الصفة أن تجىء على هذا الحد ثم يكون فى ذلك مايتناسب كما كان ذلك فى الكناية عن الصفة نفسها ٠تفسير هذا أنك تنظر إلى قول يزيد بن الحكم يمدح به يزيد بن المهلب وهو فى حبـــس الحجاج :

أصبح فى قيدك السماحة والمجد وفضـــل الصــلاح والحسب

فتراه نظيرا لبيت زياد وتعلم أن مكان القيد هاهنا هو مكان القبة هناك كمـــا أنك تنظر إلى قوله : جبان الكلب : فتعلم أنه نظير لقوله : " زجـــــر ت كلابى أن يهر عقورها " من حيث لم يكن ذلك الجبن إلا لأن دام منه الزجـــر واستمر حتى أخرج الكلب بذلك عما هو عادته من الهرير ، والنبح ، فى وجــــه من يدنو من دار هو مرصد لها يعس دونها ٠

وتنظر إلى قوله : " مهزول الفصيل " ٠ فتعلم أنه نظير قول ابن هرمة :

" لاامتع العوذ بالفصال " واعلم أنه ليس كل ماجاء كناية فى إثبات الصفــــة يصلح أن يحكم عليه بالتناسب معنى هذا أن جعلهم الجود والكرم يمرض بمـــرض الممدوح كما قال البحترى :

ظللنا نعود الجود من وعكك الذى و جدت وقلنا اعتل عضو من المجـد

وان كان يكون القصد منه إثبات الجود والمجد للمدوح فإنه لايصح أن يقـــال أنه نظير لبيت زياد ٠٠ كما أنه لايجوز أن يجعل قوله : " وكلبك آنس بالزائرين مثلا نظيرا لقوله : مهزول الفصيل ٠ وإن كان الغرض منها جميعا الوصــــف بالقرى والضيافة وكانا جميعا كنايتين عن معنى واحد لأن تعاقب الكنايات علــى المعنى الواحد لايوجب تناسبها ٠٠٠" (١)

قلت إن تتبع عبدالقاهر لهذه الأساليب تتبع خبير عـالم بطرق التعابير الصعب منها والسهل ٠ القريب منها والبعيد ، المتشابه منها والمتنافر ٠والذ ى يخدم غرضا واحدا ، والذى يخدم أغراضا مختلفة ٠

والقياس عنده فى دراستها هو نظريته اللغوية التى كانت ردا على الصراع حول اللفظ والمعنى فى قيمة العمـل الادبى ٠

والذى نريد أن نقف عنده لنرى موقف عبدالقاهر منه هو أن هـــذه الاساليب وإن خدمت غرضا واحدا ، وإن تقاربت فى أداء المعنى الواحد . فانها تصل إلى أن تؤدى هذا المعنى بمستوى واحد وهناك من النقاد من يـــرى هذا الراى ويقولون :اتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فاداه على وجهــــه

---

(١) المصدر السابق نفسة : ٢٢٢ ــ ٢٢٥٠

سوغ والنقوش والنسيج ، فالألفاظ عندهم يمكن أن تؤدى
شابه الخاتمين يصوغهما صائغان فلا يشك الناظر
سيهم .سهم من صنع صانع واحد ، وقياس الكلام بهذه المقاييس هو الذى أدى الى فساد كثير مما دفع عبدالقاهر إلى مواجهته بقوله : " وإنا لنراهم يقيسون الكلام فى معنى المعارضة على الأعمال الصناعية كنسيج الديباج وصوغ الشنف والسوار وأنواع مايصاغ ... وهكذا الحكم فى سائر المصنوعات كالسوار يصوغة هذا ويجىء ذاك فيعمل سوارا مثله ويؤدى صنعته كما هى حتى لايغادر منها شيئا البتة وليس يتصور مثل ذلك فى الكلام ، لانه لاسبيل إلى أن تجىء إلى معنى بيت من الشعر ، أو فصل من النثر ، فتؤدية بعينه ، وعلى خاصيته ، وصنعتة بعبارة أخرى ، حتى يكون المفهوم من هذه ، هو المفهوم من تلك لايخالفه فى صفة ، ولا وجه ، ولا أمر من الأمور . ولا يغرنك قول الناس ، قد أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه : فإنه تسامح منهم والمراد أنه أدى الغرض فأما أن يؤدى المعنى بعينه على الوجه الذى يكون عليه فى كلام الأول حتى لاتعقل ههنا إلا ماعقلته هناك وحتى يكون حالهما .. كالسوارين والشنقين ففى غاية الإحالة وظن يفضى بصاحبه إلى جهالة عظيمة (١)

إن تطابق الصورتين حتى لايفرق المرء بينهما كما لايفرق بين الخاتمين أحكم تقليدهما محال عند عبدالقاهر وجهل عظيم وهذا اعتراف مأمول منه لان

---

(١) دلائل الاعجاز : ١٨٩.

مقياسه بلاغى يقوم على التركيب البلاغى ، فالأمر عنده ليس وضع كلمة مكان أخرى نحو " جلس وقعد ولكن فيما فهم من مجموع كلام ومجموع كلام آخر "فـإنا قال نصيب :

وكلبك آنس بالزائرين من الأم بالابنة الزائرة

وقال آخر :

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا   يكلمه من حبه وهو أعجم

فهو وإن كان شبيها به فى معناه ونظيرا له ، وإن كان الغرض واحدا ، إلا أن الصورة وتركيبها والتجربة وبعدها ، يضعان أمامك خطا فاصلا فى الفرق بينهما فالفارق بين الصورتين هو الفارق بين فرح الأم بابنتها الزائرة ، وفرح الكلب بالزائرين وهو الفرق بين ، " أنس " و " يكاد " فآنس اسم تفضيل أى انه أكثر انسا من الأم بابنتها الزائرة ٠

" ويكاد " فعل يفيد المقاربة أى أنه أوشك أن يكلمه ولكنه لم يستطع فالأول استطاع أن يفوق فى محبته الزائرين محبة الأم لابنتها الزائرة فى أنسه ولطفه ، وإلفه وحنينه لهم ٠ والآخر عجز عن مخاطبتهم وإن كان قد كاد ٠

ومع ذلك فإننا لانستطيع أن نضع أيدينا على الصورة الكاملة ، فالحكم هنا جزئى يقوم على الخلاف فى قوة المعنى بين بيتين ولايمكن لتقويم كهذا أن يعطى الصورة كاملة مثلما يعطيها التقويم القائم على دراسة القصيدتين كاملتين

فكل من البيتين مرتبط بقصيدته وبمعناها الكلى الذى جاء نتيجة تجربة الشاعر وانفعاله بها ولكن أردنا من ذلك أن نكشف عن خبايا النصوص التى لاتكشف لعابر سبيل إلا من وقف عندها فاحصا متأملا ومتذوقا وهذا شأن عبدالقاهر معها .

مزيـة الكنايـة على التصـريح :

ومزية الكناية عند الجرجانى سببها التركيب الجديد الذى تحول به المعنى إلى عالم من الصور المجسمة المحسوسة ، وإلى علاقات جديدة لعب فيها الخيال دورا بعيدا فى نظمها فهذه الكثبان الرمادية التى يقف أمامها الناظر ليطلع من خلفها على حركة نشطة من الحياة تمثل هذا الكرم ، فهناك قدور تنصب ، وحطب يحرق ، وحركة من الضيوف لاتنقطع جيئة وذهابا ، كل هذه الحياة تمثلها لنا كلمة " كثير الرماد " ثم هناك الفصائل الهزلى الفاقدة لأمهاتها فى الصغر ، ثم هنتاك علائق جديدة بين الإنسان والحيوان يكاد فيها الكلب أن يكلم الانسان حبا ، ويأنس به أنسا يتحدى به أنس الام بابنتها الزائرة وهذا مظهر من مظاهر خيال الشعر والأدب حين نرى " البعير" ينبض قلبه بما ينبض به قلب صاحبه " ويجب ناقتها بعيرى " وبذلك نرى فى صور الكناية تلك الروابط التى تربطها بطبائع الأقوام حين يفرغون مافى أنفسهم على ماحولهم وهو كثير فى الشعر ..

منه الوقوف على الأطلال ، وبثها الأشواق واللواعج ، ومنه مخاطبة " شجر الخابور " ولومه لانه لم يجزع على " ابن طريف "

أقول إنها علاقات جديدة صنعها الخيال ليجارى بها هذا الكرم الـذى تعبر عنه هذه الصور المختلفة باختلاف تركيبها ونظمها " فليست المزية فـــى قولهم جم الرماد أنه دل على قرى أكثر ، بل إنك أثبت له القرى الكثير مـــن وجه وهو أبلغ ، وأوجبته إيجابا هو أشد وادعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق (١) هذه الصور الناطقة بوجودها انا هى التى اكسبت هذا الاسلـــوب ميزته " اما الكناية فإن السبب فى أن كان للاثبات بها مزية لاتكون للتصريـح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابهـا بما هو شاهد على وجودها آكد وأبلغ فى الدعوى من أن تجىء إليها فتثبتهـــا هكذا ساذجا غفلا وذلك أنك لاتدعى شاهد الصفةودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لايشك فيه ولايظن بالمخبر التجوز والغلط " (٢)

" إن السبب فى أن كان للإثبات إذا كان من طريق الكناية مزيـــــة لاتكون إذا كان من طريق التصريح ، أنك إذا كنيت عن كثرة القرى بكثرة رمـــاد القدر ، كنت قد أثبت كثرة القرى بإثبات شاهدها ودليلها ، وماهو علم علـــى وجودها وذلك لا محالة يكون أبلغ من اثباتها (٣) . نعم إنها شواهد سافــــرة

---

(١) دلائل الاعجاز : ٥٥

(٢) المصدر نفسه : ٥٥

(٣) المصدر السابق نفسه : ٣٢٢ .

تؤكد معانيها فلا تجوز فيها ولاشك ولاغلط فإذا قلت : " فلان كريم "فربما فسر ذلك على سبيل التجوز والغلط وربما أدى ذلك إلى الشك فى قولك لأنك رميت بالمعنى هكذا ساذجا غفلا ، أما أن تقول " كثير الرماد " " طويل العماد " ومهزول الفصيل " " الشوق حيث النحول " " بعيدة مهوى القرط " فأنت امام صور تجسد لك معانيها بنفسها فلا تجوز ولاغلط فى طول العنق إذا فها هو القرط معلق أمامك بعيد المهوى ولا فى الكرم أيضا فأنت أمام فصيل هزيل نحيل نحرت أمه ، ورماد كثيف سببه نيران لاتموت تلتهم الحطب ، ولا فى شرف الرجل فالخيمة شامخة امامك تؤكد لك المعنى ناطقا مفصلا بأسلوب الكناية المتميز فهذه الحركة المتجددة والأدلة الشاخصة بعد التجوز فى استعمالها هى التى جعلت أسلوب الكناية عند عبدالقاهر مقصودا بالبلاغة ومتميزا عن التصريح •

فصاحة الكناية وبلاغتها :

قلت إن أسلوب الكناية عند الجرجانى هو من الأساليب التى تستحق اسم البلاغة " ومن الصفات التى تجدهم يجرونها على اللفظ ثم لاتعترضك شبهة ولا يكون منك توقف فى أنها ليست له ولكن لمعناه قولهم : لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه •• فهذا مما لايشك العاقل فى أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى وأنه لايتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذى وضع له فى اللغة "[1] وسبب ذلك

---

(١) المصدر السابق نفسة : ١٩٣•

عند " عبدالقاهر" انه مجال فى دلالات الألفاظ اللغوية لأن طريق معرفتها التوقيف وهو لايحتاج إلى إعمال فكر فى معرفته فأما أن يكون الإنسان عالما به أو جاهلا ، وأما الأسلوب الذى تتفاوت معانيه ويكون بعضها أسرع الى الفهم من البعض الآخر فهو الذى يحتاج إلى إعمال فكر لأنه يتجدد باختلاف تراكيبه ، ودلالة معانيه الأول على الثوانى ، وهذا تجده عند "عبدالقاهر"فى الكناية والاستعارة والتمثيل وإنما كان أسلوب الكناية حريا باكتساب صفة البلاغة عنده فمن أين اكتسبها ؟ والسبب عنده " ... انك إذا قلت :"هو طويل النجاد " " وهو جم الرماد " . وكان أبهى لمعناك وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذى تريد ..." ويقول : " اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم ان ليست المزية التى تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التى تدعى لها فى أنفس المعانى التى يقصد المتكلم إليها بخبره ولكنها فى طريق إثباته لها وتقريره إياها ... فليست المزية فى قولهم جم الرماد أنه دل على قرى أكثر بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجابا هو أشد وأدعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق " (١) ، ويقول أيضا : " ليس لنا إذا نحن تكلمنا فى البلاغة والفصاحة مع معانى الكلام

---

(١) المصدر السابق نفسة : ٥٤

المفرده شغل ولا هى منا بسـ بيل • وإنما نعمد إلى الأُحكام التى تحـــدث بالتأليف والتركيب وإذ قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التى لاتزال تسمع بها وأنها فى الإثبات دون المثبت فإن لها فى كل واحد من هذه الأجناس سبـــب وعلة • أما الكناية فإن السبب فى أن كان للإثبات بها مزية لاتكون للتصريـــح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أن اثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابهـــا بما هو شاهد فى وجودها اكد وأبلغ ...." (١)

أرأيت كيف يسلسل هذا الرجل حديثه ليصل بك إلى غرضه فهو يقول لك اسلك إذا استعملت أسلوب الكناية كان أنبل وأبهى من التصريح ، ولكنه لايتركك علـى ذلك ، وإنما ينقلك نقلة أُخرى مع الكناية ليقول لك إنها أشد اثباتا وإقرار للمعنى فى النفس ، ثم ينتقل بك نقلة أُخرى ليقف بك على السبب • إنه الصورة الجديدة التى اكتسبها المعنى من التركيب الجديد ، فإن معانى الكلم المفردة حبيســـة مقيدة وانما الشأن والتأليف والتركيب كيف لا وانظر الى معنى " الكرم "بحروفـة الثلاثة كيف يتجدد بتراكيب جديدة " كثير الرماد " " مهزول الفصيـــل " "جبان الكلب " " كلبك آنس بالزائرين •• " تراكيب مختلفة تعطى معنـــى واحدا هو معنى الكرم ولكن كل تركيب يعطي هذا الكرم بمعنى جديد ، لـــه بعده النفسى •

---

(١) سر الفصاحة : ٢٣٠

شيء آخر نقف فيه مع عبدالقاهر والخفاجي حول بلاغة الكنايـــة وفصاحتها فعبد القاهر يحصر بلاغة الكناية في إثبات المعنى وايجابه إيجابـــا هو أشد وآكد وينفي قصد المبالغة في زيادة المعنى ، فهو عنده ليس مقصـــودا وليس له مزية .

أما المزية عند الخفاجي فهي في زيادة المعنى يقول في بيت عمر بـــن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القـــرط إما لنوفـــل أبوها وإما عبـد شمس وهاشـــم

".. فدل ببعد مهوى قرطها على طول الجيد وكان في ذلك من المبالغة مـــا ليس في قوله "طويلة العنق "(١) فالقيمة الأدبية الجديدة عند (ابن سنان) هي زيادة الصفة والمبالغة التي لم تكن تأتي لو عدل الشاعر من أسلوب الكنايـــة إلى أســـلوب التصريح واستعمل - طويلة العنق - بدلا عن - بعيدة مهـو ى القرط - وهنا الخلاف في المدلول الجديد للبيت بين الرجلين ماكنا لنقـــف عنده لو أن عبدالقاهر وضع رؤيته دون نفي لرؤية الخفاجي فكنا نقول إنهـــا رؤية عبدالقاهر وهي بلا شك أبعد وأعمق من رؤية الخفاجي ولكن إنكـــاره لتلك يجعلنا نقف موقفا توفيقيا بينهما وهو أننا لانستطيع أن نستغني عن واحدة

---

(١) سر الفصاحة : ٢٣٠

من هذه المعانى فالصورة الجديدة التى لبسها المعنى هى صورة بديلة عن الصورة الصريحة الأولى فقولنا " جبان الكلب " هو معنى آخر عن قولنا " هو كريم " أما أن نبحث عن مزية للمعنى الجديد هل هى فى إثباته فى النفس أم فى المبالغة فهذا يؤدى بنا إلى تجزئة الصورة الكاملة للنص ، من حق عبد القاهر أن يقول فى الإثبات لأن ذلك يعبر عن وجهة نظره فى معطيات النص ، ومن حق الخفاجى كذلك أن يقول فى المبالغة لأنها رؤية من خلال النص أيضا ولكن لا يحق لأحد أن يحصرها فى مزية واحدة دون أخرى ، لأن انفعال الشاعر أو التأثير بتجربته هو انفعال أراد به أن يعطى الصورة فى أبهى معانيها وأن يضعها فى صورتها المثالية فأبو تمام حين يقول :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

يعطينا نماذج عليا عرفت عند العرب ، وكل من هذه النماذج أصبح مثالا فى صفة معينه ، ولكن لما أراد الشاعر أن يضع ممدوحه فى الصورة التى يريدها له جمع هذه الصفات جميعا لأنها هى التى تعطيه المثال الأعلى لممدوحه والتجزئة فيها غير واردة بل هى مخلة وهادمة لصورة عليا انفعل بها الشاعر وهو يعنى مايقول :

ولولا خلال سنها الشعر مادرى ... بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

إذاً فكيف يحق لنا أن نجزىء صورة متكاملة رسمها الشاعر ونبحث عن المقصود منها ، هل هو المبالغة فى الصفة ، أم فى إثباتها ، لابل هو ذا وذاك وزيادة ويكفى ما أصاب الصورة الأدبية نتيجة تجزئتها بين اللفظ والمعنى

ثم أخذ كل من النقاد بجزء وترك الآخر .

فإذا قال الشاعر :

بعيدةُ مهوى القرط

فالمقصود بها المبالغة فى الصفة وإثباتها فى آن واحد ، ولانستطيع أن نفصل بين هذين المعنيين فإن المبالغة فى الصفة تؤدى إلى تثبيتها ، وإقرارها فى النفس ، وقد يعترض معترض فيقول إن المبالغة فى الصفة قد تؤدى إلى عيب الموصوف ، بمعنى أننا إذا بالغنا فى صفة طول العنق أصبح ذلك عيبا فنقول له : ليس المقصود ذلك فالعرب تشبه المرأة طويلة العنق بالغزال فهل يعنى ذلك أن طول عنق المرأة وطول عنق الغزال على حد سواء ؟ فلو كان الأمر كذلك لكان عيبا ولكن المقصود هو الطول الذى يضعها فى الصورة المثالية التى يمكن أن توصف بها المرأة وهذا ماعناه عمر فى قولة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل

وماعناه النابغة بقوله :

إذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها ومن يتعلق حيث علق يغرق

فتفضيل المرأة بزيادة الصفة فيها وارد فى البيتين ، والمبالغة فى بيت النابغة أكبر ولكن لاشك فى أن كلا الرجلين أراد أن يصف صاحبته بالصورة التى يريدها هو فى نفسه بحيث يستطيع أن يقنع بها غيره . وكيفيه إقرار هذه الصفة فى نفس غيره تعتمد على زيادة الصفة والمبالغة ، فإن اقتصر الشاعر فى وصف عنق حبيبته كما قال " عمر " أو أفرط فى الوصف كما هو عند " النابغة " فإن المعنى يختلف

باختلاف التركيب والنظم واللغة المنظومة فيه ، أما تحديد المقصود منـــــــه فهذا شيء لايمكن حصره في غرض معين .

معنـــى المعنى :

ومن ميزات أسلوب الكناية على التعبير العاري عنها عند الجرجاني انبثاق المعاني عن بعضها فهو لايدلك على المعنى مباشرة ولكنه ينتقل بـــــك عن طريق الدلالات حتى تصل الى المعنى المقصود من وراء ظلال التراكيـــب وقد سماه عبدالقاهر " معنى المعنى " حيث عالج من خلاله عمق الكنايــــة وبلاغتها ثم تحدث فيه عن الأشكال والصور التي يتعدد بها المعنى ومرد ذلـــك عنده إلى الدلالات المعنوية وليس إلى ظاهر اللفظ كما هو عند كثير من النقـا د والحديث في هذا الموضوع أوقع كثيرا من النقاد المعاصرين في لبس ماجعلهـــم يخلطون في مضمون " معنى المعنى " عند عبدالقاهر وسنتعرض لواحد ممـــن خلطوا في هذا الموضوع بعد حديثنا عن مقصود عبدالقاهر فيه يقول في ذلك :

" الكلام على ضربين ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلـــك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت : خرج زيـــــد : وبالانطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق : وعلى هذا القياس ـ وضرب آخـــر أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معنـــا ه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلـــى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية ، والاستعارة ، والتمثيل .. أولا تـــرى انك اذا قلت : هو كثير رماد القدر : أو قلت : طويل النجاد : أو قلـت فـــي

المرأة : نوءوم الضحى فانك فى جميع ذلك لاتفيد غرضك الذى تعنى من مجـرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذى يوجبه ظاهرة ثم يعقل السامع مـن ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف .. واذا قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصره وهـى أن تقول المعنى ومعنى المعنى ونعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضـى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذى فسرت لك " (١).

إن الحديث عن المعنى الثانى هو من الأبعاد التى يعطيها أسلـوب الكناية عند الجرجانى ، لأنه لايفهم من ظاهر اللفظ ، ولايدركه إلا من يعمـل فكره ، ويكون ذا فهم بأساليب اللغة ومدلولاتها ، وهذا ما جعل علماء البلاغة يقسمون أسلوب الكناية إلى قريب وبعيد ، والقريب إلى جلى وخفى ، ويقـوم هذا التقسيم على بعد الوسائط وقربها وخفائها وسفورها وهذا ماسبقهم إليـه عبدالقاهر في قوله : " وإذا كان ذلك كذلك علم علم الضرورة أن مصرف ذلـك إلى دلالات المعانى على المعانى وأنهم أرادوا من شرط البلاغة أن يكون المعـنى الذى تجعله على المعنى الثانى دليلا ووسيطا بينك وبينه متمكنا فى دلالتـه مستقلا بوساطته ويسفر بينك وبينه أحسن سفارة ، ويشير لك إليه أبين إشـارة

---

(١) المصدر السابق نفسه : ١٨٩.

حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاق اللفظ وذلك لقلة الكلفة فيه عليك وسرعة وصوله إليك " فهذه الوسائط عند عبدالقاهر سبب من أسباب قوة المعنى وجزالته وفخامته وسخائه فهذا النسيج الدقيق التركيب هذه الأساليب والذى تعطيه الوسائط بعدا فى تعدد الصور وتشكيلها ، يمثل بعدا فى الخيال يضفى على صورة الكلام حياة وحركة .

فهذه الوسائط التى تختفى تحت ظلال (كثير رماد القدر) فاكسبته هذا العمق والتشكيل يعنى فقدانها " عند عبدالقاهر " سذاجة فى الصورة ويعلق " عبدالقاهر فى ذلك على بيت " زياد الاعجم " .

فجعل كونها فى القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه وإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة ، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة ، ولو أنه اسقط هذه الواسطة من البين لما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذجا فهذا الصفة فى طريق الإثبات هى نظير الصفة فى المعانى إذا جاء ت كنايات عن معان أخر " (١).

---

(١) المصدر السابق نفسة : ٢٢٢

إن عبدالقاهر يرى العدول عن الكناية إلى التصريح عيبا مايجعلها ساذجة لا عمق فيها ولا تشكيل ولاخيال، والرجل محق فالوسائط صور فى حد ذاتها وروابط بين المعانى الأول والمعانى الثوانى المتولدة من المعانى الأول ، فتكسب الصورة بذلك وحدة وتماسكا من الجانب الفنى .

ثم إن هذه الوسائط عند عبدالقاهر هى السبب فى جعل المعنى يتشكل وليس اللفظ كما هو الشأن عند كثير من الكتاب الذين يرجعون هذه المزية للفظ فهو الذى يجعل المعنى يتشكل فى صور مختلفة : " وكذلك إنا جعلوا المعنى يتصور من أجل اللفظ بصورة ويبدو فى هيئة ويتشكل بشكل يرجع المعنى فى ذلك كله إلى الدلالات المعنوية ولايصلح شىء منه حيث الكلام على ظاهره وحيث لايكون كناية ولاتمثيل به ولا استعارة ولا استعانة فى الجملة بمعنى على معنى وتكون الدلالة على الغرض بمجرد اللفظ" (١) .

فمعنى المعنى إذاً هو الذى يأتى عن المعنى الأول الذى يدرك مقصوده من خلال المعطيات اللغوية المباشرة ، فالمعنى الأول الذى تعطينا إياه اللغة عن طريق الوضع من " الشوق حيث النحول " هو شخص نحيل ضعيف البنية ولكن المدلولات الأخرى للغة تعطينا معنى ثانيا لهذا المعنى وهو التعريض بكذب من يدعى الشوق دون نحول أو ذهول .

---

(١) المصدر السابق نفسه : ٢٢٢

وهذا المعنى الذى يعينية عبدالقاهر من المعنى ومعنى المعنـــــى مخالف تماما لما براه بعض الكتاب المعاصرين كما ذكرنا ، ويعنينا منهم الدكتــور " محمد زكى العشماوى " فى حديثة عن " معنى المعنى " عند " عبدالقاهر " حيث أورد نماذج مختلفة مثل كلمه " الأخدع " و " شىء " حيث جاءت فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنـــى وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعـا

وببيت البحترى :

وإنى وإن بلغتنى شرف الغنـــا وأعتقت من رق المطامع أخدعـــى

وفى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أخدعيك فقـــد أضججت هذا الأنام من خرقـــك

فهذه المواضع المختلفة لهذه الكلمات و غيرها يعتبرها الدكتـــــور " العشماوى " من المعانى الثانية عند الجرجانى .

يقول الدكتور العشماوى :

(... ودليلنا على ذلك كلمة الأخدع التى أورد لها عبدالقاهر أمثلة ثلاثـــــة: فكان لها فى كل مثال من هذه الأمثلة طبيعة تختلف عن طبيعتها فى الأمثلـــة الأخرى .

ولو كان للكلمة الواحدة معنى ثابت مهما اختلف السياق لما كـــان هناك وجه للمقارنة بين الكلمة الواحدة في الأمثلة الثلاثة التى استشهد بهـــا عبدالقاهر ولتساوى الشعراء الثلاثة في قدرتهم على استغلال الكلمة والانتفـــاع بها ولكن الحقيقة غير ذلك ٠٠٠" ويذيل هذه الدراسة بقوله :

من هذا التحليل السابق نستطيع أن ندرك معنى المعنى عند عبدالقاهر فليس المعنى عنده هو المحصول الفكرى أو العقلى للأبيات ، أو هـو الحكمة والمثل والفكرة الفلسفية أو الأخلاقية ، وإنما المعنى عنده هو كل ماتولد من ارتباط الكلام بعضه ببعض وهو الفكر والإحساس والصورة والصوت وهو كـل ماينشأ عن النظم والصياغة من خصائص ومزايا ٠٠٠"

فهذه النماذج التى عدها الدكتور العشماوى معانى ثانية لم نر لهـــا دراسة عند الجرجانى باعتبارها معانى ثانية وانما باعتبار مناسبة اللفظة للتركيـب الذى ترد فيه ليدلل على أن " الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى ألفاظ مجـردة ولا من حيث هى كلم مفردة وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمـــة معنى اللفظة لمعنى التى تليها فقد تروقك الكلمة فى موضع ثم تثقل عليك فى آخـــر كما هو الأخدع " و " شيء" وهذا الكلام ليس مقصودا به " معنى المعنى " عند " عبدالقاهر" وإنما مقصود به أن الألفاظ تتفاوت فى معناها ومدلولهـــا بتفاوت نظمها فى الكلام فكلمة " الأخدع " مثلا معناها " عرق فى المحجمتيـن

وورودها فى هذه الأبيات المختلفة لا يخرج بها عن هذا المعنى الأصلى ولكن من ناحية نظمها بين الكلام تختلف من بيت إلى آخر فى الدلالة على المعنى فهذا مايقصده " عبدالقاهر " وهو بالطبع غير قولك " كثير الرماد " فالمعنى الأصلى للفظ وهو (كثرة الرماد) غير مقصود لذاته وإنما المقصود معنى ثانيا تولد عن المعنى الأول ، وهو الكرم ؛ كما أن المقصود من معنى المعنى يحدده " عبدالقاهر " فى أساليب معينه وذلك فى قوله : " ومدار هذا الامر على الكناية ، والاستعارة ، والتمثيل وهذا التفسير عند الدكتور " العشماوى " مرده إعتبار كل موضع وردت فيه هذه الكلمات معنى مختلفا عن الآخر وهو تفسير يمكن ان ينطبق على كل كلمة فى اللغة ترد فى مواضع مختلفة فبالطبع يختلف أداؤها لمعناها من قوة وضعف باختلاف نظمها فى تراكيب مختلفة وهذا خلاف " معنى المعنى " البلاغى .

وخلاصه الأمر أن معنى المعنى يرد فى أساليب بعينها ليس المقصود منها معناها اللغوى وإنما يدلك المعنى على معنى ثان وهو المقصود بمعنى المعنى عند عبدالقاهر .

الزمخشـــــرى

وجـاء رجل من علماء القرنين الخامس والسادس الهجريين ، لنجـد لدراسة الكناية عنده نظرات ثاقبة بعيدة ، بل يكون نضوجها بين دفتي تفسيره حيث كان من أكثر المفسرين عناية بالبلاغة خاصة ، وعلم البيان من وسائلــــة المهمة في تفسيره يقول : "محمود بن عمر الزمخشرى (٥٢٨هـ) : "ولايغـوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن وهمـــا : علم المعاني ، وعلم البيان " (١) لهذا كان الزمخشرى مهتما بالأساليب البلاغية حيث كان يفسر الآيات ويطبق عليها ملاحظاته البلاغية مما جعل " ابن خلدون " يقول في تفسيره :

" ووضع كتابه في التفسير وتتبع أي القرآن بإحكام هذا الفن بما يبـدى البعض من إعجازه " (٢)

إن عناية الزمخشرى كانت عظيمة بفنون المعاني والبيان لأنه يــــرى أن القرآن مختص بهما ولما كانت الكناية واحدا من فنون البيان حظيت عنـــده

---

(١) الكشاف : ١ : ك

انظر كذلك مناهج بلاغية . د. احمد مطلوب : ٥٨

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٥٥٢ .

بعناية وافية فى تفسيره • وبالرغم من أن " الزمخشرى " كان مسبوقــــا " بالجرجانى " الذى شارفت الكناية عنده على النضج إلا أن نضجها كان عنـــد " الزمخشرى " حيث أمسك بما تفلت من " الجرجانى " فهو أول من ذكـــر أقسامها الثلاثة إذ أن أسلوب الكناية عن موصوف لم ينتبه إليه الجرجانى وسابقـوه وهناك قضايا جديدة توسع فيها الزمخشرى فى أسلوب الكناية ، وجدت فيها الكناية متسعا رحبا من التعابير أدت فيه دورها ببلاغة وإعجاز •

فالأسلوب الذى لايتأتى فيه المعنى الحقيقى لأمر خارج عن العبـــارة يتجوز فيه " الزمخشرى " ويجعله مجازا عن كناية وقضية الانتقال من اللازم الى الملزوم ومن الملزوم إلى اللازم التى أثار فيها العلماء من بعد الزمخشـــرى " كالسكاكى " وصاحب التلخيص وشراحه ، لم يلتفت " الزمخشرى " إلى شىء منها فللكناية أن تنتقل من أيهما شاءت ، بل إن أسلوب الكناية يمكنــه أن يتطور إلى أسلوب حقيقى فتسقط عنه الوسائط وتصل أنت إلى المعنى مباشرة •

الكنـــاية عن نســـبة :

تحدث الزمخشرى عن الكناية عن نسبة فى قوله تعالى : "أولئك شـــر مكانا وأضل سبيلا "[1] جعلت الشارة للمكان وهى لأهله ، وفيه مبالغـــة

---

(١) الفرقان : آية ٣٤•

ليست فى قولك أولئك شر وأضل لدخوله فى باب الكناية التى هى أخت المجاز (١)

ويقول فى قوله تعالى : " أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنـب الله " (٢) والجنب الجانب يقال أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته ، وفـلان لين الجنب والجانب ثم قالوا فرط فى جنبه ، وفى جانبه يريدون حقه ، قــال " سابق البربرى " :

أما تتقين الله فى جنب وامــق   له كبـد حرّى عليك تقطــع

وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر فى مكان الرجل وحيّزه فقــد أثبته فيه .

ألا ترى إلى قولة :

إن السماحة و المروءة والنــدى   فى قبة ضربت على ابن الحشــرج

ومنه قول الناس لمكانك فعلت كذا يريدون لأجلك ، وفى الحديث : " من الشرك الخفى أن يصلى الرجل لمكان الرجل " وكذا فعلت هذا من جهتك ، فمــن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه ، قيــل فرطت فى جنب الله على معنى فرطت فى ذات الله (٣)

---

(١) الكشاف : ١ : ٦٢٦

(٢) الزمر : ٥٦

(٣) الكشاف : ٣ : ٤٠٤

الكنايـــة عن موصـــوف :

يعتبر " الزمخشرى " أول من أشار إلى هذا الموضوع فلم نقرأ اشــارة واضحة عن الكناية عن موصوف فيما سبق ، يقول فى قوله تعالى " ولايأتيـــن ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن "(١) كانت المرأة تلتقط المولود فتقــول لزوجها هو ولدى منك ، كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولــد الذى تلصقه بزوجها كذبا ، لأن بطنها الذى تحمل فيه بين اليدين وفرجهــا الذى تلده به بين الرجلين (٢).

ويقول فى قوله تعالى: " وحملناه على ذات ألواح ودسر "(٣) أراد السفينه وهى من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدى مؤداها بحيث لا يفصل بينها وبينه .

اللزوم عند الزمخشرى :

قلت إن الزمخشرى لم يقف كما وقف من بعده فى الانتقال على دلالـة الكناية ، هل هو من اللازم إلى الملزوم كما هو عند " السكاكى " أم هـــو

---

(١) الممتحنة : اية ١٢:

(٢) الكشاف : ٤: ٩٤ـ٩٥

(٣) القمر : آية ١٣

جائز في الحالتين كما عند " الخطيب " ؟ يقول الخطيب : " وفـــرق السكاكي وغيره بوجه آخر وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم وفيه نظر لأن اللازم مالم يكـن ملزوما يمتنع أن ينتقل منه إلى الملزوم فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلـى اللازم " (١) وهذا يعنى أن طول النجاد لازم لطول القامة وملزوم لها أيضـا فيصح أن يكون الانتقال منه انتقالا من اللازم إلى الملزوم ، وأن يكون أيضـا من الملزوم إلى اللازم ، يقول الدكتور " ابو موسى " " وقد شغلت هذه المسألة أقلام الشراح بقدر ربما لم يكن السياق فى حاجة ماسة اليه ، لأن الانتقـال فى الدلالات اللغوية لايلتزم بهذه الدلالات المنطقية " (٢) .

لم ينشغل الزمخشرى بمثل هذه المناقشات ولكنه انطلق ليعالـج النص الكنائى من النواحى الفنية ، والظلال التى يمتد إليها الأسلوب ، ثـم يذيل لك حديثه أحيانا بقيمة الكناية وبلاغتها فيقول فى قوله تعالى : " فإن لـم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار " (٣) . " فإن قلت مامعنـى اشتراطه فى اتقاء النار إتيانهم بصورة من مثله ؟ قلت إنهم إذا لم يأتوا بهـا وتبين عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) الايضاح الخطيب القزوينى : ٢ : ٤٥٦

(٢) التصوير البيانى د. محمد ابو موسى ٣٧٠

(٣) سورة البقرة آية : ٢٤ .

وإنا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار ، فقيل لهم إن استبتم العجز فاتركوا العناد ، فوضع فاتقوا النـــار موضعه لأن اتقاء النار لصيقة وضميمه ترك العناد ، من حيث أنه من نتائجـــه لأن من اتقى النار ترك المعاندة ، ونظيره أن يقول الملك لحشمه : إن أردتم الكرامة عندى فاحذروا سخطى يريد فأطيعونى واتبعوا أمرى وافعلوا ماهو نتيجـة حذر السخط ، وهو من باب الكناية التى هى شعبة من شعب البلاغة وفائدتـة الإيجاز الذى هو من حلية القرآن ، وتهويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار منابـه وابرازه فى صورته مشيعا ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها (١) .

فالكلام هنـا الانتقال فيمن الملزوم إلى اللازم .. لأن المذكور اتقاء النـار والمراد به ترك المعاندة فترك المعاندة لازم لاتقاء النار ، ولما كان الأخيـر هو المذكور كان الانتقال من الملزوم إلى اللازم .

ويذكر نصا آخر يفيد العكس من ذلك ، فى قوله تعالى : " كيف تكفـرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم " (٢) . " فان قلت قد تبين أمر الهمزة وأنها لإنكـار الفعل والإيذان باستحالته فى نفسه ، أو لقوه الصارف عنه ، فما تقول فـــى " كيف " حيث كان إنكارا للحال التى يقع عليها كفرهم ؟ قلت حال الشىء تابعة

---

(١) الكشاف : ١ : ٢٤٧ــ ٢٥٠

(٢) البقرة : آية : ٢٨ .

لذاته ، فاذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال ، فكان انكار حـــال الفكر لانها تبيع ذات الكفر ورديفها انكارا لذات الكفر وثباتها على طريق الكنايـــة وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ . وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حـــال يوجد عليها ، وقد علم أن كل موجود لاينفك عن حال وصفة عند وجوده ومحال أن يوجد بغير صفه من الصفات ، كان إنكارا لوجوده على الطريق البرهاني (١) فالمفاد هنا أن إنكار حال الكفر لازم لإنكار ذاته ولما كان المذكور هو إنكـــار الحال وهو ماتدل عليه " كيف " فالانتقال من اللازم إلى الملزوم .

المجاز عن كنايـــة :

قلت ان " الزمخشري " رجل متجوز في أسلوب الكناية ماجعلهـــا تتسع لأساليب كثيرة عنده ، فإن مسالة إمكان المعنى الحقيقي من الكنايـــة إذا تعذر فانه يجد له مخرجا آخر يدخله في بابها وهو ماسماه " مجازا عن كناية" وهو من اجتهاده في الكناية وسابق فكره فيها : يقول في قوله تعالى : "ولاينظر إليهم يوم القيامة " (٢).

" مجاز عن الاستهانة والسخط عليهم تقول فلان لاينظر إلى فلان ،تريـد نفي اعتداده به وإحسانه إليه ، فإن قلت أي فرق بين استعماله فيمن يجـــوز

---

(١) الكشاف : ١:٢٦٩

(٢) آل عمران : آية : ٧٧.

عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه ؟ قلت أصله فيمن يجوز عليه النظر كناية لأن من اعتد بإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان ، وإن لم يكن ثم نظر ، ثم جاء فيمن لايجوز عليه النظر مجردا لمعنى الإحسان مجازا عما وقع كناية عنه " (١) .

فالأسلوب كناية إن أمكن منه تأتى المعنى الحقيقى وهو النظر فيمن يجوز منه ، أما إذا تعذر ذلك المعنى واستحال فهل تنتفى الكناية ؟ بالطبع لا فالأسلوب كناية ولكن استعماله كناية مجاز : وهو من سابقات الزمخشرى .

تطور الكناية :

والأمر عنده لايقف عند مجاز الكناية فحسب ، ولكن الكناية تتطور فتصبح حقيقة فيستعمل أسلوبها فيما هو فيه حقيقة ، وفيما هو ليس فيه أصلا .

يقول فى قوله تعالى : " وقالت اليهود يد الله مغلولة " (٢) غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ومنه قوله تعالى : " ولاتجعل يدك مغلولة

---

(١) الكشاف : ١ : ٤٣٩ والذى عليه أهل السنة والجماعة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر . وقد جاء فى الحديث " إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ....

(٢) المائدة : آية : ٦٤ .

إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط " (١) " ولايقصد من يتكلم به إثبات يد ولاغل ولابسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ماوقع مجازا عنه ، لأنهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة ، حتى كأنه يستعطه فى ملك لايعطى عطاء قط ، ولايمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها ، وقبضها ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا ما أبسط يده بالنوال ، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود وقد استعملوهما حيث لاتصح اليد كقوله ٠

جاد الحمى بسط اليدين بوابل ... شكرت نداه تلاعه ووهاده

وقد جعل لبيد للشمال يدا فى قوله :

إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

ويقال بسط اليأس فيه فى صدرى ، فجعلت لليأس الذى هو من المعانى لا من الأعيان كفان " (٢) .

فإن الوصول الى هذه المعانى مباشرة والدلالة على معنى الجود والبخل دون ملاحظة إمكان تحققها فى المقصود بالمدح أو الذم يأتى بسقوط الوسائط

---

(١) الاسراء : آية : ٢٩

(٢) الكشاف ١ : ٦٢٧٠

فإن بسط اليدين فيمن لم يبسط يديه أو لم تكن له يد أصلا لايجىء إلا إذ ا سقطت الوسائط وأصبح هذا الأسلوب مستقلا بذاته يعطى هذه المعانى مباشـر ة دون وسائط فيصبح بسط اليدين هو الجود فيمن يمكنه بسطها ومن لايمكنـــه وكذا الأمر فى غَل البدين

فإن بسط اليدين فيمن لم يبسط يديه أو لم تكن له يد أصلا لايجىء إلا إذا سقطت الوسائط وأصبح هذا الأسلوب مستقلا بذاته يعطى هذه المعانى مباشـرة دون وسائط فيصبح بسط اليدين هو الجود فيمن يمكنه بسطها ومن لايمكنـــة وكذا الأمر فى غل اليدين •

ونذيل حديثنا عن الزمخشرى بأن الكناية قد نضجت عنده ووجدت لها ميدانـــــا فسيحا مما مكن لها أن تجرى فى سياقات متعددة فى معالجة الأساليب بعـــد أن أرسى الجرجانى قواعد بنائها وتركيبها اللغوى •

يقول الدكتور " شوقى ضيف " : " يمكن أن يقال إن قواعد علم البيـان قد كملت عنده كما كملت قواعد علم المعانى • وكل ماهنالك أنه بقى من يستقصيها ويتتبعها عنده وعند عبدالقاهر وينظمها فى مصنف يجمع متفرقها ويضم منثورها

الكنايـــــــة
فى دراســات المتأخريـــــــن

- السكاكـى
- الخطيب القزوينى
- ابن الأثيــــــر
- العلـــــوى

الســـــكاكى

ثم جــاء " السكاكى " وبمجيئه دخلت البلاغة بصفة عامة فى مرحلـــــة جديدة وهى مرحلة التبويب والتعريف " فالسكاكى " أول من بوّب البلاغـــــة وقسمها إلى أقسام ثلاثة : المعانى ، والبيان والمحسنات أو البديع واستــطاع بعقليته المنطقية أن يمحصها ويرتبها • وإن كانت هناك محاولات سابقة لبعــض فنون البلاغة ممن سبقوه إلا أنها لم تجعل تبويب مسائل البلاغه وتعريفها هدفا مثل " السكاكى " فقد كانت أبوابها متداخلة وتعريفاتها غير وافية مما جعــــل السكاكى يعنى بهذا الأمــر •

ولما كانت الكناية فنا من فنون البلاغة وواحدة من مسائل البيان كـــان تعريفة لها بقوله " الكناية هى ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر مايلزمه لينتقـل من المذكور إلى المتروك كما تقول فلان طويل النجاد لينتقل منه إلى ماهـــــو ملزومه وهو طول " القامة " (١) • ولعل " السكاكى " هو أول من أدخـــل اللزوم فى ضوابط التعريف مما عرضه لهجوم يجانبه العلم لدى كثير من الكتـــاب المعاصرين وسنتعرض لبعض من ذلك فى حديثنا هنا •

قسم " السكاكى " الكناية إلى ثلاثه أنواع : كناية مطلوب بها نفـــــس الموصوف ، وكناية مطلوب بها نفس الصفة ، وكناية مطلوب بها تخصيص الصفـــة بالموصوف •

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكى : ١٧٠•

وهى أقسام ذكر منها " الجرجانى " قسمين وهما الكناية عن صفة وعن نسبة وأتم " الزمخشرى " الكناية عن موصوف ولكن " السكاكى " نظم هذه الأقسام ثم قسم بعضها إلى قريبة وبعيدة وإن كان " عبدالقاهر " و قبله قدامه سبقاه لذلك وخاصة " عبدالقاهر" فى حديثه عن " المعنى ومعنى المعنى " فقد كان عميقا ومستقصيا ، غير أن " السكاكى " يحاول تقنينها ووضع الخصائص التى تميزها عن غيرها " فالقريبة هى أن يتفق فى صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض فتذكرها متوصلا بها إلى ذلك الموصوف مثل أن تقول جاء نى المضياف وتريد زيدا لعارض اختصاص للمضياف بزيد والبعيدة هى أن تتكلف اختصاصها بأن تضم إلى لازم آخر وآخر فتلفق مجموعا وصفيا مانعا عن دخول كل ماعدا مقصودك فيه مثل أن تقول فى الكناية عن الإنسان حى مستوى القامة عريض الأظفار " (١)

ففى القريبة حيث تقول جاء نى المضياف فإن المعنى ينتقل إلى زيد دون تفكير وذلك لاختصاصه بهذه الصفة أما البعيدة فإن هذه القرائن المتعدده حى ، مستوى القامة ، عريض الأظفار صفات اختص بها موصوف واحد وهو الإنسان فالوصول بهذه الصفات لهذا الموصوف يحتاج إلى فكر وروية عنده ولهذا كانت بعيدة ٠

---

(١) المفتاح : ١٧٠٠

ولايقف " السكاكى " عند تقسيم الكناية إلى قريبة وبعيدة فحسب ولكن قسم القريبة إلى واضحة وساذجة كما فى قولك " زيد طويل النجاد " وخفية كما فى قولهم " عريض القفا " و " عريض الوسادة " فعرض القفا عنده كناية عن الأبله والثانية كناية عن الأولى فهى كناية عن كناية إذ أن عرض الوسادة كناية عن عرض القفا ، وعرض القفا كناية عن البله فهو كناية عن كناية وهى عنده أنهم لما أرادوا أن يخفوا ذلك قالوا عريض الوسادة فإن عرضها يدل على عرض القفا .

وهذه التقسيمات والتعريفات التى وقف عندها "السكاكى " وقف عندها المتأخرون ولم يحاولوا الخروج عنها أو الاجتهاد فى ذلك وهذا مما جعل السكاكى يكون عرضة للهجوم والاتهام ، يقول الدكتور " أحمد مطلوب " فى كتابة البلاغة عند السكاكى : " ونعتقد أن البلاغه لو لم تحد وتضبط ضبطا منطقيا لما وقفت عند هذا الأمر أى عند الحد الذى رسمه السكاكى ولخطت خطوات واسعة ولكان لها شأن غير الشأن الذى وصلت به إلينا " (١)

وكذلك يقول الدكتور " حفنى محمد شرف " " السكاكى " أول من مزق البلاغة وأسال دماء ها على صخرة المنطق والفلسفة واستحرت هذه الأقسام دستورا لا يحيد عنه البلاغيون إلا نادرا " (٢)

---

(١) البلاغة عند السكاكى د. احمد مطلوب : ٢٩٢

(٢) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق د.حفنى محمد شرف : ٤٢٨

وكثيرون هم الذين هاجموا السكاكى هجوما متعسفا تنقصه النظـــــرة العلمية والموضوعية فالمناقشات العلمية لاتتم بأحكام مطلقة ، ورجل مثـــــل " السكاكى " كان يجب أن يقوم جهده باعتباره نهج نهجا مخالفا لمن سبقوه فى دراسة البلاغه ركز فيه على وضع المصطلحات وتصنيف مواد البلاغة وتقسيمهـــا باعتبار أن هذا الجانب أهمل ممن سبقوه وللناس أن يأخذوا هذه التقسيمـا ت أو يرفضوهاأو يأتوا بالبديل ، وهو دائما يدعو إلى الذوق والاختراع وعـــدم الانكباب على موائد الآخرين كما عبر عن ذلك ، ثم هو وان لم يعط ملكة مـن الذوق تساوى ملكه " الجر جانى " أو " الخفاجى " أو " ابن الاثيـــر " إلا أنه كان يتمتع بقدر ة من الذكاء والوعى جعلته يضع قوانين وسعت معظم هذه الفنون واستوعبتها مما جعل اللاحقين له لا يقدرون كثيرا على هدم مـا بناه وبالرغم من ذلك فهو أشار إشارات كثيرة الى فنون مختلفة من الكنايـــة كالرمز والإشارة والتلويح ، والإيماء ، والتعريض ، فكان أحرى بمن هاجمو ه أن يتوسعوا في هذه الأنواع ويتعرضوا لهـا بالدراسة ، فإن كل لون من هذ ه الألوان صالح لإثراء الدراسة البلاغية وتمكينها من فتح مغالبق كثيرة فى الشعـر والأدب ، واستخراج الأساليب الأدبية الرفيعة ، ولو أنهم ركزوا جهدهم فـــى دراسة هذه الأساليب لوسعتهم ولما استوعبوها ، كما أن الرجل لم يقفـــل باب الاجتهاد كيف ذلك وهو يدعو إلى الاختراع والتذوق و " الجر جانـــى " قبله نبه لذلك بقوله : " وليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثلته وصـــوره وطرقه ومسالكه حد ونهاية

"فالسكاكى " سلك مسلكا من هذه الطرق غير المحدودة فكيف يحق لنا إذاً أن نقول إن " السكاكى " هو الذى وضع حدا لنهاية هذا العلم ، فان كان هناك جناية على البلاغة فليست من (السكاكى) وإنما هى ممن قعد بهم الكســـــل عن النظر والبحث فى أسرار هذه الأساليب وانصرفوا للحديث عن السكاكى ! ! .

الخطيب القـــزوينى (١)

بعد كتاب " المفتاح " دخلت البلاغة عهدا جديدا هو عهد الشـــروح والتلخيصات وكان من أكبر أعلام هذه المدرسة " جلال الدين محمد بـــن عبدالرحمن القزوينى " (٧٣٩هـ) الذى ألف كتابه " التلخيص " والذى نال شهرة واسعة وأقبل الناس عليه قراءة وشرحا وتدريسا وكان الدافع لتأليفـــه مارآه فى كتاب " السكاكى " من حشو وتطويل . ومنهج " التلخيص " لايختلف عن منهج " المفتاح " اختلافا كبيرا وإن كان قد أجرى بعض التعديلات فـــى تصنيف الأبواب ثم قسم البلاغة فيه إلى ثلاثه فنون :

١ـ " علم المعانى وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابـــق مقتضى الحال " (٢)

٢ـ " والثانى علم البيان وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطـــرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه " (٣)

---

(١) كان الأولى أن يدرس ابن الاثير قبل الخطيب ولكن لما كان السكاكـــى والخطيب يمثلان اتجاها واحدا فى دراسة البلاغة وكان مؤلفا الخطيـــب (التلخيص) و (الإيضاح) متعلقين بدراسة (المفتاح) رجحنـــا دراستهما معا . كما أن ابن الأثير والعلوى يمثلان اتجاها متقاربا فـــى دراسة الكناية كما سيأتى فى دراستنا لهما .

(٢) الإيضاح : ١ : ٨٤

(٣) المصدر نفسة : ٢/: ٣٢٦.

٣ـ " والثالث علم البديع وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة " .

اما الكناية عند " الخطيب " فلم تخرج عما كتبه " السكاكي " عنها فهي عنده " لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ " (١)

وفرق بينها وبين المجاز من هذا التعريف أي من جهة إرادة المعنى الحقيقي مع جواز إرادة لازمة فإن المجاز ينافي ذلك لأن القرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي جزء من مفهومه وخالف " السكاكي " في قولة : ان مبنى الكناية من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم الى اللازم لان اللزوم عنده من الطرفين من خواص الكناية دون المجاز ، أو شرط لها دونه لانه اللازم مالم يكن ملزوما يمتنع أن ينتقل منه إلى الملزوم فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم

وقسم الخطيب الكناية إلى ثلاثة أقسام كما هي عند السكاكي

الأولى " المطلوب بها غير صفة ولانسبة " (٢)

والثانية المطلوب بها صفة وتنقسم إلى قريبة وبعيدة وواضحة وخفية (٣)

والثالثة المطلوب بها نسبة (٤)

---

(١) المصدر السابق نفسة : ٢/٤٥٦

(٢) المصدر نفسة : ٢/:٤٥٧

(٣) المصدر نفسة : ٢/٤٥٨

(٤) المصدر نفسه : ٢: ٤٦٢

ثم هى تتفاوت إلى تعريض ، وتلويح ، ورمز ، وإيماء ، وإشارة ٠ هـنا والكناية جاء ت فى "التلخيص " مقتضبة جافة إذا كان نصيبها من الشواهـد الشعرية بيتا وشطرا من البيت وبعضا من الأمثال ٠ إلا أنه أثراها فى كتابـه " الإيضاح " حيث حفلت فيه الكناية بدراسة وافية لكثير من الشعر والأمثال والآيات القرآنية وعرض فيها الخطيب بعضا من آراء من تحدثوا عنها " كالزمخشرى" و " الجرجانى " و " السكاكى " ولم تخل من الملاحظات اللطيفة كـأن يقول لك " ومن لطيف هذا القول قوله تعالى " ولما سُقط فى أيديهـم " أى ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل لأن من شأن من اشتد ندمـه وحسرته أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه قد وقع فيها (١) بالإضافة إلى بعض المقارنات التى تكشف عن عرض واحد فيتعرض لها " الخطيب " بالتحليل يقول فى ذلك :

" وكذا قول من يصف راعى إبل أو غنم ٠ :

ضعيفُ العصا بادى العروق تـرى له عليها اذا ما أجدب الناس اصبعـا

وقول الآخر :

صلـب العصا ، بالضـرب قد دماها

أى جعلها كالدمى فى الحسـن :

والغرض من قول الأول " ضعيف العصا " وقول الثانى " صلب العصا"

---

(١) المصدر نفسة : ٢: ٤٦١

هما وإن كانا فى الظاهر متضادين فانهما كنايتان عن شىء واحد وهو حسن الرعية والعمل بما يصلحها ، ويحسن أثره عليها " (١)

فأراد الأول أنه رقيق مشفق عليها لايقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة فهو يتخير مالان من العصا .

وأراد الثانى أنه جيد الضبط لها ، عارف بسياستها فى الرعى بزجرها عن المراعى التى لاتحمد ... (٢) وقوله : " بالضرب قد دماها " تورية حسنة ويؤكد أمرها " صلب العصا " (٣)

وبعد : فإن دراسة الكناية فى " الإيضاح " جاءت وافية وكانت هى الصورة الشائعة لها بعد ذلك إذ أن معظم من جاء بعد " الخطيب " كان غالبا مايدور حول ما كتبه " الخطيب " و " السكاكى " وكانت دراستهم تحليلا وتحريرا لما قاله الأئمة قبلهم . وكانوا يضيفون أفكارا نظرية قليلة لاتراها ذات تأثير فى مسار دراسة المادة .

---

(١) المصدر نفسة : ٢:٤٦٢

(٢) المصدر نفسة : ٢:٤٦٢

(٣) المصدر نفسة : ٢:٤٦٢

ضياء الدين بن الاثير

وجدنا للكناية دراسة وافيه عند " ابن الاثير " فى كتابيه " الجامع الكبير " و " المثل السائر " وهى عنده من لطيف القول مقصورة على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانبا ٠ والتميز فى دراسة " ابن الأثير " الكناية فى كتابية باد للمتأمل فيهما ، فالتعريف لها مختلف وكذلك التقسيم فكثير من أفكاره التى عرضها فى موضوع الكناية فى " الجامع الكبير " ضعفها فى " المثل السائر " ٠

فالكناية فى الجامع " أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كما كنى الله تعالى عن الجماع " باللمس " فان حقيقة اللمس هنا الملامسة يقال لمست الشيء إذا لامسته ولما كان الجماع ملامسة بالأبدان وزيادة أمر آخر أطلق عليه اسم اللمس مجازا وضد الكناية التصريح " (١)

وأيضا التعريض وهو عنده فى الجامع " أن تذكر شيا يدل على شيء لم تذكره وأصله التلويح من عرض الشيء أى من جانبه " (٢) أما تعريفه لها فى " المثل السائر " هى كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى

---

(١) الجامع الكبير : ١٥٦

(٢) المصدر نفسة : ١٥٧٠

الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز " (١)

والتعريض : " فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم " لا بالوضع الحقيقى ، ولا المجازى ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : والله إنى لمحتاج ، وليس فى يدى شىء ، وأنا عريان والبرد قد آذانى ، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلة الطلب لاحقيقة ولامجازا وإنما دل عليه من طريق المفهوم بخلاف دلالة اللمس على الجماع " (٢)

" **والتعريض** اخفى من الكناية لأن دلارلة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقى ولاالمجازى وإنما سمى التعريض تعريضا لان المعنى فيه يفهم من عرضه أى من جانبه وعرض كل شيء جانبه " (٣).

ويلاحظ الفارق بين التعريفين فالكناية فى الجامع ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له (٤) وهو حد يمكن أن تدخل فيه جميع صور المجاز ويبدو

---

(١) المثل السائر : ٣: ٥٢

(٢) المصدر نفسة : ٥٦/٣

(٣) المصدر نفسة : ٣: ٥٧

(٤) الجامع الكبير : ١٥٦.

أن " ابن الاثير " لاحظ ضعف هذا التعريف فحاول أن يجد تعريفا لكناية أكثر تحديدا فى " المثل السائر " ثم هى فى الجامع تنقسم قسمين يحسن استعماله والآخر يقبح استعماله وينقسم الذى يحسن استعماله إلى اربعة أقسام :

الأول : " التمثيل وهو التشبيه على سبيل الكناية وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى فتوضع ألفاظ تدل ع لى معنى آخر وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثالا للمعنى الذى قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه كقولك " فلان نقى الثوب " أى منزه عن العيوب " (١).

القسم الثانى : الإرداف (٢) وهو ينسبه إلى صاحبة " قدامة " ويفرق بينه وبين التمثيل فالأول يقوم على التمثيل وهو أن يكون المعنى الذى تأتى به مثيلا للمعنى المقصود والآخر يقوم على الإرداف بمعنى أن يكون المعنى المذكور مرادفا للقصود ٠ ثم يفرع الإرداف إلى خمسة فروع ، فعل المبادهة ، باب مثل ، باب ما يأتى فى جواب الشرط ، باب الاستثناء من غير موجب ، والخامس ليس مما تقدم بشىء ٠

القسم الثالث : المجاورة وهو أن يريد المؤلف ذكر الشى ويترك ذكره جانبا

---

(١) المصدر نفسة : ١٥٧

(٢) المصدر نفسة : ١٦٠ ـ ١٦٣

(٣) المصدر نفسة : ١٥٧٠

إلى ماجاوره فيقتصر عليه اكتفاء " بدلالته على المعنى المقصود كقول عنترة .

وشككت بالرمح الأصم ثيابـــــه ليس الكريم على القنا بمحــــرم

القسم الرابع : " وهو ماليس بتمثيل ولا إرادة ولا مجاورة كقوله تعالى :
أو من ينشأ فيه الحلية وهو فى الخصام غير مبيت "(١) فكنى عن النســـاء
أنهن يتزين فى الحلية اى الزينة والنعمة وهو إنا حتاج إلى محاورة الخصـــوم
كان غير مبين أى ليس عنده بيان .

وأما الضرب الثانى من الكناية فهو الذى يقبح ذكره ولايحســن استعماله
كقول أبى الطيب :

إنى على شغفى بما فى خمرهــا لأعف عما فى سراويلاتهــــا

فإن هذه كناية عن النزاهة والعفة (٢)
وابن الاثير يناقش فى الكنايتين بيت امرىء القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنــا ورفضت فذلت صعبة أى اذلال

فابن الأثير يقول : " وعلى هذا فإن بيت امرىء القيس الذى ذكره ابن سنا ن

---

(١) الزخرف : آية : ١٨

(٢) انظر الكناية فى الجامع الكبير : ١٥٧ ــ ١٦٦ .

مثالا للكتابة هو مثال للتعريض ، فإن غرض امرىء القيس من ذلك أن يذكر الجماع غير أنه لم يذكره بل ذكر كلاما آخر يفهم الجماع من عرضه لان المصير إلى الحسنى ورقة الكلام لايفهم منهما ما أراده امرؤالقيس من المعنى لاحقيقة ولامجازا " (١).

ولانرى ماذا يقصد " ابن الاثير " من قوله لاحقيقة ولامجازا لأن البيت على تفسيره هو ، للكناية يمكن حمله على جانبى الحقيقة والمجاز لأن الصيرورة إلى الحسنى ، والحلول ، ورقة الكلام ، يمكن أن يكون حقيقة ويمكن انيكون القصد منه ماقالوه. وكذلك استعمال اللفظ فى غير ماوضع له يسوغ حمله على جانب المجاز ، وكذلك فإن الذلول ، ورقة الكلام ، والصير إلى الحسنى كلها من لزوميات الجماع فالبيت كناية والصواب فى جانب "الخفاجى " ويجانب ابن الأثير هنا .

أما المسائل التى حررها فى " المثل السائر " ولم يحررها فى " الجامع " .. مسألة الكناية بين الحقيقة والمجاز ، فهى عنده من أنواع المجاز لأنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز ، والوصف الجامع " عند ابن الاثير "

---

(١) سورة ص : آية : ٢٣

هو الجزء المشترك بين طرفى الكناية فالوصف الجامع بين المرأة والنعجة هــو التأنيث وذلك فى قوله تعالى : " إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة" (١) ولهذا عده من الكناية ولما لم يكن هناك وصف جامع بين القلب والثياب فى قولة تعالى " وثيابك فطهّر " (٢) لم يلتفت إليه ولم يعده من الكناية .

قولهفى مجازية الكناية نجده كذلك فى قوله " وكذلك الكناية فإن الحقيقة لها هو الاسم الموضوع أولا فى الأصل وأما المجاز فإنه طارىء " (٣) ثــــم يستدرك أنه حصر المجاز فى ثلاثة أبواب وهى الاستعارة ، والتوسع فى الكــلا م والتشبيه . فما وجه ذكر هذا النوع الرابع الذى ذكره أخيرا فى الكناية ؟ والجواب عنده :

" اما الحصر الذى ذكرته فى باب الاستعارة فهو ذاك ولازيادة عليه ، وأمــــا الكناية فهى جزء من الاستعارة ، ... ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خـــا ص إلى عام ، فيقال : كل كناية استعارة وليس كل استعارة كناية " (٤)

---

(١) سورة ص : اية : ٢٣

(٢) سورة المدثر : آية /٤

(٣) المثل السائر : ٣: ٥٥

(٤) المصدر نفسه : ٣: ٥٥

والفرق بينهما أن الاستعارة لفظها صريح والكناية ضد الصريح لأنهـــا عدول عن ظاهر اللفظ فالفروق ثلاثه وهى : العموم ، والخصوص ،والصريـح والحمل على جانبى الحقيقة والمجاز (١) .

وبالرغم من اجتهاد " ابن الاثير " فى تعريفة هذا والذى أراده مستوعبا لأسلوب الكناية لكننا نجد العلوى يدخل عليه من ثلاثه مداخل ليهدم بهـــا تعريفة ويتحكم بفساده .

يقول العلوى : " وهو فاسد لأوجه ثلاثة :

أما أولا فلأن ظاهر كلامه " معنى يجوز حمله على جانب الحقيقة والمجـاز يدل على أن المحمول معنى واحد على جهة الحقيقة والمجاز وهذا خطأ فـــان المعنى الواحد لايجوز أن يكون حقيقة ومجازا لاجتماع النفى والإثبات فيـــه لأنه يصير حقيقة ، ليس حقيقة وهو باطل ، بل الحق فى الكناية أنها معنيان : أحدهما حقيقة والآخر مجاز وظاهر كلامه أنه معنى واحد لأن قولنا فـــلا ن كثير رماد القدر هو بأصله دال على كثرة الرماد ، وبمجازه على كرم الموصـــوف لكثرة ضيفانه ، فقد أساء فى هذا الإطلاق ، وأما ثانيا : فلأن ماذكـــر يبطل بالاستعارة فى مثل قولنا " فلان أسد وبحر " ، فان قولنا "اسد " كما يدل بحقيقته على " السبع " فهو دال بمجازة على الشجاعة ، فيجـــب دخوله فى حد الكناية ، وأما ثالثا فلأن قوله (بوصف جامع بين الحقيقـــة

---

(١) المصدر نفسة : ٣ : ٥٥ .

والمجاز) يدخل فيه التشبيه ، فإنه لابد من اعتباره أمر جامع ، بخــــلاف الكناية ، فإنها لاتفتقر الى ذكر الجامع ، فاعتبار قيد الوصف الجامع ، يدخلهـا فى التشبيه ويخرجها عن حقيقتها " (١)

والدكتور رجاء عيد " يحاول أن يرد على العلوى دفاعا عن "ابن الاثير" بقوله : " لكن العلوى يفضل بعضا مما ذكره ابن الاثير فيما يخص العلاقـــة بين التشبية والاستعارة من جهة ، وبين الكناية من جهة أخرى ، وكان الأولـــى به أن يعرض وجـهة نظر معارضة كاملة بدلا من أن يأخذ شتاتا يوافق ماعنـــده من حجاج يرد به عليه .

فابن الأثير شترط الوصف الجامع بين الحقيقة والمجاز فى الكناية وهـــو يقصد بهذا الوصف الجامع مايجعل المتلقى يستشف الدلالة الرامزة من خلال الأداء اللغوى .فى التعبير الكنائى وهو على صواب فى ذلك حتى لاتتميع الاشيـــاء ويحمل التعبير على غير مايحتمل .. كذلك فإن الاعتراض عليه بالاستعـــارة ، فابن الأثير يعد الكناية جزءا من الاستعارة من ناحية أن هناك دلالـــــة وراء هذه الدلالة الظاهرة " (٢)

---

(١) الطراز العلوى : ١:٣٧٢

(٢) فلسفة البلاغة : د. رجاء عيد : ١٨٦.

وبالرغم من محاولة الدكتور " عيد " استكشاف مقاصد " ابن الاثير " من تعابيره إلا أننا نجده تفوته أشياء جوهرية فى دراسة " ابن الاثير " للكناية فهو يعلق على قول " ابن الاثير " فى أبيات " نصر بن سيار " :

أرى خلل الرماد وميض جمـــر ... ويوشك أن يكون لها ضـــرام

فإن النار بالزندين تـــورى ... وإن الحرب أولها كـــلام

أقول من التعجب ليت شعـــرى ... أأيقاظ أمية أم نيـــام

" فابن الأثير " يشير إلى الكناية فى البيت الأول لوروده بمفرده فكـــان كناية لأنه يجوز حمله على جانبى الحقيقة وحمله على جانب المجاز ، أما الحقيقة فإنه أخبر أنه رأى وميض جمر فى خلل الرماد وأنه سيضطرم وأما المجاز فإنـــه أراد أن هناك ابتداء شر كامن ومثل له بوميض جمر من خلل الرماد "(١)

يقول الدكتور " عيد " : ذلك المفهوم المبتسر سببه ماقلناه من النظـــر الجزئى للأداء والإسراع بوضع مصطلحات له ولايصح أن نقبض على بعض من كـــل ونظل ندور حوله ونتجادل حول حقيقته ومجازه . وماذا تعنى الحقيقة فى البيت الأول على زعم " ابن الاثير " لو حملنا الأداء الشعرى عليها سيتحول هـــذا الأداء إلى نثرية تقريرية والشاعر لايقصد هذا المفهوم الحقيقى .. وإنما المقصـــود ــ وهو واضح ــ أو وراء الأكمة ماوراء ها .(٢)

---

(١) المثل السائر : ٣: ٥٦

(٢) فلسفه البلاغة : ١٨٧.

قلت إن الدكتور " رجاء " يخطىء فى فهم أشياء جوهرية فى مـــراد ابن الاثير وبالرغم من أن البيت من أبيات الاستعارة فنحن لانناقشة من هـنا الجانب ولكن نناقشة من مقصود " ابن الاثير " فى مراده بحقيقة اللفـــظ فالغريب أن الدكتور يحمل على " ابن الاثير " ثم يأتى ليقول ماقاله "ابـن الأثير " إذ أن وراء الأكمه ما وراء ها الذى قال الدكتور لم يفت ابن الاثير وقد ذكره بقوله فإنه أراد أن هناك ابتداء شرا كامن ، وأما القصد بإمكان الحقيقـة من هذا اللفظ والتى يثور عليها الدكتور " عيد " فليس هذا مفهوم "ابن الاثير" للبيت وإنما يريد أن يطبق قاعدته وهى إمكان الحصول على الحقيقة من لفـظ الكناية فإن وميض النار من خلال الرماد لايمتنع حقيقة كما يمتنع أن يكون زيـد أسدا حقيقة وهذه مسألة جوهرية كما قلنا عند البلاغيين فى الفرق بين الكنايـة والمجاز فليس المقصود إذا عند " ابن الاثير " المفهوم العام للبيت وإنما المقصود هو أنه بيت من بيوت الكناية يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز وإن كـان البيت من الاستعارة وليس من الكناية .

ثم انطلق " ابن الأثير " فى تتبع أساليب الكنايةمن الشعر والنثـــر والقصص شارحا لها ومحللا بأسلوب شعرى .

يقول لك : " وقد تأملت ذلك وحققت النظر فيه فوجدت الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب كانت شديدة المناسبة واضحة الشبهة ، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة فى قوةالمناسبةوالمشابهة الا ترى إلـى قولهم " فلان نقى الثوب "وقولهم " اللمس " كناية عن الجماع فإن نقاء الثـوب

أشد مناسبة وأوضح شبها لأنا إذا قلنا نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب اتضحت المشابهة ، ووجدت المناسبة بين الكنايةوالمكنى عنه شديدة الملاءمة ، وإذا قلنا "اللمس كالجماع " لم يكن بتلك الدرجة فى قوة المشابهة وهذا الذى ذكر فى أن من الكناية تمثيلا وهذا كنا وكنا غير سائغ ولا وارد بل الكناية كلها هى ذاك " (١) .

ومثل هذه الموازنات والتحليلات للألفاظ لاتكون إلا من رجل أعطى ملكة الذوق وخبرة التعامل مع الأساليب العربية وابن الأثير واحد من هولاء يقول الدكتور مطلوب :

" وليس فى بحث القزوينى ماينفع فى دراسة الكناية على اعتبار أنها لون من الوان الخيال و وسيلة من وسائل التعبير ، ولعل ماكتبه " ابن الاثير " فى " الجامع الكبير " و " المثل السائر " يغنى الباحث فى هذا الموضوع فقد جعل لهذا الفن روحا ، وبعث فيه حياة فإذا بالكناية صور متحركة ، وإذا بالأمثلة توحى بكل بديع عجيب .

وليت المتاخرين استفادوا مما ذكره ابن الاثير ... (٢)

وأقول إن سلمنا بكلام الدكتور مطلوب عن (ابن الاثير) فلن نسلم له فى تقليله من أهمية دراسة " القزوينى " وكيف ذلك ونحن لازلنا نردد ماقاله " الخطيب " عن الكناية ولم نضف جديدا على ما أتى به !

---

(١) المثل السائر : ٣ : ٥٩

(٢) القزوينى وشروح التلخيص د. احمد مطلوب : ٤٢٠ .

العـــــلوى

ثـم جاء العلوى فى القرن الثامن (٧٤٩هـ) فنهج بالكناية منهجـــــا مخالفا لمدرسة الخطيب ولمن سبقوه ، نعم ، إنه لم يضف جديدا حيـــث جمع كثيرا مما كتب عنها وعرضه للبحث والمناقشة وخالف من سبقوه فى كثير مـــن مسائل الكناية ففى تعريفها عرض كثيرا من التعريفات التى عرفها سابقـــوه للكناية " كالجرجانى " و " ابن السراج " المالكى صاحب كتاب " المصباح "و"ابــن الأثير " وبعض التعريفات الأخرى التى ذكرها ابن الاثير فى كتابه "المثل السائر" ففى كل تعريف مـن هذه التعريفات يحكم العلوى بفساده مستعينا على ذلـك بمعرفته بعلم الأصول إلى أن يصل بنا إلى تعريفه هو ، وهو تعريف وضع لـه كل المحترزات حتى يخرجه مكتملا خاليا من الضعف الذى حاسب عليه السابقيـن يقول فى ذلك " فالمختار عندنا فى بيان ماهية الكناية أن يقال هى اللفظ الــدال على معنيين مختلفين ، حقيقة ومجـاز من غير واسطة ، لا على جهة التصريح (١)

ثم يستطرد العلوى بقوله : " ولنفسر مرادنا بهذه القيود فقولنــــا اللفظ الدال يحترز به عن التعريض فإنه ليس مدلولا عليه بلفظ وإنما هــــو المفهوم من جهة الإشارة والفحوى ... وقولنا على معنيين يحترز به عما يـــدل على معنى واحد .. وقولنا ومجاز يحترز به عن اللفظ المشترك فان دلالتـة على مايدل عليه من المعانى على جهة الحقيقة لاغير ، وقولنا من غير واسطـــة يحترز به عن التشبيه فإنه لابد فيه من أداة التشبيه أما ظاهرة كقولك زيـــد كالأسد ، وإما مضمرة كقولك زيد البحر ، وقولنا على جهة التصريح يحترز بــــه

عن الاستعارة ، فإن دلالتها على ماتدل عليه من جهة صريحها إما من غير قرينة كدلالة الأسد على الحيوان ، وإما مع القرينة كدلالة الأسد على الشجاع.
بخلاف الكناية فإن الجماع ليس صريحا في قوله تعالى : (فأتوا حرثكم) (١)

ومثلما حكم " العلوى " بفساد تعريفات كثير ممن سبقوه لما لاحظه عليها من الضعف وعدم استيعابها لأسلوب الكناية فإننا لانسلم له بصحة تعريفه وان كنا لن نحكم بفساده إلا أننا نضعفه .

فقوله : " على جهة التصريح يحترز به عن الاستعارة فإن دلالتها على ماتدل عليه من جهة صريحها " .

فإن الاستعارة بالكناية يمكن أن تندرج تحتهذا التعريف لأنها اختفى فيها لفظ المشبه به واكتفى بذكر شيء من لوازمه دليلا عليه

أتته الخلافه منقادة إليه تجر أذيالها

أين التصريح في هذا البيت ثم أنظر إلى قول عبدالقاهر في بيت عبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

يقول الشيخ " ولا سبيل لك إلا أن تقول : كنى باليد عن كذا وأراد باليد هذا الشيء أو جعل الشيء الفلاني يدا كما تقول كنى بالاسد عن زيد.. (٢)

---

(١) المصدر السابق نفسه : ١: ٣٧٤ . البقرة : اية : ٢٢٣

(٢) اسرار البلاغة ، عبدالقاهر : ١٣٩ .

ويفصل بينها وبين التحقيقة أن التشبيه فى التحقيقية يأتيان نحوا كقولك: " رأيت أسدا " وإن رمته فى القسم الثانى وجدته لايواتيك تلك المواتاه ، اذ لاوجه لأن يقول انا أصبح شيئ مثل اليد للشمال ، أو جعل شبيه باليـــــد للشمال وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تحترق إليه سترا وتعمل تأمـــــلا وفكرا ٠٠٠٠ " (١) فليس كل استعارة تجرى على جهة التصريح ، وربما كـــــان تعريف العلوى أقرب إلى الاستعارة المكنية منه إلى الكناية ٠

هنا ويعتبر العلوى الكناية من أنواع المجاز لأنه المقصود منها ليـــــس المعنى الأصلى للفظ وإلا لما كان هناك داع للكناية ، وطالما أن المقصـــــو د ليس هو المعنى الأصلى فيجب القول إنا بمجازيتها لأن حقيقة المجاز عنده مـــادل على معنى خلاف ما دل عليه بأصل وضعه ، وكما أنها تساوى الاستعارة فى الدلالة على معنى يخالف المعنى الأصلى ، ولما كانت الاستعارة نوعا من انواع المجـــا ز فكذلك تكون الكناية نوعا من أنواع المجاز "إن الكناية قد دلت على معناهـــــا اللغوى الذى وضعت من أجلة ، فبعد ذلك لايخلو حالها إما أن تدل علـــــى معنى مخالف لما دلت عليه بالوضع أم لا ، فإن لم تدل فلا معنى للكناية ، وإن دلت عليه وجب القول بكونه مجازا لما كان مخالفا لما دلت عليه بالوضع (٢)

---

(١) المصدر السابق نفسه ١٤٠

(٢) كتاب الطراز : ١ : ٣٧٦

والملاحظ أن العلوى متأثر بكثير من آراء " ابن الاثير " فى تقسيـم الكناية على الرغم من أنه كلما ذكر كلاما " لابن الاثير " عارضه فيه ٠

ومن الآراء التى أخذها عنه تقسيم الكناية إلى مفردة ومركبة ، وأن المركبة أبلغ من المفردتلقوة التشبية فيه وسنعرض لذلك عند تقسيمه للكناية ٠

تقســيم الكناية :

يختلف تقسيم الكناية عند " العلوى " عمن سبقوه كما ذكرنا وهــو هنا متأثر " بابن الأثير " وهى عنده ثلاثة أقسام :

القسم الأول : باعتبار ذاتها الى مفردة ومركبة فأما المفردة فهى ماكانت الكنايــة حاصلة فى اللفظة الواحدة ، وهذا كقوله تعالى : " " إن هذا أخى له تسـع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة " (١) فالمراد بالنعجة المرأة لما بينهمـا من الملائمة والتذلل (الضعف والرحمة وكثرة التألف ٠ وكقوله تعالى : " أولامستم النساء " (٢) ٠فإنه كناية عن الجماع ٠

وأما المركبة وهى أكثر ورودا فى الكناية كقوله : " الكرم فى برديه والمجـد بين ثوبيه والعفاف فى عطفيه " هذا فى المدح ، وفى الذم " إنك لعريـض الوسادة " ٠

---

(١) سورة ص : آية : ٢٣

(٢) سورة المائدة : آية : ٦ ٠

ثـم يفاضل بين النوعين المفرد والمركب بقوله " فإذا وردت على طريقـة التركيب كانت أشد ملاءمة وأعظم بلاغة ، وإذا وردت على صورة الإفراد لم يكـن لها تلك المزية التى حصلت للمركبة ، ومثاله إنك إذا قلت فلان نقى الثـوب وأردت إيراده على صورة المشابهة فإنك تقول هو فى نزاهة العرض من العيـوب كنزاهة الثوب من الأدناس ، فإذا حصل على هذا التاليف اتضحت المشابهـة ووجدت المناسبة وظهر أمر الكناية وإذا قلت فى الكناية المفردة " اللمس " فـى الجماع لم تكن فى تلك الدرجة من المناسبة وقوة المشابهة كما ترى ." (١)

وهذه الأفضلية التى يذهب اليها " العلوى " و " ابن الاثير "وهـى التى تقوم على قوة التشبيه ووضوحه فى المركبة لاتعتبر من محاسن الكناية دائما وربما خرج بها التشبية إلى الاستعارة فالمثال الذى أورده العلوى بقوله : هـو فى نزاهة العرض من العيوب كنزاهة الثوب من الأدناس إذا اخذناه على هـذا التفسير يكون استعارة وليس كناية فإن الاستعارة مبناها على التشبيه والكنايـة مبناها على اللزوم فكلما قوى التشبيه قربت الكناية من الاستعارة ، وكلما خفـى التشبية قربت الاستعارة من الكناية .

والقسم الثانى : من الكناية باعتبار حالها إلى بعيدة وقريبة فالقريبـة مايكون الانتقال إلى المطلوب بأقرب اللوازم بقوله : " بعيدة مهوى القرط" (٢)

---

(١) كتاب الطراز : ١:٤٢٩ـ٤٣٠

(٢) المصدر نفسة : ١:٤٣٠

والبعيدة مايكون الانتقال الى المطلوب من لازم أبعد كقولك : "فـلان عريض القفا " (١).

أما القسم الثالث : والأخير فهو باعتبار تقسيمها إلى حسنة وقبيحة فالحسنة كقول الأعرابية تصف زوجها " له إبل قليلات المسارح ، كثيرات المبارك إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك " (٢).

ومثال القبيحة ماتخلو من الفائدة المرادة من الكناية ، وهو عيب عند أهل البلاغة كقول " الشريف الرضى " :

إن لم تكن نصلا فغمد نصال (٣)

إن تقسيم " العلوى " للكناية : يختلف عن تقسيم من سبقوه وهو قد تأثر فيه بابن الأثير خاصة فى القسمين الأول والثالث فهما من تقسيماته ثم ختم دراسته للكناية بذكر محاسنها وبلاغتها .

ومما يُحمد " للعلوى " أنه توسع فى دراسة أساليب الكناية وحشد لها كثيرا من الأمثلة المختلفة وتعرض لبعضها بالدراسة والتحليل فقد يصل فيه

---

(١) المصدر نفسة : ١:٤٣٠

(٢) المصدر نفسة : ١:١٣٢

(٣) المصدر نفسة : ١ /٤٣٢:

الأمر إلى دراسة المثال فى سبع نكات بلاغية يأخذها من نص واحد ، كما
أن الأمثلة التى درسها لم يحشدها فى مكان واحد ولكنه قسمها إلى خمسة
أقسام حفل كل نوع بعدد وافر من الامثلة .

فالنوع الأول : " بيان ماورد من الكنايات القرآنية" (١)

والثانى : فيما ورد من الكنايات فى الأخبار النبوية " (٢)

والثالث : فيما ورد من الكنايات عن امير المؤمنين كرم الله وجهه " (٣)

والرابع : فيما ورد من الكنايات فى كلام البلغاء " (٤)

والخامس : فيما ورد من الكنايات الشعرية " (٥)

وقد درس العلوى هذه الأنواع الخمسة تحت نوع واحد (من أنواع الكناية)
وهو التعريض ، ولكن العلوى يفرقه عنها ويفرد له دراسة خاصة تحت هذه
الأنواع الخمسة ويفرق بينها وبينه من أوجة ثلاثة :

أولها أن الكناية واقعة فى المجاز ومعدودة منه بخلاف التعريض فلا يعد منه

وثانيها أن الكناية تقع فى المفرد والمركب بخلاف التعريض فإنه لاموقع له إلا فى
اللفظ المركب .

---

(١) المصدر نفسة : ١ : ٤٠٠

(٢) المصدر نفسة : ١ : ٤٠٧

(٣) المصدر نفسة : ١ : ٤١١

(٤) المصدر نفسة : ١ : ٤١٥

(٥) المصدر نفسة : ١ : ٤١٨ .

والثالث : أن التعريض أخفى من الكناية لأن دلالة الكناية بطريق المجاز بخلاف التعريض فانط دلالته من جهة القرينة (١)

والذى نخلص إليه أن الكناية قد حظيت عند العلوى بدراسة وافية ، واهتمام واسع فى مناقشة من كتب عنها وفى دراسة أساليبها وتقسيم هذه الأساليب تقسيما لم يسبق إليه • ومع ذلك فإننا نقول إن العلوى لم يأت بجديد فى دراسته للكناية كما أتى به من قبله " كالجرجانى " و " الزمخشرى " و" ابن الاثير" وإنما اعتمد على هؤلاء فى دراسته لها وتوسع فى ذلك •

(١) المصدر نفسة : ١:٣٩٧•

فهرس المصادر والمراجع

١ــ القرآن الكريم

٢ــ لسان العرب لابن منظور

٣ــ القاموس المحيط للفيروز آبادى

٤ــ دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى

٥ــ أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجانى

٦ــ المثل السائر لابن الأثير

٧ــ الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى

٨ــ مفتاح العلوم للسكاكى

٩ــ الايضاح للقزوينى

١٠ــ الطراز للعلوى

١١ــ الكشاف للزمخشرى

١٢ــ العمدة لابن رشيق

١٣ــ الخصائص لابن جنى

١٤ــ الكنايات للثعالبى

١٥ــ الحيوان للجاحظ

١٦ــ الكامل فى اللغة والأدب للمبرد

١٧ــ البديع لابن المعتز

١٨ــ نقد الشعر لقدامة بن جعفر

١٩ـ كتاب الصناعتين للعسكرى

٢٠ـ مقدمة ابن خلدون

٢١ـ حواهر البلاغة للهاشمى

٢٢ـ فلسفة البلاغة للدكتور رجاء عيد

٢٣ـ التصوير البيانى لمحمد ابو موسى

٢٤ـ تاريخ آداب العرب للرافعى

٢٥ـ البيان للدكتور بدوى طبانه

٢٦ـ مناهج بلاغية للدكتور احمد مطلوب

٢٧ـ البلاغة عند السكاكى لفلدكتور مطلوب

٢٨ـ الدر است البيانية للقران الدكتور حسونة

٢٩ـ البلاغة الوضحة للجارم

٣٠ـ اللبلاغة العربية د٠ بكرى شيخ امين

فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحـــــة

الصفحـة

الصفحـــة